سفر الغربة

العنوان	سفر الغربة
المؤلف	على أبو المكارم
تصميم الغلاف	الرسام عمرو عكاشة
رقم الإيداع	٨٢٢٢ - ٢٠٠٣
الطبعة	الأولى
الناشر	دار الهانى للطباعة ت : ٤٤٤٢٠٥٥

سفر الغربة

تأليف
على أبو المكارم

الإهـــــداء

يا حبيبتى

إياك وحدك أعنى

قد آن أوان البوح

بوحى بسرك المفعم بالشوق وبالأحلام

فالقلب الموجع بالأحزان ذبيح

مجنون من يعقله الخوف

ملعون من درّعه الصمت

علي

سفر السفر

قال أبو أمجد على بن محمد المعروف بابن الشيخ ، غفر الله له :

اللهم يسر ٠

اللهم لا تصفر كفًا هى ممدودة إليك ، ولا تقذ عينا فتحتها بنور معرفتك ، ولا تخرس لسانا عودته الثناء عليك ٠

اللهم وكما كنت أولا بالفضل فكن آخرا بالإحسان ، الناصية بيدك ، والخير مرجوٌ منك ، والعاقبة على كل حال إليك ٠

اللهم وامنن عليّ بفضل رعايتك ، وأيدنى بفيض قوتك ، وأنر بصيرتى بنور حكمتك ، واجعل في قلبى هداية منك ، وفى عقلى طريقا يصلنى بك ، وآصرة تشدنى إليك ٠

اللهم إنى بك ، فاجعلنى لك ، ويسرنى إليك ، وقرّبنى منك ٠

وبعـــد

أكرمك الله وأكرم بك من كنت له محبا ، وأعزك وأعز بك من كان لك مخلصا ، ومتّعك بالخير كله ، ومتّع بك البررة الكرام من حولك ، الذين يرونك فتمتلئ عيونهم برؤيتك بهجة ، وينظرون إليك فتفعم قلوبهم بمحاسنك رضا ، فيسجدون لله شكرا على نعمائه بك ، ويحسنون الحمد على آلائه فيك ، ويجلسون إليك فترتفع هامانهم بعلمك، ويزدادون قدرا بفضلك ، ويحيطون بك إحاطة السوار بالمعصم حبا لك ، وحرصا عليك ، وإيمانا بك ، وطاعة لله فيك ، وطمعا في رجائه معك ، وأملا في فيض بر يمنحه لك ، واستمطارا لجميل عطاء يهديه إليك ،.وهل ثمة رجاء يُسعى إليه ، وبرّ يُحرص عليه ، وعطاء يؤمّل فيه ، خير من علم تذيعه ، وأفضل من فقه تنشره ، وأحسن من حديث تحدّث به ، وأعظم من خير تحييه ، وأهم من حق تدنيه ، وأوقع من

ظلم تقصيه ، وأهدى من فضيلة تؤكدها ، وأنفع من جهالة تدحضها ، وأروع من ظلمة تبددها ، وتمحو بفضل الله ما ران على القلوب والعقول منها •

وكنتَ - حفظك الله - قد سألتنى منذ سنوات ذات عدد ، أن أملى بعض ما لقيته من غرائب بعض الأزمنة ، وشيئا مما صادفت من عجائب بعض الأمكنة ، بعد أن ذكرت شيئا منها في بعض ما كتبت من مصنفات ، في أيام سابقات ، مما كان له شرف البلوغ إليك ، والوقوع بين يديك ، فشهدت له بفضلك شهادة بها أعتز ، ولها أنحنى ، وبها ترتفع عالية الهامة ، وبمحاسن رأيك فيها تطول القامة ، وشئتَ بفضلك أن تستزيد ، وسألت بلطفك منه المزيد ، وقد كان واجبى أن أبادر لتحقيق مأربك ، وأن أستجيب في الحال لمطلبك ، لأن سؤال المحب أمر مطاع لا مجال معه لتردد ، وإشارة العالم العامل واجبة الاتباع لا سبيل فيها لأناة أو حيلة ، ولكن صرفتنى في تلك الأيام صوارف جعلت العقل مشغولا ، وتركت البال مدخولا ، إذ كانت أشبه بالعواصف ، أو هى - في الحق - أقرب إلى القواصف ، إلى أن شاء الله جلّت قدرته وتعالت حكمته الخلاص منها ، وأذن بفضل كرمه بالبعد عنها ، فوجبت علىّ المبادرة لتلبية أمرك ، والإسراع في تنفيذ مطلبك ، اعترافا بسابغ لطفك ، وتأكيدا لسابق عطفك ، فأقول ، ولله سبحانه الفضل ، ومنه العون ، وبه التيسير ، وعليه التكلان •

* * *

الناس مختلفون في هوى السفر ، متفاوتون في حبهم للترحـــال ، فمنهم من يؤثر البقاء في مسقط رأسه حتى لو ضاق رزقه ، وكان ثمنه ذلُه ، وحطّ عليه فيه جهلُه ، ورأى فيه من الهوان ما يأنف منه الكريم ، ولا يتحمله حتى خسيس أو لئيم ، لأن السفر عند هؤلاء جدّ مخيـــف ، يملأ قلوبهم رعبا ، ويفعم عقولهم كربا ، ولو ألزموا بالسفر لسبب مـــن الأسباب القاهرة لوجدتهم قد تشتتت أفكارهم ، وساءت أحوالهم ، فـترى الواحد منهم مريضا يشكو العلل ، وما في جسمه من خلل ، وإنما هـــي النفس الجزوع ، والقلب الخنوع ، ومن حكمة الشرع الشريف أن يجعل النفي من الأرض لمثل هؤلاء عقابا أشد من ضرب السياط ، وأوجع من السجن في غياهت الظلمات •

وفي الناس فريق آخر ، يشرح الله صدره للسياحة فـــي الأرض ، والضرب في مناكبها ، غرس الله حب السفر في قلوبهم ، وملأ بعشـــق التنقل نفوسهم ، وأفعم بالرغبة في الترحال عقولهم ، يعتقد أن هذا مـــا أراده الله للإنسان منذ بدء الخليقة ، فهو مسافر أبدا ســـفرا لا ينقطـــع ، مسافر في صلب الأب من جيل إلى جيل حتى يجد له موضعا ، ومسافر في رحم الأم من حال إلى حال حتى يلقى موقعا ، فإذا لزم الواحد منـــهم أرضا أحس بالضيق ، وشكا العناء ، ووجد وعثاء الإقامة فـــي نفســـه أشق، ومخاطرها في قلبه أشد ، ومفاسدهـــا في عقله أوضح ، وهـــؤلاء يجدون في الإقامة عذابا دونه كل عذاب ، وفي الاستقرار فـــي مكـــان واحد آلاما تتضاعف وتتراكم ، ومفاسد تتوالى وتتداخل وتتعاظم •

ومن عجيب هذا الشأن أن بعض الناس قد يُظهرون خـــلاف مـــا يبطنون ، ويُبدون من ظاهر أمورهم خلاف ما انعقدت عليه نفوســـهم ، ومن ذلك ما يشيعه البعض من أن البداة عاشقون للسفر، ميالون للتنقل ، لا تطيب لهم الحياة إلا بالارتحال ، ولا يطمئن بهم العيش إلا بالانتقال ،

وهذا ضرب من التبسيط النظرى ، ونمط من التسرع الفكرى ، أخـــذا بظاهر دون تأمل وتدبر ، فالبداوة في جوهرها إنما تمضى في خطوات مرسومة ، بين مواقع معلومة ، لا ترتحل منها إلا إليها ، فـــهى فيـــها دائرة ، وفي إطارها المحدود ثابتة مستقرة ، ويقطع هذا بـــأن البـــداوة تألف التقليد ، وتنفر من الجديد ، تصدف عنه ، ولا تقترب منه ، بـــل تحاربه بجمع نفوسها ، وتناهضه بمجامع مقدرتها ، فإذا اضطرت إلـــى التعامل معه صدت في أعماقها عنه ، وصدفت عقولها عـــن الاقـــتراب منه ، لا تمنحه إلا ودّ المنافق المضطر ، وصدق الخئـــون المرتـــاع ، يؤيد هذا قوله جل شأنه : "الأعراب أشد كفرا ونفاقا "وفي الآية الكريمـــة إشارة لطيفة إلى المرحلتين ، وبيان مجمل بالحالتين ، وبشارة بالنصر ، وتوضيح للعاقبة ٠ وقد أعود إلى بسط ما أجملناه في مسألة البـــداوة إن شاء الله ٠

* *

وقد شاءت إرادة البارى سبحانه أن أكون واحدا ممن غرس هوى السفر في قلوبهم ، وعشق التنقل في نفوسهم وعقولـــهم ، وكـــان ممـــا اعتدته في شبابى الباكر السياحة في الأرض ، والتعرف إلى الخلـــق ، ومعرفة الوقائع ، والتبصر في الأحوال ، وقد ساعدنى على ذلك أبـــى رحمه الله وغفر له ، وأفسح له في جناته ، إذ كان يرى في السفر فوائد عدة ، لا تقف عند حدود السبع التى ذكرها شيخنا ومولانا محمـــد بـــن إدريس ﷺ ، بل تتجاوزها ، وسأذكر لك بعد حين طرفا منها ، فـــإن شئت اعتددت بها عللا سببية ، وإن أردت جعلتها عللا غائيـــة ، فـــهى للأمرين بحمد الله صالحة ٠

وكان مما تعودته في تلك المرحلة أن أجالس أبى عقب كل رحلة، فنتناقش فيما استفدته منها من دروس وعظات ، وكثيرا ماكنا نختلف في توجيه الأحداث والواقعات ، وكان يشجعنى على ذلك كثيرا ، ويدعونى دائما إلى التفكير في الاحتمالات ، واستبطان المعضلات ، والتأمل المتأنى في الحالات ، وعدم التسرع بالحكم على الظاهرات ، حتى أقف بدقة على حقيقة أمرها ، وأستوعب ما يحيط بظروفها ، وأستوثق من جميع أحوالها ، وأتيقن من عاداتها وأساليبها ، لأن في ذلك كله ما يفسر غامضها ، ويوضح مبهمها ، ويفصّل مجملها ، وبذلك تكون نظرتى إلى الحق أقرب ، ومن الصواب أدنى ، وبه ألصق .

وكان مما لفتنى إليه ، وحببنى فيه ، نمط من السياحة غريب ، وذلك ما كان يسميه رحمه الله سياحة الفكر ، وتنقل العقل ، ورياضة الروح ، ونور الوجدان ، وصقل البصيرة ، فكان يحثنى على أن أقرأ ما فيه الناس يترددون ، وما في شأنه العلماء يختلفون ، ويعلمنى كيف أرى المواقف على اختلافها ، وأتأمل زواياها وجنباتها ، لا يقف في هذا الشأن عند قضايا العلم وحدها ، ولا يقتصر على حدود الأحكام في ذاتها، بل يمضى بى إلى الدنيا الواسعة التى خلقها الله ، بما فيها من عادات تختلف ، وتقاليد تتفاوت ، وقيم تتعدد ، وشخصيات تتضارب ، فمن ابن خلدون إلى توينبى ، ومن الجاحظ إلى ول ديورانت ، ومن المتنبى وأبى العلاء إلى نيتشه وشوبنهور ، ومن ابن رشد إلى كانت وديكارت ، ومن إخوان الصفاء إلى برجسون ، ومن أفلاطون وأفلوطين إلى ابن سينا ومسكويه ، ومن التسترى والتوحيدى إلى كير كجارد وهيدجر ، ومن واصل والعلاف إلى ماركس ولينين ، ومن أبى تمام إلى برنارد شو ، ومن هومير وراسين إلى تولستوى وديستويفسكى ، ومن إميل زولا وفولتير إلى شكسبير ومارك توين ولويزا الكوت ،

ومن عيون على بن الجهم إلى عيون أراجون ، ومازلت أذكره رحمه اله وهو يضحك حين أقول له : أنا مع عيون ابن الجهم • فيقول : وأنا مع عيون أراجون ، وحين أبدى استغرابى يوضح قائلا : إن عيون إلزاهى عيون بهية ، لكن حبيبتنا الغالية لم تجد بعد أراجون ليغنى لها •

وقد جعلتنى هذه السياحات الفكرية أعلم منذ تلك المرحلة من الشباب أن الناس يختلفون لكنهم مع اختلافهم يتشابهون ، تراهم يتفاوتون طولا وعرضا وعمقا ، وعقلا وسلوكا وفكرا ، ونبلا وفحشا، وسموا وخسة ، ورفعة وضعة ، لكن وراء هذا الاختلاف ما لا تراه العين من مشابه ، والحكيم حقا هو الذى يكتشف ما لا يراه الآخرون ، ويدرك ما فيه يقصرون ، وإن شئت أن تعرف فجرّب ، فسترى أن بين التقىّ والفاجر نسبا ، وتوقن بأن بين الشريف واللص سببا ، وتعلم أن في البغىّ ما يمكن أن يكون مدعاة احترام ، وأن من المحصنات من كان الفجور يعربد برأسها ولا ينام •

* * *

حوافز السفر

من حوافز السفر الرغبة في طلب العلم . وطالب العلم حق طلبه يرتحل إليه حيث وجد ، ويسعى إليه أنّى كان ، لا يقف دونه عائق من مال ، ولا يمنعه حاجز من زمان ، ولا يقصّر به فاصل من مكان ؛ وقد كان الناس قديما يضربون إلى العلم أكباد الإبل ، أو يسعون إليه على الأقدام سائرين ، مع بعد الشقة ، وتكلّف المشقة ، يطلبون العلماء الذين منهم يتعلمون ، يتزودون منهم ، ويتلقون عنهم ، وينفقون في ذلك سنوات أعمارهم لا يترددون ، ويضحون من أجله بمباهج الدنيا، وبمتاعها ومتعها يستهينون ، وقد شاء المولى جلت حكمته أن نشهد عصرا لا يتحرك فيه تلميذ لطلب ، فإذا أرسل في بعثة ليتعلم عاد كثير منهم - في الأعم الأغلب - أصمّ أعمى أبكم ، لم يتعلم ، ولم يتكلم ، ولم يغايش الناس ، ولم يقف منهم على فائدة ، ولم يطلع عندهم على جديد ، ولم يشارك أحدهم في موقف ، ولم يشهد لهم واقعة ، وكان كما يقول المثل ، كالعجل في بطن أمه ، لم يتنسم للغربة هواء ، ولم يشرب منها ماء ، ولم يعرف لها طعما ، وما زاد غير ما نقص من عمره ، ومن شأن هؤلاء الجهلة الأنطاع أنهم يكثرون الحديث عن تلك البلاد ، ويتفاخرون بما كان لهم فيها من مواقف لم يقفوها إلا في مخيلتهم ، ولم يروا شيئا منها إلا في أوهامهم ، وأعرف من هؤلاء عددا أحدثك بإيجاز عن بعضهم ، في بعض أمورهم ، لأن استيفاء الحديث عنهم يحتاج إلى مصنفات طوال ، نسأل الله سبحانه أن يأذن بكتابتها في وقت قريب .

* * *

دجاجات كليب

وصل أحدهم للتعليم في بلاد الضباب قبل الحرب العالمية الثانية بفترة قصيرة ، فلما قامت الحرب عاش الناس في تلك البلاد حياة كئيبة ، عانوا فيها من شظف العين وقلة الطعام وقسوة الظروف ، فهداه الله إلى فكرة بدت له وجيهة ، وذلك أن يربى في مطبخ بيته بضع دجاجات يأخذ منها البيض ، وكان يطعمها بنفسه ، ويسقيها بنفسه ، ويرعى شئونها في اليوم مرات ، يهتم بها أكثر من اهتمامه بما بعث من أجله ، ولم يكن لها أصوات تسمع ، وظل الحال كذلك شهورا وهى لا تبيض ، إلى أن حثّه بعض زملائه على أن يشترى لها ديكا ، فلما جاء الديك ليقوم بالمهمة المرجوة كان من عادة اللعين أن يصيح صياحا منكرا شديدا يقلق الجيران ، وقد يحسبونه مقدمة غارة جوية أو صاروخية ، فشكاه الجيران إلى الشرطة ، التى زاعت ظروفه فاكتفت بتخييره بين أن يذبح ديكه ودجاجاته أو تتعقد الأمور ، وفي القضايا يدور . قال رحمه الله : فو الله لقد كان أسوأ يوم في حياتى يوم ذبحتها . قلت له : يامولانا وماذا فعلت بها ؟ ظننت أنه أهدى شيئا منها إلى زملائه ، قال : أكلتها : سألته : كلّها ؟ أجاب رحمه الله : بقينا أسبوعين تطعم منها في اليوم مرتين أنا والزوجة والأطفال . عقبت مخففا : حسبك أنك أكلت لحما شهيا في وقت عز فيه اللحم . وما أظن أنك ذقت لحما في حلاوته وأنت الذى ربيتها على عينك ، قال : والله الذى لا إله إلا هو ما أحسست له بطعم ، وما زلت كلما تذكرتها شعرت بغصة في حلقى لا أظنها تفارقنى إلى يوم الدين ، رحمه الله .

وحين عاد شيخنا هـذا إلى موطنه لم يكن قد اختلف كثيرا عنه حين ذهب ، وكان الخبثاء من تلاميذه يطلقون عليه الجـاهلى ، ومـا صادف لقب صاحبه فتطابقا كمثل لقب شيخنا الجاهلى غفـر الله لـه ، الذى كان لا يصطفى من تلاميذه إلا أكثرهم غباء ، وأشـدهم نفاقـا ، وأفحشهم قولا ، وأمعنهـم حماقة ، وأبردهم صفاقة ، وأضلـهم عـن الحـق ، وأحرصهم على الباطل ، وأسوأهم في الكيد ، وأظلمهم فـي العقل ، وأبشعهم في الجهل ، ولو أنك رأيتهم يتحلقون من حوله لقلـت صادقا : بُعث والله كليب .

ومن تلاميـذ شيخنا الجاهلى ثلاثة نفر معروفون بالأحامقة أمراء الانتقام ، وهو لقب منحه لهم الساخر الهمام ، الحازم المقـدام ، لأنـهم جمعوا إلى تلك الخصال جبنا في النزال ، ووجـلا فـي الطعـان ، وضراوة على الضعفاء ، واستئسادا على المساكين ، فو الله إن الواحـد منهم ليرفع صوته مهددا بالويل والثبور وعظائم الأمـور ، يوشـك أن يُسمع الأرض كلها من أقصاها إلى أقصاها وهو يأمر عاملا صغـيرا ، وربما بادر إلى ضربه بالأيدى والأقدام دون ذنب منـه أو جريـرة ، ويصيح فيه هائجا مائجا : سأربيك يا ابن اللئام ، فإذا جدَّ الجدُّ تقـاعس وانكمـش ، وتلجلج وتعثر ، وتشفع وتزلزل وتبعـثر ، وأخـذ يسـجد ويركع ، ويتضرع ويضرع ، وراح يقبل الأيدى والـرءوس ، ويعلـن التوبة ، ويسأل المغفـرة ، فلا يزيد بما يفعـل عن كونه واحـدا مـن حثالة الجاهلية الأولى ، الذين يبتدرون الضعفـاء إثباتـا للشـجاعة ، ويتعمدون المساكين حرصا على السمعة ، وعندى من نـوادر هـؤلاء الأحامقة ما لو ذكرت بعضه لرأيت عجبا - وإنى لذاكر بعضـها فـي مروياتى القادمة إن شاء الله .

* * *

صندوق البرغوتي

ـــــــــــ

ومن زملاء شيخنا الجاهلي واحد أرسل في بعثة إلى بلاد الضباب أيضا بعد الحرب العالمية الثانية ، وقد حرصت أمه على أن تجنبه الحاجة في الرحلة الطويلة التي تستغرق أسابيع على السفينة ، وأن تكفيه مئونتها ، فوضعت له الزاد في قفة كبيرة ينوء بحملها رجلان شديدان ، فكيف يحملها هذا المريض النحيف الضعيف القمئ ، الذى يتناهى به القصر والرهق ، ويستبد به السغب والوهق ، ويمتد فيه ضعف السمع وقصر النظر ، وضياع الشم وفساد اللسان ، يضع على وجهه نظارة سميكة صفيقة ينوء بها أنفه ، وتئن من حملها أذناه ، ولم تكتف أمه بالقفة بل وضعت له الإدام في خرج ضخم ، حتى يسهل عليه أن يمد إليه يده عند الحاجة ، وما كان ذلك الإدام إلا الجبن والمش والبصل ، وعلبة صدئة فيها شيئ من الفسيخ الذى تنتشر صناعته في منازل تلك البقعة من شمال الدلتا ، وبقايا بطة عجوز انقطع بيضها فآثرت أمه أن تذبحها قبل سفره ليأكل مع إخوته منها على غير عادتهم في انتظار الموسم ، ثم آثروه بعد أن نالوا منها ببقاياها لعلها تعينه في الرحلة ، وكان صاحبنا أحرص ما يكون على هذه البقية ، إذ هى أثمن ما في متاعه ، فجعلها في أسفل الخرج حتى لا تطمع فيها عينه فتمتد إليها يده • وكان يرى الناس يذهبون إلى مطعم السفينة يأكلون فيتوجه إلى خرجه والقفة ، يتبلغ بقطعة خبز من هنا يدهنها ببعض المش من هناك ، وظل على هذه الحال أياما طوالا ، وما كان أسعده وهو يرى أن الزاد على هذا النحو سيكفيه ، ثم عن له أن يوفر وجبة ، وما أيسر ما فعل ، فقد كان يتأخر في النوم قليلا ، ثم يؤخر

طعامه ما أمكن ، وحين نجح في ذلك قرر أن يوفّر وجبة أخـــرى وأن يقتصر في الطعام على واحدة ، وكان يردد ليشحذ عزيمته : صومـــوا تصحوا ، وقد اضطره هذا إلى أن يغير من مواعيد نومه ويقظته ، فلـم يكن يستيقظ إلا بعد أن تتعامد الشمس على سطح السفينة ، ولا يتنـاول طعامه إلا بعد مغيب الشمس • وهكذا اســتطاع أن يوفــر وجبتـى الإفطار والعشاء ، واستبدت به في تلك الفترة فكرة أن يبحث عن فكـوة تلهيه عن الطعام ، وما لبث أن توصل إليها ، فقد ظل كلما جاع يفكــر في فكـرة واحدة : كيف تتمكن أمه من أن ترسل له كـل حيـن قفـة وخرجا ، إذن لما احتاج في بلاد الضباب إلى إنفاق شـيئ مـن أجـل الطعام ، ولوفّر كل ما يحصل عليه ليشترى به طينا عند ما يعود •

لكن بحارة السفينة ما لبثوا أن أخذوا يؤذونه بكلمات لايفهمـــها ، وإشارات كان يتجاهلها ، إذ يشيرون إلى زاده وهم يضعون أيديهم على أنوفهم ، وحاول أحدهم مرة أن ينزع الخرج من مكانه قاصدا أن يلقيـه في البحر ، لكن صاحبنا تشبث به وحال بينه وبينه ، فيأمره البحـار أن يخرج ما في الخرج فيضطر إلى أن يستجيب ، ويظل يخرج مـا فيـه حتى يصل إلى البقية الثمينة في أعماقه ، فيهجم البحار محاولا انتزاعها لولا أنه استمهله باشارته حتى يأكلها • قلت له وهو يـروى القصـة : وأكلتها ؟ قال : ما كان ألذها وأطيبها لولا أننى بقيت بعدها يومين أشكو من بطنى ، ولا أحد من البحارة أولاد الكلب يقترب منى ، ولعلهم ظنوا أننى سأموت •

وسارت الأمور بعد ذلك على نحو ما يحب ، والســعادة تغمـره لخططه الموفقة ، لكن القدر الخئون يأبى عليه أنه يستمر سعيدا ، فتقف السفينة لتتزود بمئونتها في جبل طارق ، ويفكر صاحبنا في أن ينظــر مع الناظرين إلى الميناء ، وفي ذهنه أن هذا يشغله عن الطعام مـــدة ،

ولعله به يواصل ، فيتسلل بعض البحارة إلى القفة والخرج وإذابهما أمام عينيه في الماء • قلت له : وماذا فعلت ؟ قال : بقيت مـدة أستعطف البحارة بإشارات إلى فمي وبطني ، وهم يمنـون علـى بين الحين والجين ببعض ما يتبقى من طعامهم ، فلما امتنعوا بعد ذلك عن مـدى بطعامهم اضطررت إلى شراء وجبة واحدة قسمتها على ثلاثة أيام ، كنا بعدها قد وصلنا إلى مقصدنا •

وكما ذهـب صاحبنا إلى بلاد الضباب بالخرج والقفة عاد منـها بالصندوق ، وحكايته من العجائب ، وقد نقلتها عن بعض من صاحبـه فيها وعرفه بها ، وقد أكد لى أنه نمط من البشـر فريـد ، لا تنقضـى غرائبه ، ولا تنتهى عجائبه ، فقد عاش هناك ما شاء الله له أن يعيش لا يشغله من أمر الحياة والناس والعلم شيئ ، بله الثقافة والفن والسياسـة والدين • قضى سنوات إقامته هناك فما ذهب مرة واحدة إلى المتحـف البريطانى ، وإليه يسعى الناس من أصقاع الأرض ، ولا شهد حفل باليه ويأتى إليه المشاهدون من أرجاء القارة ، ولا حضر حفلا موسـيقيا ولا عملا مسرحيا ولا فيلما سينمائيا ولا معرضا فنيـا ، ولا اسـتمع إلـى محاضرة ثقافية ، ولا تابع مناقشة سياسية ، ولا قرأ صحيفة أو مجلة • قال له أحد زملائه مرة بعد أن شاهد (بحيرة البجع) ، تعرضها فرقـة البولشوى وهى أعظم فرق الباليه في تلك الحقبة ويؤدى دور البطولـة فيه أعظم راقصى وراقصات القرن : يجب أن ترى (سوان ليك) إنـها شيئ رائع لا أستطيـع وصفه ، فما كان منه إلا أن قال لـه بدهشـة : خلاص بقيت خواجة !! ، لما نرجع تعال عندنا وأنا أوريك بدل البحيرة ثلاثة في العزبة الشرقية ، وكلها مليانة قرف ، فلما رأى دهشـته قـال ساخرا : هو يعنى لازم تحكمنا عقدة الخواجة •

أبديت دهشتي لمحدثي وسألته : فماذا كان يشغله في تلك البلاد ، قال ; كان جهده كله منصبا على البحث عن زملائه الذين أنهوا بحوثهم ودراساتهم ويستعدون للعودة إلى بلادهم ن فيعمل على توثيق صلته بهم ، وتقديم خدماته إليهم ، وعينه على ما في بيوتهم من متاع ، وهو بحكم العادة قليل ، فيستهديهم بعضه ، وإذا كانوا يفكرون في بيع جانب منه أبدى تخوفه من أن تدفعهم العجلة إلى قبول ثمن بخس فيه ، وعرض عليهم أن يودعوه عنده حتى يجد له مشتريا يقدم فيه سعرا مناسبا • قلت : وبالطبع فإن هذا المشترى قد لا يأتى ؟ قال : كثيرا ما كان لا يأتى ، وفي أحيان قليلة يأتى من الزملاء الجدد الذين يعرف حاجتهم إلى الاستقرار العاجل ، فيبادر بعرض ما عنده عليهم وبيعه لهم ، ولم يكن ينسى أن يخصم لنفسه مبلغا لا يقل عن خمسين في المائة نظير جهده في النقل والتشوين والدعاية والتسويق • ولعل هذا هو الشيئ الوحيد الذى تعلمه في بلاد الفرنجة ، وكان يعتز به ويفاخر • قلت له : هذا ياسيدى شأن البرغوث طفيلى نطاط يكمن حتى يمتص دماء الضعاف ، قال ببهجة : أى والله صدقت ، لقد أنقذتنى من حيرة استمرت زمنا طويلا ، فقد بقينا مدة متحيرين في وصف هذا الكائن ، وكلما لمحنا فيه صفة فاجأنا بصفة أخرى تحملنا على أن نعدل عن الأولى ، فقد أسميناه أول الأمر الصرصار ، لما بينهما من شبه في القذارة والهوان ، وما يثيره مشهدهما من تقزز وقرف ، ثم لم يسلم لنا هذا ، فقد لاحظنا أنه في بعض الأحوال داهية صبور هادئ ، ينتظر طويلا حتى تتحقق الفائدة التى يرجوها ، وهو في أحوال أخريات شرس إذا طالبه أحد بحق له ، فأطلقنا عليه الضبع لما فيهما من لؤم في النفس وخسة في الطبع ودناءة في المسلك وحطة في العادات ، ولكنا اضطررنا إلى العدول عن ذلك بعدما لاحظنا أنه يتلون ، وأنه

بتلونه قادر على أن يخدع بعض الناس ، بل كثيرا من الناس ، فهو يبدو أمام من بيده الأمر ضعيفا مسكينا ، متخاذلا ، لا حول له ولا قوة فيه ، يستحق الشفقة ويدعو إلى العطف ، يظل يشكو للمسئول حتى يرق لحاله ، ويحمله بأنينه وتوجعه على أن يتلطف به حتى يمنحه ما يريد منه ، وحينا آخر يظهر - وبخاصة بين الصغار والضعفاء - معجبا بنفسه ، يختال عجباوتيها ، ويوحى إليهم بأن لديه من القدرات ما ينقل الجبال ويغير الأحوال ، ومن أجل ذلك اختلفنا في وصفه ، فذهب بعضنا إلى تسميته بالحرباء ، ورأى آخرون أنه إلى القنفذ أقرب ، حتى شاء الله بعد هذا العمر ان تلمح فيه هذا الشبه ، قلت : فليكن إذن البرغوتى ، قال وهو يضحك ملء شدقيه : لك هذا ، سيكون اسمه عندنا منذ اللحظة البرغوتى ٠

قلت : وما حكاية الصندوق ؟ قال : هى عجيبة من عجائب هذا الكائن لا تصدق ، ولولا أنى وقفت عليها من ألصق الناس به وأعلمهم بشأنه ما صدقتها ، قلت فحدثنى بها ٠ قال : ظل هذا ، فبادرته : البرغوتى كما اتفقنا ، قال مقهقها : ظل البرغوتى كعادته يتتبع أحوال زملائه ويتعقب المسافرين منهم إلى بلادهم ليأخذ ما يستطيع أخذه من متاعهم ، وفي العام الأخير لبعثته ظننا أنه سيكف لأنه لا وقت عنده لبيع وشراء ، لكن إغراء الكسب كان لديه أقوى من ظننا فلم يتوقف عنه بل زاد عتوا وغلوا ومبالغة ، فأيقنا أنه يحصل على متاع المسافرين ليبيعه ليدعى بعد ذلك لأصحابه أنه تخلص منه عندما حل موعد سفره ويأكل مستحقاتهم ، وفي الأثر : يعامل اللئيم بضد قصده ، فاتفق الخبثاء على أن يغروه بشراء المزيد ، وكان شرطهم الوحيد الحصول على ثمن متاعهم نقدا لشدة حاجتهم إليه في الاستعداد للسفر ، وفي البداية تردد ، لكن مع ما كان يرى من إغراءات استمر يشترى

ويدفع الثمن نقدا بعد مساومات كبيرة للدفع النقدى ، وهكذا بدلا من أن يشهد عامه الأخير تصفية أعماله شهد بدلا من ذلك إمعانا فيها ، وكان هنا العام موعد عودة عدد كبير من المبعوثين القدامى ، ولم يصل فيه عدد يذكر من المبعوثين الجدد نتيجة للتغيرات السياسية التى شهدها الوطن ، واقتضت إعادة تخطيط سياسة البعثات الخارجية ، وكان الخبثاء منا يحذرون هؤلاء الجدد من أن يتعاملوا معه ، ويدلونهم على أماكن نظيفة ومريحة ورخيصة تتعامل في قديم الأثاث ، وهكذا كلما اقترب موعد سفر البرغوتى وبدأ القلق يحل به أغراه الخبثاء بمزيد من الصفقات بأسعار لا يستطيع رفضها ، وكان يحرص وهو يشترى دائما على أن يأخذ فوق البيعة الملابس القديمة والأحذية والنعال وأدوات المطبخ المستهلكة ونحوها مما يتخلص منه المسافر بإلقائه في صناديق القمامة . وكنا تعجب لما يفعل ، وتجمع له من هذا كله قدر ضخم ، حتى أذن موعد الخطر الذى وضعه لنفسه ، وكان قبل سفره بنحو شهرين ، قلت له : وأين يا سيدنا الصندوق ؟ قال : ها نحن أولاء قد وصلنا إليه فلا تتعجل . حين أيقن صاحبنا أن الخطر يقترب لم يكن أمامه سوى احتمالات ثلاثة ، الأول أن يترك ما لديه وديعة عند بعض زملائه ، ولم يكن هذا عنده مقبولا ، فقد ظن أنه سيعامل بالطريقة التى عامل بها غيره ، والثانى أن يتخلص منه بأى ثمن ، وكان هذا لديه مستحيلا لأنه يعنى الخسارة المؤكدة ، ثم إن كثيرا جدا مما لديه لم يكن مما يمكن بيعه ، وكان عليه أن يؤجر سيارة نقل تحمله إلى مركز تجميع القمامة الرئيسى في المدينة ، لأن الصناديق المنتشرة في أرجائها لم تعدّ لتلقى هذه الكميات الضخمة ، وهكذا لم يكن بد من الأخذ بالاحتمال الثالث . قلت : وما هو ؟ . قال : أن يصحب ما عنده معه إلى مصر في صندوق ، قلت : وهل يوجد صندوق يحمل هذه الأشياء

كلها ؟ قال : ساعدناه في البحث إلى أن وجدنا في مخزن للجيش قريب كان قد أخلاه بعد انتهاء الحرب حاوية كبيرة تسع عدة أطنان ، وقد أغريناه بشرائها ، فباعها له الجيش ببضعة شلنات ، ثمنا رمزيا لا أكثر ، بعد أن أقنعهم بأن المصريين سيعدون ذلك تقديرا لمساعدات مصر في الحرب لقوات الحلفاء • ولم يكن ممكنا نقل الصندوق إلى المنزل بعد أن رفضت صاحبته أن يوضع أمام دارها ، مدعية أنها لو سمحت بذلك فإن الشرطة لن تسمح بنقله إلى المكان حتى لا يعوق حركة المرور • قلت : فكيف نقل البرغوتى بضاعته إليه ؟ قال ضاحكا : ذكرتنى بأكثر ما كان يبهجنا في تلك الأيام من أخبار ، لقد ظل نحو أربعة أسابيع يعمل منذ ساعات الصباح الأولى حتى منتصف الليل في نقل ما عنده إلى الصندوق ، آه لو رأيت تلك الأيام ، هذا القمئ المتهالك يحمل على ظهره لاهثا متقطع الأنفاس جهاز طبخ قديم ينوء بحمله رجل قوى أو وهو غارق تحت طن من الملابس المستعملة وقد تدلت أطرافها على عينيه ومن خلفه ، والناس ينظرون إليه ويبتسمون ، قلت : ربما لو كنت رأيته في تلك الحال لكنت أشفقت عليه ومددت له يد المساعدة ، قال : وقد حدث شيئ من ذلك في نهاية الأمر ، وحاولنا مساعدته بعد أن أشفقنا عليه وقلنا إنه تلقى درسا كافيا ، ثم صحبناه قبيل سفره حتى ميناء بورتسموث في الجنوب ليبدأ رحلة العودة • قلت : أظن أن هذا هو آخر عهدك بالصندوق ، قال : كلا ، كان آخر عهدى بأخباره بعد عودتى إلى مصر بعد نحو عامين من عودة البرغوتى ، ذهبت لزيارته في كليته في المبتديان لأ تتبع أخبار الصندوق كما وعدت من بقى من خبثاء لندن ، فلم أجده ، وقالوا لى إنه لا يحضر إلى الكلية إلا يومين فقط في الأسبوع ، وفي طريق عودتى إلى منزلى ذهبت لصلاة الظهر في مسجد السيدة زينب ، ، وبعد أن انتهت الصلاة رحت

أتجول في المنطقة ، فأنا لها ولمثيلاتها عاشق ، وقد كتبت فيها شعرا ، وفي شارع السد رأيت عربة كارو تحمل متاعا قديما ، والحمّار ينادى على البضاعة ما بين حلل وطاسات وكراسى مكسورة ونعال مستهلكة وغيرها ، قائلا موقعا كلماته : بص شوف ، عمك جايب إيه ، ثم يسكت لحظة ليضيف منغما : المستورد أهه أهه ، والناس يتجمعون يتفرجون ، وإذا رغب أحد في شراء شيئ قال له الحمّار : الحساب مع المعلّم ، ويلتفت إلى المعلم قائلا : حاسب الزبون يا عمى ، والتفت بدورى إلى المعلم ، كان رجلا قصيرا قميئا قد لف رأسه ببشكير كبير قذر انسدل جزء منه على وجهه ، فدققت فيه فإذا به صاحبنا البرغوتى ، وجمت وأصابتنى الدهشة ، ولكننى فوجئت به بعد قليل ينادينى وقد ظننى من جملة الزبائن ليقول لى : اختر ما تحب ، سأعطيك خصما خاصا ٠ ضحكت وسلمت عليه وأنا أسأله : ما هذه الكراسى أظن أنه لم يكن معك منها شيئ ؟ قال مشيرا بيده إلى الزبائن : الرزق يحب الخفيّة ٠ وأحسب أن هذه الخفية هى التى أثمرت ما وصل إليه من مواقع شغلها ، كما أثمرت أيضا ما يسميه بالفيلا في المهندسين ٠ قلت ضاحكا : أما المواقع فنعم ، وأما الفيلا فلها قصة أخرى ، قال مؤكدا : إلى بها ، فأنا واثق من أن طريقه إليها هو نفس الطريق ٠ قلت : في لقاء آخر إن شاء الله ، فقد أخذ هذا الكائن من وقتنا ما لا يستحق ٠

* * *

ومن حوافز السفر السعى في طلب الرزق ٠ وليس ذلك منكرا ، بل هو مأمور به ، مدعو إليه ، محبب فيه ، وحسبك الآية الكريمة : (فاسعوا في مناكبها وكلوا من رزقه) ، والسعى في مناكب الأرض طلبا للرزق هو أصل التجارة ، ومما جاء في الأثر : "تسعة أعشار الرزق في التجارة" ، ومن المعلوم أنه ليس القصد بالتجارة

المتاجرة التي وسعت في عصرنا عند كثير من الناس كل شيئ : من الأمم والذمم والجاه والسلطان والأخلاق والأعراض والكرامات والمواقع ، وامتدت إلى كل شئ : في الأموال والمتاع والعلم والهمم والسياسات والمبادئ ، وصولا إلى أجساد البشر أحياء وأمواتا • وتلك أنواع من المتاجرة لم يكن لها كبير شأن في الزمن القديم ، وإن كانت فيه فعلى استحياء ، أما في زماننا فقد ازدادت وتوسعت وانتشرت وتوغلت وانطلقت حتى بلغت أقصى منتهى ، وصاحبها في الوقت نفسه فجور الإعلان عنها ودناءة تسويغها وحطة التشدق بثمارها • ولا ألوم في هذا الضعفاء والمساكين الذين تسوقهم الحاجة ، ويدفعهم العوز ، وتملى عليهم الفاقة ، وإنما اللوم كله على أولئك الذين تعرفهم ويعرفهم الناس ، الذين لا تحصى أموالهم ، ولا تستقصى ممتلكاتهم ، ولا يحد سلطانهم ، وتبلغ بهم القحة أن يعترفوا وأن يسوغوا السقوط بأنه أمر طبعى مألوف ، لم يخل منه عصر ولم تبرأ منه ساحة ، وكأنهم يقررون أن نهب أموال الدولة والناس وصبها في البنوك الكبرى في الخارج هو التطور الطبعى لقوافل التجارة ، وأن شبكات الدعارة الموجهة هى الوجه المعاصر لتجارة الرقيق ، وأن خيانات الشعوب والأمم هى الامتداد المنطقى للمعاهدات • وإنى لعلى يقين من أن هذا كله سيزول ، أثق في ذلك ثقتى بخالق السموات والأرض ، ففى النهاية لن يصح إلا الصحيح ، مهما بلغ من عتو هذا الفساد وتمكن هذا الجور وامتداد هذا السلطان ، سنة الله في خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا • فوحوش الغابة المفزعة لا تعيش أبدا ، إذ يقيض الله لها من يقدر عليها ، وقد لا يكون أكثر من نملة لا تكاد ترى ، أو ذبابة لفرط حقارتها مستنكرة ، وليس البشر عافاك الله نملا ولا ذبابا ، بل هم بالعقل مخلوقون ، وبقوته بإذن الله يعملون ، وبإرادته بعونه يصلون إلى ما يبتغون ، مهما كانت

العوائق والصعاب ، وبلغت المشاق قمة العذاب ، فلا يستهينن أحد بجهد يبذله في مقاومة الفساد وإن كان ضئيلا ، فالقليل إلى القليل كثير ، وطاقة الفرد مع الفرد قوة تشق الأنهار ، وتحول الجبال ، وتزيل أعتى الأنظمة .

حاشاك - أكرمك الله - أن ترى أن التجارة والمتاجرة من باب واحد ، اعتمادا على ما يقوله سادتنا اللغويون من اتفاقهما في الجذر اللغوى ، أو أن المتاجرة نوع منها ونمط من أنماطها ، فبينهما فروق كثر ، في الأصل ، وفي الفرع ، وفي الخصائص والصفات ، فالتاجر في الأصل يسعى إلى خير نفسه وخير الناس ، وهو في الفرع لا يتاجر إلا فيما هو مشروع أقره الدين والخلق الرفيع والقيم الإنسانية والعادات المستحبة ، وهو لذلك يتسم بسمات أشبه بخصائص لازمة ، على رأسها الأمانة والشرف والصدق والنزاهة وحسن الخلق . حفظك الله وأكرمك، وهل في المتاجرة شيئ من هذا كله ؟ ارجع إن شئت إلى الذين يتاجرون في عصرنا بالشعارات والقيم ، أو يشترون الذمم ، أو يسوسون الأمم ، أو يوقعون الشيكات من وإلى الشبكات ، ألا يقطع هذا بأن المتاجرة غير التجارة وإن اشتركا في الأخذ والعطاء ، فلا تظنن حفظك الله أن كل ما يقوله اللغويون والنحاة صحيح ، فبعض فساد الدنيا - إن لم يكن كثير من هذا الفساد - يعود إلى فساد اللغة وفساد النحو .

* * *

وقد جد في عصرنا غير التوسع في المتاجرة التى أشرنا إليها آنفا نمط آخر من التجارة هو بالمتاجرة ألصق ، وإليها أقرب ، وبها أمس ، ومنها أدنى ، وهو ما يطلق عليه أهل الاقتصاد المتاجرة في الخبرات العقلية والقدرات الفكرية ، أو باختصار العبارة : تجارة العقول ، فما أن

يظهر في مثل بلادنا من يبرز تفوقه ، وتتأكد مقدرتـــه ، حتـــى يبـــادر المبادرون إلى تنفيذ خططهم لنقله إلى الخارج ، بادئين بالتضييق عليه ، ومحاربته ، والنيل منه ، والطعن في قدراتـــه ، والحـــط مـــن آرائـــه واتجاهاته ، والاستخفاف بمبتكراته وإضافاته ، حتى يفقد الأمل فـــي أن يكون له دور في بلده يقوم به ، وهنا يظهر السماسرة والعملاء يغرونـــه بالأمل المشرق في بلاد الفرنجة ، ويقدمون له من الوعود ما به يأنس ، وإليه يرتاح ، ومعه يطمئن ، إلى أنه ينتهى به الأمر إلى الاســـتجابة ، وهكذا يتم نزح الخبرات التى عليها المعول في التقدم ، وهجرة العقـــول القادرة على تحقيق النهضة ، ولا يبقى في البلاد من العلماء القـــادرين المتمكنين إلا من استسلم ليأسه ، واستكان لضياع حلمه ، فـــهو مقيـــم غائب ، أو هو غائب مقيم ، ولقد فكرت طويلا في هذه المسألة حتـــى تبين لى بعد أناة وتعمق وتدقيق ، أن أهل السياسة العليا ليســـوا منـــها ببعيدين ، خذلهم الله ، فوق ما هم عليه من خذلان ، وأرجـــو أن يـــأتى أوان تفصيل القول فيه .

ثمة نوع آخر من السفر في طلب الرزق غير المتاجرة والتجارة ، وهو ارتحال العملة الذين يطلق عليهم في دلتا مصر : "الترحيلة" ، وقـــد نشأ هذا النوع من السفر في زمن قريب من عصرنا - بعيد حكم محمـــد على ، وفيه ينتقل العمال الزراعيون من إقليم إلى إقليم داخل الوطـــن ، في رحلات موسمية مرتبطة غالبا بموسم الحصاد . وقد نتج هذا النوع من الرحلة عن ضيق مساحة الأرض المزروعة ، وسوء توزيعها بيـــن المالكين ، بحيث كان أحدهم يملك الآلاف المؤلفة من الأفدنة ، والآلاف المؤلفة من البشر لا يملكون سهما ، واضمحل هذا النوع مـــن الرحلـــة حين أعيد توزيع الأراضى الزراعيـــة ، وأخـــذ جـــانب ممـــا يملكـــه الإقطاعيون لتوزيعه على المعدمين ، ثم عاد من جديد وازدهـــر لمـــا

ساءت الأحوال ، وانتشر الظلم ، وعم الفساد ، وتطلع هؤلاء الفلاحون كارهين إلى الهجرة خارج البلاد ، فذاقوا هناك من العنت والعسف مثل ما ذاقوا في بلادهم أو أشد ، وعانوا من الاستغلال ما عانوا في وطنهم بل أفظع ، ولا يحسبن أحد أن تلك الآلاف المؤلفة من الفدادين التى كانت تحت يد الإقطاعيين كانت أملاكا مشروعة ، ورثها وارثوها عن أصحاب الحقوق فيها ، فحسبك أن تقرأ التاريخ القريب لتعرف أن والى مصر الكبير محمد على قد استولى في بداية عهده على جميع حجج الملكية ووثائقها بدعوى تنظيمها ، ثم أحرقها ، واعتبر نفسه صاحب الحق الأوحد فيها لأنه المهيمن عليها ، فكان يمنح الإقطاعية الكبيرة - ومن بعده خلفاؤه - هبة لخادم ، أو منحة لمحظية ، أو مكافأة لعميل ، ومنحة حفيده توفيق الإقطاعيات الكبار لخونة عرابى مسألة معروفة ، فمن أين لهؤلاء الذين كانوا يضعون أيديهم على آلاف الأفدنة الادعاء بأن أراضيهم المملوكة لهم صودرت ، وحقوقهم انتهكت ، وممتلكاتهم سلبت ، لقد تسبب هذا اللغو في خلق أكاذيب ليس لها حد ، ونتج هذا كله ممن خطأ تقدير ذلك الرجل رحمه الله ، إذ كان على جانب من المهادنة ، عازفا عن صرامة المواجهة ، فلا والله ما نفعه موقفه ، وها هم أولاء يلعنونه صباح مساء ، وحق لهم أن يلعنوه ، فقد أبقى لهم بقية لا يستحقونها ، ودفع إليهم أموال الشعب عوضا عما لا يملكون ، وأهم من هذا وذاك أنه أتاح لهم الفرصة ليملئوا أفواهم وكتاباتهم بادعاءاتهم ، فستر سوءاتهم ، وفك إسارهم من حالك تاريخهم ، وحرم الناس من رؤية حقيقة أمرهم ، وبرطع فيها أحفاد الجوارى والمحظيات والغلمان والخونة . وربما قال قائل : وماذا كان بوسعه أن يفعل ؟ فأقول : كان يملك أن يطلب شيئا واحدا ، وهو أن يقدم من يدعى ملكية الأرض من الوارثين ما يثبت شرعية امتلاك المورث الأصلى لها ، وهذا ما تفعله -

أو بصدد أن تفعله - سويسرا ، أكثر الدول شهرة في الحفاظ على الأموال وسرية بياناتها ، وتودع فيها المليارات فتفيض بها خزائنها ، لا تسأل المودع عن مصدرها ، لكن حين يموت ويأتى الوارث ليتصرف فيما أودع مورثه تحظر عليه أن يستولى على شلن واحد حتى يقدم ما يثبت أن مورثه قد تملك هذه الأموال بطرق مشروعة - ألم نكن نحن بهذا أولى ، أما كان هذا يريحنا إذ يطبق العدل ، ويمنع الظلم ، ويقطع نقيق أحفاد المحظيات والغلمان والخونة.

ولقد أشرت منذ قليل إلى أن هؤلاء المعدمين الساعين في طلب الرزق لم يكونوا يطلبون الكثير ، كان أقصى أمانيهم الستر ، أى مجرد العيش مستورى الحال ، لا يسأل الواحد منهم أحدا ، ولا تضطره حاجة ملحة إلى استدانة ، لا يطمع في أكثر من سقف يظلله ، ولقمة يتبلغ بها من غير إدام ، ولباس يستر عورته وعلى استعداد ألا يجد له بديلا ، وإشباع لحاجة من يعولهم من الخبز اليابس فلا ينامون جوعى تزقزق بطونهم من جوع ، وفسحة من تعليم يقى الأبناء العوز ، ويصون البنات من انحراف أو مذلة ، هل هذا كثير ؟ نعم إنه جد كثير عند الزعماء والقادة ، فمن أين تمتلئ خزائنهم إن لم يكن من استغلال فاقة هؤلاء ، وكيف يحسون بالكبرياء والشموخ إن أبى هؤلاء الهوان ، وأنى لهم الرضا إذا ظل عند هؤلاء بقية من كرامة ، ثم من يستغلون في الانتخابات والاستفتاءات ورفع الشعارات عن العمل الوطنى العظيم ، والرسالة الخالدة ، وهكذا تتوافق الإرادات ربما دون اتفاق ، وتنعقد العزائم ربما دون عقد ، وتلتقى المصالح من غير معاهدة ، وتتوحد السياسات بدون إعلان ، ويستغل هؤلاء المعدمون هنا ليعاد استغلالهم هناك ، يضطر هذا إلى أن يبيع بقرته أو حمارته ، وقد يستدين ليدفع ثمن التأشيرة والتذكرة ، وهناك يدفع دمه وربما عمره في إطار الوهم

الكذوب ، في الساقية يدور ، تمتص صحته وعافيته وشبابه ، وكل أحلامه أنه بعد فترة يستطيع العودة وفي يده بعض قطع القماش وبعض الملابس التايوانية وجهاز راديو ، وإن شطح به الخيال فجهاز تليفزيون ، ومن أجل ذلك يعيش حياة القطيع ، ويتخلق بأخلاق القطيع ، وكلما ازدادت حياته جهامة وقتامة ازداد توحشا • ولقد رأيت من هذا النمط الكثير ، وكلما شاهدت أحوالهم ولمست أحلامهم ووقفت على أحزانهم صرخت فيّ كلمات على كرم الله وجهة •

كيف لا يخرج هذا على الناس شاهرا سيفه •

من هؤلاء من لا أستطيع أن أنساه

* * *

الفرخ

منهم حسين السوهاجى ، ، من الصلعة ، من أعمال سوهاج ، فتى فتىّ لم يتجاوز الخامسة والعشرين ، أسمر تلك السمرة اللطيفة المحببة ، عسلى العينين واسعهما ، على جانب أنفه شامة رقيقة تقابل خالا على خده الأيسر ، ممشوق حتى كأنه عود خيزران ، هادئ الصوت كأنما يهمس ، واثق الخطوة ، رقيق ، حيىّ كأنه عذراء ما قبل التليفزيون ، حلمه الذى كان يحكيه بصوته الخفيض ونظرته الحيية والعينان الساحرتان تترقرق فيهما الدموع أن يعود إلى الصلعة ومعه جلابية قطيفة سوداء لأمه ، وملابس مولود كورية اشتراها قبل أن يشترى شيئا لعروسه التى فارقها عقب الفرح بأيام ، كان حلمه بالعودة هو شاغله الأكبر ، ولكنه لم يعد ، ففى موعد سفره المرجوّ بعد نحو

عامين اختاره أحد الكبار ليكون سائقا عنده مستبقيا إياه عاما آخـــر أو يزيد ، ولقيته بعد فترة من عمله سائقا في تلك المدينة الكبيرة من مـــدن الخليج • إنسانا فظا غليظ النفس سمج الروح ثقيل الظل سيئ العبـارة ، كلامه صراخ وحواره صخب وفكاهته بذاءة ، يضحك كأنما عن أنيابـه يكشر ، يؤثر فاحش اللفظ ، لا يجد حرجا من التصريح بأسماء العورات المنكرة يجد في ذكرها على لسانه لذة ، يستهين بمخدومـــه وأهلــه لا يستثنى منهم أحدا ، فإذا شاكسه أحد بالعبارة المأثورة هنالك : الرجـــل للغلام والمرأة للخادم والبنت للسائق ، سارع معترضا معقبا : أما أنـــا فللجميع بلا فخر ، فإذا قال له بعض إخوانه مستظرفا : أنت إذن الفـروخ المركوب قفزو قال وهو يقسم بأغلظ أيمانه بمقـام سيدى عبد الرحيم : كسر خشمك ، أنا الذى أركب الكل ، وينهض ينحنـــى برأســه قليــلا متحركا بجذعه إلى الأمام والخلف يمثل ما يفعل بسادته وسيداته •

ثم علمت أنه مات فجأة ، وأعقبه زميل له ساءت علاقته به قبـــل أن يموت بأيام ، وحاولت أن أعرف السبب إلى أن أسر به إلى بعضــهم نقلا عن أحد علماء تلك الديار ، قال : وشى به زميله إلى مخدومـــه ، فاستفتى فيه على استحياء بعض المشايخ • فأجازوا قتله حدا لما فعـل ، قلت : والثانى : قال : أجازوا قتله بدوره تعزيرا حتى لا يشيع فـــاحش القول في أهل الصلاح !!! • قلت : وتم قتلهما دون محاكمة ؟ قـــال : ولم المحاكمة ؟! ، حكم الشرع ثابت وواضح وقطعى ، وما علينـــا إلا التنفيذ •

° * * *

أبوخالد

ـــــــ

ومنهم عم يحيى أبو عبد المعطى ، مازلت أذكره كما رأيتـه أول مرة في سوق الرجال قريبا من البطحاء ، كهل ، ربعة ، أميـل إلـى القصر ، شاب شعر رأسه حتى كأنه الثغام المخلس كما يقول الشـاعر القديم ، داكن اللون تفجؤك فيه رأسه الكبيرة وأنفه الضخم وأذن يبـدو واضحا أنها كانت مشقوقة في صغره وترك التئامها فيها خطـا غـائرا أبيض . شهدته أول مرة يجرى وسط الرجال إلى سيارة (ونيت) يركبها مع كثيرين ، فيأتى سائقها يلوح بعصى رفيعة ثـم ينـهال بـها علـى الراكبين الذين تجاوزوا العشرين رجلا صائحا : يا غنم ، ما نبغى غير ثلاثة ، انزلوا . ويصر الرجل الأشيب أن يكون مـن البـاقين فـوق السيارة متحملا ضربات العصى ، ويصر السائق على أن يكـون مـن النازلين ، ويضطر إلى النزول حين تنال العصى من رأسـه وكتفيـه بضربات موجعة حتى توشك عيناه أن تذرف دمعا عزيزا لكنه يتماسك . وهكذا كان شأنه كلما رأيته وعجبت ، وأحببت أن أعرف قصته .

كان أول ما قال ونحـن جلوس بعد أن دعوته إلى كـوب مـن الشاى : هم معذورون ، يريدون من يعمل كالثور وأنا لسـت ثـورا . ويضحك ضحكة أشبه بالبكاء . وتوثقت صلتى به ، وعرفت عنه مـا أرادنى أن أعرفه ، لكنه لم يكن يخفى شيئا إلا شيئا واحدا كان حريصـا على ألا يعلمه أحد ، وهو كيف يعيش مع اثنين وثلاثين رجلا ممن هـم في كفالة صاحب السمو الملكى الأمير في بيـت بلـدى صغـير ، ذى حجرتين شديدتى الضيق ، لاتتجاوز مساحة الواحـدة منـهما مسـاحة زنزانة انفرادية ، يقع البيت على بعد خمسة كيلو مترات مـن وسـط

المدينة يقطعها الرجال سائرين على أقدامهم كل يوم ، وليس في البيت حمام ولا دورة مياه ، ويقضون حاجتهم في الخلاء يستجمرون فإذا أرادوا الوضوء ذهبوا إلى مسجد قريب . وأهم مشكلتهم أن المسجد يغلق بأمر وزارة الأوقاف بين الصلوات كما يغلق عقب صلاة العشاء .

كنت أداعبه أحيانا فأقول له : أنت محظوظ يا عم يحيى ، فأنت في مصر في جوار الباشا وأنت هنا في كفالة الأمير ، من قدك يا عم . وكان يكتفى بابتسامة غامضة وهو يتمتم : الحمد لله ، من جاور السعيد يسعد .

ولد في الجرايدة ليعمل شأنه شأن كثيرين في الدائرة ، وحين حصل على بعض الأرض من الاصلاح الزراعي يزرعها لحسابه استقر وتزوج بنت عمه ، وأنجب ثلاثة أكبرهم خالد . سألته ضاحكا : ما حكاية الأسماء عندكم يا عم يحيى ، أنت يحيى وابنك خالد ؟ قال : ولدتنى أمى بعد ثلاثة إخوة ماتوا جميعا فسمتنى يحيى لأعيش ، وأنا سميت خالدا على اسم الابن الأكبر للرجل الذى أحس بنا وأحسن إلينا . قلت : كان عليك إذن أن تسمى ابنتك هدى ، قال : سميتها كوثر على اسم أمى . وثالث أولاده حامد . أما الأكبر فقد تخرج من كلية الخدمة الاجتماعية في كفر الشيخ ولم يجد عملا ، وأغراه وسيط عضو مجلس الشعب بأن يكتفى بجاموسته ويبيع البقرة ليكون ثمنها جعلا للعضو حتى يلحقه بوظيفة ، ففعل ، وما زال في انتظار الوظيفة المأمولة منذ أكثر من عام، وكوثر طالبة في دبلوم التجارة ، شديدة الحب لأبيها ، وهو شديد الإعزاز لها ، كان يحملها على ظهره في صغرها ليذهب بها إلى المدرسة الابتدائية ، ولما كبرت كان يصحبها خوفا عليها من أن تنزلق قدمها في المصرف الذى يمر طريق المدرسة الإعدادية إلى جواره ، وهى الآن بإسم الله ما شاء الله عروس تذهب إلى مدرسة التجارة مع

صاحباتها دون خوف منها وإن لم ينقطع أبدا خوفه عليها • وأما حامد فقد اختصر الطريق ، والتحق بمدرسة الصنايع على أمل أن يجد فور تخرجه عملا ، وهو ولد مجتهد ، لكنهم ألحقوه بقسم النسيج وليس في المحافظة كلها مصنع نسيج واحد •

كثيرا ما كان ينتابه صمت طويل لا يخرج منه إلا بكلمات قليلة ، مثل : الحمد لله ، أو لله الأمر ، أو له في ذلك حكم • وحين يشتد به الضيق كان يردد خافت الصوت كأنما يحاذر أن يسمعه أحد : ليه ؟ تجاوزت مرة بعد أن تعمقت علاقتى به وقلت : كانت مستورة يا عم يحيى ، فلماذا بعت الجاموسة التى يأكل منها العيال ؟ فرد بدهشة : وأترك أم خالد من غير علاج ، وحكى لى قصتها : أصيبت بالداء الملعون ، وبعد عذاب بين أطباء بلاد بلقاس وكفر الشيخ والمنصورة يذهب إلى المعهد في القاهرة ، فيقررون أن علاجها سيطول ، وأنه يبدأ بالكيماوى ، وينتقل إلى الجراحة ، ويختم بالإشعاع • قال : ونصحنى أولاد الحلال أن أبيع الجاموسة وأقسم ثمنها بين تكاليف سفرها للعلاج ومكتب السفريات ، وقالوا ليقنعونى : ستعوضها في شهرين أو ثلاثة بعد سفرك ، وستجمع مالا كافيا يساعدك في علاجها ، ومن يدرى ربما إذا صبرت قليلا تجمع ما يكفى لستر البنت عندما يأتيها ابن الحلال • قلت : خدعوك يا عم يحيى • قال : أبدا ، الذين خدعونى حقا هم الذين هنا ، منحونى التأشيرة وفيها اننى في كفالة صاحب السمو الملكى الأمير ، لدرجة أن ابنى لما قرأها رقص وقال مبتهجا : أيوه ياعم ، من قدك ، الأمير حتة واحد ة ، ولكن لما حضرنى هنا وذهبنا إلى المكتب قالوا : ليس لدينا عمل لكم ، اشتغلوا في سوق الرجال ، لكن بشرط أن يدفع كل واحد ألف ريال في الشهر نظير التأشيرة وخمسمائة نظير السكن ، وأخذوا جوازاتنا • ولما سألته مندهشا : وتدفع لهم ياعم

يحيى • رد بتلقائية : منين ؟ وحين عقبت محاولا التخفيف : فـــرج الله قريب ، لم يزد على أن قال باستكانة : كله بأمره •

جاء في آخر مرة رأيته فيها فجأة ، وعلى غير موعد ، ونادرا ما كان يفعل ذلك ، ومال على وهمس بالرغم من أنه لم يكن معنا أحـــد ، وقال والابتسامة العريضة التى لم أرها من قبل تغمر وجهـــه : جئـت لأسلم عليك قبل السفر • قلت : ستعود إلى الجرايدة ؟ ، قال : لا ، إلى دولة أخرى في الخليج ، سألته مندهشا : وتركوك تذهب من غـــيره أن تدفع ؟ قال : سأهرب ، قلت : وجواز السفر ؟ قال : يبلـــوه ويشـــربوا ميته • انتفضت وأخذت أشرح له المخاطر ، لكنه كـــان مصـــرا فلـــم يسمعنى ، وقال كأنه يطمئننى : لا تخف على ، معى أربعة آخـــرون ، سنهرب جميعا في شاحنة ضمن قافلة ذاهبة إلى هناك بعد عودتها مـــن موسم الحج • سنهرب جميعا في الشاحنة وقد اتفقنا مع السائق على أننا قرب الحدود سنختبئ في صهريج معهم ، فإذا ابتعدنـــا عـــن الحـــدود أخرجنا منه وتركنا لحالنا • وكان هذا آخر عهدى به ، لكنه لـــم يكـــن آخر العهد بأخباره ، فقد نشرت الصحف المحلية بعد نحو أسبوعين مـــن هذا اللقاء أنه عثر في الجانب الآخر من الحدود على بقايا جثث خمســـة رجال قد نهشتهم وحوش البادية ، ولم يعثروا معهم علـــى مـــا يثبـــت شخصياتهم • كذبوا إن كان صادقين ، فقد كـــان فـــي جيـــب أحدهـــم المحفظة الكبيرة ذات الكباسين المربوطة بقيطـــان قديـــم فـــي عـــروة الصديرى ، وفي جيبها الأول صورة خالد ، وفي جيبها العميق صـــورة العروس العذراء التى لم يرها أحد ، بالإضافة إلى خمسة وستين ريـــالا قال إنه سيحتفظ بها بعد دفع الأجرة لسائق الشاحنة ليبـــدأ بـــها حياتـــه الجديدة • يا أبناء الأفاعى ، دمه في أيديكم ، دمه على رءوسكم ، دمـــه في رقابكم •

ثمة نوع آخر من السفر سعيا في طلب الرزق غير هـــذا وذاك وإن كان منه جد قريب • وذلك سفر المهنيين المتعلمين المؤهلين ، مـن أطباء ومدرسين وصيادلة ومهندسين وخبراء ومحاسبين ، إلى غير ذلك من تخصصات • فقد شاء الله لهذه البلاد أن تكون معين خبرة ، كمـا شاء لغيرها من أقطار محيطة بها أن تحرم من كثير من الخبرات التـي تحتاج إليها لتفشى الجهل فيها سنوات طوالا وحقبا مديدة ، واشتداد الفقر أزمنة متلاحقة • فلما ظهر النفط وبدأ أهل هذه الأقطار يفكـرون فـي تطوير أمور حياتهم ومجتمعاتهم احتاجوا إلى خبرات شتى في مجـالات متعددة ، فتطلعوا إلى أهل هذه البلاد ليمدوهم بما هم في مسيس الحاجـة إليه • ومن هنا نشأ هذا النوع من السفر • وفي مرحلة الوهج القومـى كان الدافع الأكبر لهذا السفر يتمثل فيما كان يطلق عليه العمـل علـى تحقيق الأهداف القومية ، من بناء الوحدة ، وتـأكيد القـدرة ، ودعـم الإرادة ، والتمكين للنهضة • فلما انطفأ الوهج القومى وكـانت الأرزاق في هذه البلاد قد ضاقت تغيرت الغاية ، فأصبحت البحث عن بحبوحـة العيش وسعة الرزق وضمان مستوى من الحياة لا يحوج هذه الصفـوة المتعلمة من أبناء المجتمع إلى إراقة ماء الوجه وضيـاع الكرامـة • وهكذا تحددت العلاقة بين الطرفين واتضحت قواعدها ، فطرف يريـد الخبرة ، والآخر يريد في مقابل خبرته المال • وليس في علاقة علـى هذا النحـو ما يشين ، فالذين يطلبون الخبـرة يسـعون إليـها لبنـاء أقطارهم • والذين يطلبون المال يحرصون على ضمـان اسـتقرارهم النهائى في أوطانهم ، إلا أن العلاقة تتطـور ويصيبـها مـن الفسـاد والانحراف الكثير • فبعض الذين يريدون الخبرة لا يريدونها وحدهـا ، بل يبتغون معها - إن لم يكن قبلها - أمرين آخرين أحدهما أو كليـهما : كرامة أصحابها ، وحرمان هذه البلاد منها ، وبعض الذيـن يريـدون

المال يغيب عنهم الهدف فلا يشبعون ، وعلى جمع المال بكل أساليبه بغية الانتقال إلى الطبقات العليا يحرصون ، ويتفاعل هذا الانحراف مع ذاك الانحراف ويثمر هذا التفاعل تقديم نماذج لفرط شيوعها لم تعد منكرة ، وسأكتفى هنا بذكر بعضها .

* * *

السربونى

هو طويل القامة ، ممشوق ، أحمر الوجه ، أشيب الشعر ، تجاوز الخامسة والسبعين من عمره ، يتوقد في عينيه ذكاء الفطرة والتعليم والخبرة . درس في السوربون وحصل منه على دكتوراه الدولة في اللغات السامية ، لكنه لم يعن قط بهذا التخصص ، لا تدريسا ولا تأليفا . وكان يلقى محاضراته من مذكرة مجهولة المصدر على طالباته في فرع الجامعة بالزاهر في مكة ، وكان يقيم في جدة ، ينتقل كل صباح عقب صلاة الفجر بسيارته اليابانية القديمة ليلقى درسه الأول في السابعة والنصف ويستمر جدوله متقطعا حتى الثامنة والنصف مساء، ليعود مرة أخرى في صبيحة اليوم التالى ليدور في نفس الدائرة . ولما سألت ، ولم لا ينظمون له جدوله ليريحوه ؟ قالوا : لأنهم يريدون أن يتعبوه ، قلت : لماذا ؟ قالوا : لأنهم يسيئون به الظن لصلته بمدير الجامعة ، قلت : وما صلته به ؟ ، قالوا هى صلة وثيقة ، بدأت بعد أن امتلك المدير مزرعة في الطائف قدعا إليها كبار أساتذة الجامعة وأقام ليم فيها حفل عشاء . وهناك امتدح صاحبنا موقع المزرعة ، ومساحتها ، وأعلن أنه بخبرته قادر على أن يتكفل برعايتها بحيث تصبح مزرعة نموذجية . واستجاب المدير له فـ ـرك له متابعتها

والإشراف على عمالها ، ومن يومها وهو يتفقد أحوالها كل يوم جمعة ، لكن الذين في الكلية يتصورون أنه يستغل هذه الصلة لينقل إلى المدير ما يدور • قلت : وهل لديه في الزراعة خبرة ، قالوا : إنه يدعى هذا ، فقد اشترى في فترات سابقة أثناء إعارات قديمة له ثلاثين فدانا من أراضى وزارة الأوقاف في منطقة قريبة من الاسكندرية ، ولهذه الأرض قصة طريفة • وألححت في معرفتها حتى اكتملت لدى تفصيلاتها : اشترى الأستاذ الجامعى هذه الأرض بمائة جنيه للفدان الواحد ، يدفع منها عشرين في المائة عند التعاقد والباقى على أقساط سنوية ، ودفع أستاذ الآداب الموقر عددا محدودا من الأقساط ، ثم توقف ، ولما أرسلت الوزارة تستعجله في السداد تباطأ بدلا من أن يبادر إلى الدفع ، فلما قال له بعض عارفيه إنك تغامر بفقدان الأرض قال لهم بهدوء : بل أنتم الذين لا تعرفون المسالك ، وقد كان تقديره صحيحا ، فقد ظلت الأرض بين يديه لا يدفع مليما من أقساطها ، ولاتقاضيه الوزارة بشأنها ، إلى أن شاء الله أن تدخل هذه الأرض كردون المدينة فتحولت من ثلاثين فدانا إلى أكثر من مائة وخمسة وعشرين ألفا من الأمتار المربعة بعد أن صارت ضمن الأراضى التى يسمح بالبناء فيها ، وأصبح صاحبنا من أصحاب الملايين • ومع ذلك يذهب إلى مكة ليعمل في غير تخصصه ، ويضيف إلى ذلك عناء الانتقال اليومى في سيارة متهالكة من جدة إلى مكة أو الطائف • ويظل طوال يومه خارج بيته لا يجد مكانا يستريح فيه أو يتناول لقمة يتبلغ بها فيهبط إلى عمال الدائرة التليفزيونية المغلقة التى يعمل من خلالها ليشاركهم طعامهم • وفوق هذا كله يتحمل من العناء ما لايعلمه إلا الله في اضطراب تفكيره إذا رأى في مزرعة المدير ما لا خبرة له به من مظاهر ضعف النبات أو فساد التربة •

آخر مرة رأيته فيها كانت قبيل سفرى من مكة ، ذهبت لأصلـــى العشاء في الحرم ، فرأيته جالسا في الساحة إلى جوار المطـــاف مـــع شخص يرتدى ملابس الإحرام ، وكان قريب الشبه به حتى ظننت أنـــه أخاه الأصغر ، أو مأت إليه برأسي من بعيد وأنـــا أطـــوف ، فحيـــانى وأشـــار بيده أن أقابله بعد الطواف ، وعجبت ، فلم يكن بيننـــا شـــيئ مشترك ، وحين ذهبت إليه عرفنى بابنه ، مهندس وســـيم فـــي نحـــو الأربعين ، وطلب منى أن أكون منه قريبا أنتظر حتى يفـــرغ ، قـــال موجها حديثه إلى وعيناه على ابنه : سأنتهى حالا ، فالموضوع مـــهم . وكان واضحا أنه يتعجل الخلاص من ابنه ، بقيت أنتظر وقد شدنى حب الاستطلاع ، فلما ذهب ابنه للسعى التفت إليه مستفسرا فلم يقـــل شـــيئا وظل صامتا لحظات ، فلما حاصرته بأسئلتى ونظراتى قـــال متأففـــا : هؤلاء الأولاد يخلطون عملا صالحا وآخر سيئا ، قلـــت له : كيـــف ؟ قال يأتى لأداء العمرة ولا يخجل من أن يطلب منـــى المســـاعدة فـــي الزواج !! كأنما لم أفهم فسألته متعجبا : ألم يتزوج بعد ؟! قال : كـــلا ، لأنه كلما فكر في واحدة أراد مساعدتى . قلت متعجبا : وماذا في هذا ؟ رد مستنكـــرا بصوت سمعه بعض الطائفين : بغل مثله فـــي الرابعـــة والأربعين ، يعمل مهندسا ، ثم يطلب مساعدة ليتزوج ، وصمت لحظات قبل أن يضيف : إنها والله لعجيبة من عجائب الزمن . ماذا يفعـــل إذن الغلابة والمساكين ؟ قلت وأنا أنهض دون أن أمد إليه يدى : يســـتولون على ثلاثين فدانا من أرض وزارة الأوقاف .

* * *

المنوفى

وإذا كان صاحبنا هذا قد جاء من السربون فإن صاحبنا الثانى قد قدم من بيرشمس ، قرية صغيرة من أعمال الباجور في المنوفية، حضر إلى تلك المدينة مسلحا بدكتوراه في النحو والصرف من كلية اللغة العربية بالأزهر ، رجل متوسط الطول ، جميل الحيا ، باسم الثغر ، فيه بشاشة تبهرك منذ اللحظة الأولى ، يتمتع بهذا الإشعاع الخاص الذى يأسر الناس ، فلا يكاد يجلس في مكان حتى يصبح قطب الدائرة ، بلطائفه التى لا تنفد ، ونوادره التى لا تتوقف ، ونكاته التى لاتبلى ، تستمع إليه يتكلم فتجد في صوته تلك النغمة الأسرة المبهجة التى تسحر من حوله ، وليس في حديثة إساءة لأحد ، فلا يخرج قط عن حدود الأدب والذوق واللياقة ، يساعده على ذلك ذاكرة حافظة ، وعين لاقطة ، وقلب واع ، ومقدرة على لحظ المفارقات فيما يرى ويسمع •

وكان يدرس الصرف ، والصرف - حفظك الله وأجارك - علم خفيفه ثقيل ، ولطيفه سقيم ، ونوادره باردة ، وحكاياته سقيمة غثة • لكن صاحبنا هذا كان قادرا على أن يجعل منه شيئا مبهجا بما كان يضفيه عليه من بهجة ، ممتعا بما كان يمنحه له من إمتاع • وكان يدرسه من كتاب قديم ، كتب لغير عصرنا ، وألف لغير أبنائنا ، عنايته بالعبارة أكثر من عنايته بالحقيقة ، واهتمامه باللفظة وتحريرها أشد من اهتمامه بالوظيفة وتحقيقها ، ورعايته لقضايا التعريفات والتقسيمات والتعليلات والخلافات أكبر من بحثه عن العلاقات في النظائر والمشابهات والمفارقات في المتقابلات ، ومع هذا كله كان صاحبنا من البراعة بحيث جعل تلاميذه وتلميذاته يعايشونه ، لابل يألفونه ، لابل

يتمرسون به ، ويرددون نوادره ويتراشقون بأحكامه وأقسامه . ويتبادلون عباراته ومصطلحاته وكأنها نوادر الظرفاء ، ولطائف البلغاء ، وطرائف الشعراء ، وأحداث المغنيات والمغنين .

ذات صباح اتصل به مدير الجامعة في الكلية ، وحيا جهوده الموفقة ، واستأذنه في أن تتصل به تليفونيا بنت شقيقته ، وهي إحدى تلميذاته في ذلك الفصل الدراسى ، لتسأله عن بعض ما غمض عليها ، وكان ذلك شيئا شائعا ومعروفا ومتداولا ، فأذن ، واتصلت به الفتاة مرة أو مرتين ، تبعهما دعوة مدير الجامعة له لمقابلته في مكتبه الرسمي بصحبة عميد كليته ، وحين ذهب في الموعد المضروب ومعه العميد أحسن المدير استقباله ، ونهض يقابله فور دخوله من الباب ، وجلس إلى جانبه على الأريكة ، وكرر له من جديد الشكر وغمره بالثناء ، ثم استأذنه في أن يسمح ببضع لقاءات خاصة مع البنت ليشرح لها ما استعصى على فهمها بعد أن تبينت أن الاتصال عبر التليفون لا يكفى ، بهت صاحبنا ، فهذا معناه درس خاص وهو محظور ، فكيف يتخلص والذى يطلبه منه مدير الجامعة ومعه العميد ، وكأن الرجلين أحسا بما يفكر فيه ، فراحا يحاولان إقناعه ، فهذا ليس درسا خاصا ، إنما هو توضيح لما تم شرحه بالفعل ، وإضاءة لما غمض منه ، ولا فارق بين أن يسأل التلميذ أو التلميذة في الفصل وأن يسألا في المنزل . فلما قال لهما إن ذلك مخالف للنظام المقرر رد مدير الجامعة ضاحكا : أنا النظام ، وأنا الذى أطلب منك ، ثم إن الدرس الخاص معناه وجود مقابل مادى ، ومن المؤكد أننى لن أدفع لك أى مقابل . وقبل صاحبنا على مضض ، وذهب إلى البنت في منزلها ، ليجدها ومعها أخريان من تلميذاته ، ومعهن في اللقاء الأول مدير الجامعة وشقيقته . وبادر المدير مفسرا بأن ذلك مراعاة للتقاليد ، التى لا تجيز أن يلتقى بالفتاة وحدها .

وأضاف متفكها : نحن بالتأكيد لا نخشى منك ، لكننا نخشى عليك ٠ وأنجز الرجل مهمة كانت ثقيلة عليه ، ونجحت الفتيات الثلاث ، وحين استقبله مدير الجامعة بعد الامتحان شكره بحرارة وهو يقول : إن البنات يردن تقديم هدية رفض بشدة وهو يرد : هديتى الحقيقية ألا أخوض هذه التجربة مرة أخرى ٠

لكن ليس كل ما يتمنى المرء يدركه ، في العام التالى أرسل إليه وكيل الجامعة يطلبه في مكتبه وحثه رئيس القسم على الاستجابة له ، فذهب إليه معه ، وكان متوجسا ، وفي اللقاء أبلغه الرجل من غير مقدمات أن بنت صديق له بينهما مشاركة تجارية تلميذة عنده ، وأنه لا يطلب منه أن يدرس لها ، وإنما كل ما يطلبه أن يمنحها لقاء واحدا أو لقاءين يختبر قدرتها ، ليوصى بعد ذلك بما يرى ، واضطر صاحبنا إلى ذلك ، وقابل الوكيل ليقول له : أفضل شيئ لهذه البنت أن تنسحب من هذه المادة ، فليس عندها استعداد لدراستها ٠ فقال له الرجل بحزم : أنت أستاذ هذه المادة ، ولن تنسحب ، وعليك أن تتدبر أمرك فهذه مسئوليتك ، فلما ضاق صدر صاحبنا بهذا القول الغليظ تابع رئيس القسم وكان حاضرا محاولا أن يتلطف ، من الممكن أن تعطيها بعض الأسئلة لتذاكر في ضوئها ، صعق صاحبنا ونهض متجها إلى الباب ، لكنهما سارعا إليه مفسرين : فهما لم يقصدا ما فهمه من أنه مطلوب منه منح البنت أسئلة الامتحان ، بل المطلوب مجرد نماذج تهتدى بها إلى طريقة المذاكرة واستيعاب المعلومات ، وهذه طريقة شائعة لا غبار عليها ولا مأخذ معها ٠ ويضطر صاحبنا إلى فعل ذلك كارها ، لكن البنت ترسب وترسب معها جملة من صديقاتها كن يذاكرن معها بعد أن جاءت أسئلة الامتحان مخالفة لما ذاكرنه من أسئلة وإجابات ، فيستدعيه الوكيل ومعه رئيس القسم مرة أخرى ويطلبان منه أن يصحح خطأه ، وأن يعيد

تصحيح الأوراق بحيث تنجح البنات الراسبات ، وحين يرفض يقول له الوكيل بهدوء : ستدفع الثمن باهظا .

وقد كان : بعد يومين اثنين فحسب شاع في الكليـــة أن صاحبنـــا محال إلى التحقيق العاجل بتهمتين : الأولى إعطــــاء دروس خاصـــة ، والثانية تسريب بعض أسئلة الامتحانات ، وكانت لجنة التحقيق مكونـــة من وكيل الجامعة رئيسا وعميد الكلية ورئيس القســـم عضويـــن ولـــم يستغـــرق التحقيق معه سوى جلسة واحدة لم يكن لها محضـــر ، ولـــم تسجل ، فقد كانت أشبه بدردشة استمرت نحو نصف الساعة ، انتـــهت بتقرير أدى إلى إدانته ، وأصدر مدير الجامعة بعد ذلك قراره بإلغــــاء تعاقده وترحيله على الفـــور ، وحرمانه من راتبه منذ تاريخ إحالته إلى التحقيق ، وحرمانه من مكافأة نهاية الخدمة في الجامعة وكانت تعـــدل راتب خمسة شهور ، وحرمانه من تذاكر السفر له ولأسرته ، وحرمانه من العمل مرة أخرى في تلك الدولة ، والكتابة إلى جامعات دول مجلس التعاون الخليجي لحرمانه من العمل فيها . وحين عقب أحد المتعاقدين ساخرا : لم ينقص هذه العقوبات إلا قطع اليد والرجل من خلاف ، قـــال مديـــر الجامعة جادا : والله لقد فكرنا في ذلك لولا أن رحمتنـــا تســـع الخلق .

* * *

المخـدوع

هو رجل عادى في كل شيئ ، عادى الشكل ، عـــادى المنظـــر ، مألوف لا تجد فيه علامة تميزه عن غيره ، ليس بالطويل ولا بالقصير ، ليس بالممتلئ ولا بالنحيف ، لا هو أسمر ولا هو أشقر ، لا هو شاب

في ميعة الشبـاب ولا كهل في ذروة الكهولة ، تراه فتجد لـه أشـباها كثيرين يمكن أن تقابلهم في القاهرة ، أو في المدن الصغيرة ، أو حتـى في القرى القريبة منها والبعيدة • ظننته حين رأيته أول مرة أنه الشـيخ عبد الفتاح بندارى ، وظنه زميل كان بصحبتى أنه الأستاذ إبراهيم أبـو منصور ، وما من إنسان لقيه أو قابله إلا وجد له شبيها في أهلـه ، أو بين أصدقائه ، أو جيرانه •

هل تميزه ابتسامته ، ربما ، فله ابتسامة شـديدة الروعـة ، فيـها صفاء ابتسامة الوليد ، ورقتها ، وعذوبتها ، وأسرها ، وتعجـب حيـن تراها ، أنى لرجل مثله في الغربة أن يبتسم على هـذا النحـو وسـط المعذبين بالمال ، الذين لا يشغلهم شيئ قدر ما تشغلهم أمـوره ، مـن تحويل وبيع شراء وأسهم وسندات وشقق وأراض وبنوك •

هل يميزه صوته : نعم ، بالقطع ، فلصوته إيقاع خاص ، يجمـع بين العمق والجهارة ، يجسد هدوء التمكن ورسوخ الثـابت واسـتقرار اليقين ، وحتى هذا قد تجد له على قلة شبيها بين الأصوات • فهو قريب من صوت صديقنا الشيخ سلامة مصطفى رحمه الله • أو هـو نسـخة أصيلة مماثلة لصوت الفنان محمد الطوخى في أعماله المسرحية قبـل عصر التليفزيون •

وهو يحمل ثلاث درجات للدكتوراه من جامعات انجلترا ، اثنتـان منها في فلسفة العلوم ، أو كما يطلقون عليها (ب • اتش • دى) وأمـا الثالثة فهى دكتوراه العلوم ، أو كما يسمونها : (دكتور سـاينس) فـي الرياضيات البحتة • وهو تخصص شديد الصعوبة ، بالغ الدقة ، يحتاج إلى عقلية غير عادية تعالج قضاياه ، وتحيط بمشـكلاته • وأصحابـه

محدودون معدودون ليس على الأرض العربية وحدها ، بل في كثير من الأقطار •

قلت مندهشا : كيف جاء هذا الرجل إلى هنا ؟

قالوا : لذلك قصة • فقد ذهب مدير الجامعة إلى لندن ليتعاقد مع بعض الأساتذة في الفيزياء والكيمياء والرياضيات ، وهو نفسه حاصل على درجة الدكتوراه من انجلترا في الكيمياء العضوية ، وفي لندن التقى بزملاء له قدامى ، فنصحوه بأن يذهب إلى أبردين لأن فيها مؤتمرا علميا مهما يضم عددا من ألمع المتخصصين في هذه المجالات ، ويحضره عدد من الحاصلين على جائزة نوبل ، فسافر إليها ، وحضر بعض جلسات المؤتمر ، وبرغم عدم تخصصه في موضوعه فإنه لمح - كما لمح سواه - صاحبنا المصرى يصول فيه ويجول ، ويصحح كثيرا من الأخطاء ، ويعدل كثيرا من النتائج • ووجد العلماء يقدمون له من الإجلال ما يشعر بأنه في العلم عالي الشأن ، رفيع المكانة ، فالتقى به المدير وسأله : نحن نريد أن نستفيد بخبرتك فهل تضن علينا بها ؟ كانت العبارة مدخلا جيدا للرجل ، فهو ممن يقدرون التواضع حق قدره ، قال له إنه يسعده ذلك ، لكن بشروط ، رد المدير : موافقون على شروطك كلها ، حدد الراتب الذى تطلبه ، لكن الرجل لم يطلب نقودا غير ما يأخذه سواه ، وكل الذى طلبه أن يسمح له أن يصطحب معه بعض مراجعه المهمة ، وألا تنقطع عنه الدوريات العلمية التى يتابعها ، وأن يكون له حق المشاركة في جميع المؤتمرات العلمية التى يدعى إليها ، ووافق المدير • وحضر الرجل لكنه بعد إقامته بفترة قصيرة لم يكن مستريحا • كان عارفوه يقولون : إنه تعب من الراحة • فلم يكن يدرس سوى ثلاث ساعات في الأسبوع ، ويقضى بقية الوقت لا يفعل شيئا • ولما ضاق صدره حدّث

مدير الجامعة ، فطمأنه إلى أن الجامعة تضع خططها لاستثمار وقتـه ، وبدأ ذلك بأن طلب منه الإشراف على لجنة تعيد النظـر فـي منـاهج الدراسة • وسافر في العام الأول بضع مرات في المؤتمرات العلمية في ألمانيا واليابان وأمريكا • وسارت أمور صاحبنا بين اللتيا والتى حتـى تولى إدارة الجامعة مدير جديد حصل على الدكتوراه في الأدب العربـى من أمريكا فأرسل فور توليه منصبه تعميما أعلن فيه أنه لا يجـوز لأى متعاقد ممارسة أى نشاط علمى أو فكرى أو ثقافى إلا بموافقة شـخصية منه • ومن هنا بدأت مشكلة صاحبنا • إذ تقدم بطلب للمشـاركة فـي مؤتمر علمى دعىَ إليه فرفض ، أرسل صاحبنا طلبا آخـر موضحـا أهمية المؤتمر ، وأهمية المشاركين فيه ، لكنه كرر الرفض ، واضطـر صاحبنا أن يطلب مقابلته وأذن له بذلك ، وحين عاد بعد المقابلـة إلـى زملائه الذين كانوا ينتظرون نتيجتها كان في غاية الدهشة ، يحكى مـا دار في اللقاء والعجب يأخذ منه كل مأخذ ، يضرب كفا بكف ويقـول : ممنوع لأنه عقد احتكار • وأخذنا نسأله عن التفصيلات • وأخذ يحكـى مسترجعا ما دار منذ اللحظة الأولى :

قال : حين دخلت عليه ابتسم ، وحيانى وهو جالس يتحدث فـي التليفون مشيرا إلىّ أن أجلس أمام مكتبه ، وظل مستغرقا فـي مكالمـة طويلة موضوعها حفل عرس حضره وكان يتحدث عن انطباعاته عنه ، ومقابلاته فيه ، إلى أن أحسست بضجر ، ولما انتهت المكالمة نظر إلـى مبتسما ، ودق الجرس طالبا العامل ليقدم لى كوبا من الشاى ، شـكرته وقلت إننى لا أشرب الشاى ، وهذا صحيح ، فأنا لا أشرب النوع الـذى يشربون منه ، ولما سألنى عن حاجتى قلت بأناة : لقد أرسلت طلبيـن للسماح لى بالمشاركة في مؤتمر علمى ، وقد رفضا ، قال بهدوء : هـذا صحيح ، أنا رفضت الطلبين ، قلت : ما سبب الرفض ؟ قـال جـادا :

ليس من حقك أن تعرف السبب ، هذه سياستنا ، قلت : لو كانت سياسة ثابتة ما سمح لى من قبل بالسفر ، وقد خرجت مرات . رد بتؤدة : الذى سمح لك بالخروج خالف النظام ، وقد دفع ثمن مخالفته . حاولت أن أستدرجه لمعرفة السبب ، فتحدثت عن عدم تأثر الطلاب بسفرى ، وعن الفوائد التى يجنيها أى بلد حين يطور القدرات العلمية لعلمائه ، وعن الفوائد المتعددة التى تقدمها المؤتمرات للمشاركين فيها ، وكان يكتفى بعبارة واحدة : ممنوع ، فلما قلت له : أنت درست في الولايات المتحدة ، وأنا لا أطلب أن تكشف سرا ، أطلب فقط أن أقتنع ، عندئذ فقط قال : يا دكتور أنت تعاقدت للعمل معنا ، ويمكنك أن تعتبر أن هذا العقد عقد احتكار ، وليس من حقك بمقتضى هذا العقد أن تستثمر وقتك أو جهدك العقلى إلا بموافقة منا ، هل هذا التفسير يقنعك ؟ ولما سئل : وماذا كانت إجابتك ، قال : الإجابة الطبيعية ، وهل كانت هناك إجابة محتملة غيرها ، قلت له : أنتم بهذا تريدون منا أن نتجمد علميا ومعنى أن نتجمد علميا أن نموت ، فأى مصلحة لكم في ذلك ؟! لقد حضرنا إلى هنا لمساعدتكم ورفع مستوى جامعتكم فهل يكون جزاؤنا أن نقتل علميا ؟! وكتبت له استقالتى .

* * *

ومن حوافز السفر الارتحال **لأداء الحج والعمرة والحج** وهو الركن الخامس من أركان الإسلام الحنيف ، وهو المتمم لها ، المؤكد التزام المسلمين بها ، وهو المظهر الأكبر لتوافق المسلمين في مختلف أقطارهم ، وتعدد أمصارهم ، وعلى اتساع أرضهم ، رغم ما بينهم من اختلاف في المذاهب ، وتنوع في العادات ، وتفاوت في التقاليد ، وتباين في الميول ، وقلَّ - إن لم يكن يندر - وجود مسلم مكلف لم يفكر في القيام بهذه الرحلة ، ولم تتشوف روحه إليها ، ولم يهف قلبه للائتنلس

بيا ، ولم يداعبه أمل رؤية الكعبة المشـــرفة حرســها الله وصانــها ، والطواف حولها ، والشرب مــن مائــها ، والصـــلاة فــي حجرهــا ، والتضرع في ملتزمها ، والسعى بين الصفا والمروة ، والدعاء فيـهما ، ولم ير بعين قلبه نفسه فوق جبل الرحمة يوم الحج الأكبر مهللا مكبرا ، ملبيا مستغفرا ، مبتهلا متضرعا ، لله ضارعا ، يذرف الدمع سخيا فــي مواقف سمعت صوته صلوات الله عليه ، وأماكن شهدت ركبه قرننا الله في يوم الدين منه ، وبقاع تشرفت بأنفاسه العطرات ، عليه وعلى آلــه وصحبه الصلوات الطيبات • ولا أحسب مسلما لا يتعلق قلبه برســول الله حبا ، وبالصلاة في مسجده صلى الله عليه وآله لله تقربــا ، الــذى أرسله للعالمين رحمة ، وللكون هداية ، وللمثل الكامل خَلْقــا وخُلُقــا ، نورا يتجسد ، وعطرا يتجدد ، فالمسلمون تتوهج أرواحهم بذكر الرسول الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم ، يسألون الله جلت قدرته أن يحظـــوا بشفاعته يوم الحشر ، وأن يشربوا من يده الشريفة شربة هنيئة لاظمــأ بعدها أبدا •

والحج إلى مكة قديم ، وكان ضمن عادات العرب ومعتقداتهم قبل الإسلام ، وكان لهم فيه طقوس غريبة ، وتقــاليد عجيبــة • لا داعــى لذكرها وقد مَنَّ الله بالإسلام فتخلصنا منها ، إذ وضع الإســـلام للحــج قواعد جديدة ، وحدد شعائر تخالف ما كان عليه العرب فــي الجاهليــة الأولى ، وهى شعائر تغرس بفضل الله الهداية الإلهية وتؤكــد العنايــة الربانية ، وهى في جوهرها تدور حول محورين اثنين تدور حولـــهما بقية العبادات الإسلامية ، أولهما اختبار الالتزام الدينى ، وثانيهما تحقيق فوائد عملية • والإسلام بالالتزام بهذين المحورين يجعل صدق العقيــدة شرطا لنجاح العمل ، ومفتاحا لقبوله ، وأساسا له • واختبـــار صــدق العقيدة ضرب من الاختبارات التنظيمية ، وهى ثابتة في كل العقـــائد ،

شائعة في جميع المذاهب ، بحيث يمكن اعتبار هذه الاختبارات من قبيل المبادئ التى لا ينكَر وجودها والقواعد التى لا تُجحد أساليبها ، إذ ليس الخلاف بين العقائد في أصلها ، وإنما الخلاف في تطبيقاتها . وفي مثل هذه الحال لا يجوز السؤال بلماذا ؟ وإنما يكون السؤال بكيف ؟ فلا يصح أن يسأل سائل عن توقيت الحج لم كان في هذا الزمان ، ولا يصح أن يتجاوز فيسأل ولم كان إلى هذا المكان وليس إلى سواه ، ولم كان بهذه الكيفية وليس بغيرها ، إلى غير ذلك من أسئلة قد يطرحها العقل ، مما يختلف في الإجابة عليه الاجتهاد ، ولا أحسب أن لها في الحج أهمية ، لأن المدخل إليها غير صائب ، وإطار التفكير فيها غير صحيح . فلا يشغلنَّ أحد نفسه ببحث فيها ، وإجابات لها ، ومحاولة تفسيرها ، وحسبنا أن نقول إنها من باب اختبار تسليم المؤمن ، أى من قبيل الاختبارات التنظيمية لصحة العقيدة ورسوخها ، والبناء عليها بعد استقرارها .

والإسلام لم يجعل الحج فريضة على المسلمين جميعا ، بل فرضه على القادرين عليه ، الذين يستطيعون القيام به . بحيث يمكنك القول بأن الحج ليس فرضا على غير القادرين ، كما أنه لا يجوز بحال لغير المسلمين .

والقدرة - أكرمك الله بها ، ومكَّن لك منها - متنوعة المجالات، متعددة المستويات .

وأولها القدرة المالية على النفقة طوال الرحلة المباركة ، للحاج نفسه ولمن يعولهم ، من مصاحبين له ، أو متخلفين عنه ، فلا يكون قادرا من هو في رحلته عالة على غيره ، أو من يترك أهله أثناء غيابه محتاجين يتكففون ، وفي الضيق يعيشون .

وثانيها القدرة الجسدية ، فصحة الحاج يجب أن تكـــون مواتيــة تمكنه من أداء الشعائر ، وهى كما أراد الله لها تحتاج إلى جهد كبــير ، وعناء كثير ، ومشقة متواصلة ، فيها عنت السفر ، والجهد في تغيــير نمط الإقامة ، وما هو أشد منهما في التنقل بين المشاعر فـــي أزمنــة محددة لا يجوز مخالفتها ، وأوقات معلومة لا يصح تجاوزها ، وعلـــى قدر المشقة يكون الأجر ، وبفضلها يزداد القرب ، وهـــى جـزء مــن الاختبار ، الذى تتواصل ظواهره في الحج بالليل والنـــهار، فالصحــة الجسدية ضرورة للحاج لابد منها ، وهى عندى شـــرط مــن شــروط المقدرة بل هى أساس الاستطاعة ، بها يتمكن الحاج من أداء الشـــعائر من غير إرهاق لنفسه ، أو عناء لصحبته ، أو قلق من رفقتـــه ، فـــإذا فقدها الحاج تسبب في حرج لمن معه ، يشـــتت أفكـــارهم ، ويشــوش مشاعرهم ، ويعوق قدرتهم ، وفي هذا من الفساد ما هو بين لا يحتـــاج إلى إيضاح •

وثالثها القدرة النفسية ، فالحاج يجب أن يكون مؤهلا لهذه التجربة الروحية ، معدا إعداد طيبا لهذه الرحلة النفسية ، عليه منذ اعتزم الحـــج أن يدع شواغل الدنيا جانبا ليقبل على الله ، لا يفكر إلا في رضاه ، ولا يشغل نفسه إلا بما يقربه منه ، من عبادة يحرص عليـــــها ، وعمـــل صالح ينفعه وينفع الناس •

والمسلمون يوم الحج الأكبر في مشهد فريد ، يجمع الدنيا والآخرة في آن ، ويوحّد الناس في مكان وزمان ومشهد يتأكد به أن المســـلمين في الدنيا أصحاب إرادة ورسالة ، كتلة واحدة متراصة في بنيان عظيــم راســخ ، يأتون من شتى الأصقاع ليلتقوا في يوم واحد ، فـــي مكـــان واحد ، يتوجهون لمعبود واحد ، يتضرعون إليه بنداء واحد ، لا تفرقـــة فيهم بين كبير وصغير ، ولا بين غنى وفقير ، ولا بين صـــاحب جـــاه

وسلطان ومن ليس بيده من أمر الدنيا شيئ ؛ الكل في واحد ، والواحد في الكل • لا يبقى بعد ذلك إلا أن تنعقد العزائم ، ويبدأ العمل ، وتنطلق الهمم ، فتتواصل الجهود ، ويعظم البذل والعطاء ، وكأن المسلمين بلقائهم يوم الحج الأكبر يقولون : إنا في مواجهة أعدائنا متحدون ، ومهما اتصفوا به من عسف وبغى وظلم وطغيان فنحن بعون الله المنتصرون •

ومشهد الحج الأكبر يملأ الحاج في الوقت نفسه وعيا بالآخرة • فالحجاج جميعا يتساوون ، يرتدون إزارا ورداء لا يتميزون ، لا يحس الناظر إليهم باختلاف ، ولا يشعرون فيما بينهم بتفاوت ، يصوغ وجودهم كله التوحد والوحدة والتوحيد ، ويتوهج وجدانهم بالضراعة والتضرع والابتهال ، بالخالق سبحانه يتصلون ، إليه وحده يتجهون ، فيه لا في غيره يأملون ، له دون سواه يتوجهون ، عليه سبحانه يتوكلون لا يتكلون • ما أشبه يوم الحج الأكبر بيوم المحشر العظيم •

هذا هو الأصل في الحج في الإسلام ، تأكيد مقدرة الفرد والأمة ، وتعميق الوحدة ، وتحفيز الهمة ، وبناء الثقة بالذات ، واليقين بالنصر مع الثبات ، فأين نحن اليوم من هذه الغايات : يقول الكثيرون : في الأفواه ماء ، لكن الساكت عن الحق شيطان أخرس • وإن عجبت فاعجب لقوم يجعلون الشيطان إمامهم ، والهوى سلطانهم ، والباطل رائدهم ، والضلال قائدهم ، والظلمات غايتهم ، والتزييف سلاحهم ، فإن أغمضتم عيونكم حتى لا تبصروا ، فماذا تفعلون في القلوب وهى تحس ، وفي العقول وهى تعى وتدرك •

رفعت بصرى إلى السماء أبتهل وأتضرع وأنا أطوف حول الكعبة المشرّفة ، في أول رحلة لى إليها ، وكانت منذ أكثر من خمس وعشرين سنة ، فوجدت تلك الأشياء هنالك ، فوق قمة الجبل العالى المحيط بالبيت

الحرام ، شامخة تتلألأ ، تحد البصر ، وتملأ النظر ، وكـــأنها تحـد معلن يقول للطائفين والعاكفين والركع السجود نحن هنا ، فوق مستوى ما تفعلون ، أعلى مما تبصرون ، يجلس الجالس فيها وأقدامه - أستغفر الله - فوق البيت ، يفعل فيها أفعاله ما جاز منها وما لم يجـز وعيونـه تعلو الكعبة ، يراها دونه ، أسفل منه ، أستغفر الله ، وما سفل إلا مـن فكر فيها ، وشيد مبانيها ، أضاع بها ما للبيت من هيبة ، وأفسد ما فـي الطواف من مشاعر ، حسابهم عند رب العالمين ، ويجـب أن يكـون حسابهم كذلك عند المسلمين • فليست مكة ملكـا لقـوم ولا لعشـيرة ، وليس البيت كلأ مباحا ترعاه الإبل ، وليست الكعبة بئرا يسـتقى منـه الرعاة • فمكة مهبط الوحى ، ومبعث النور ، ومنطلـق الهدايـة ، ومناط الرضا • والبيت قلبها وهو منا القلب ، ومحورها وهو في حياتنا المحور ، وقاعدتها وهو في تل مسلم الأساس والقـاعدة • والكعبـة بؤرة الكون ، وخلاصة خلاصة الوجود ، فيها الإيمان يتجسد ، والعمل يتجدد ، ومن حولها الفيوضات تتجلى ، وأنا لا ألوم ملوكهم وأمراءهم ، ولكن اللوم كله على علمائهم ومشايخهم ، الذين يزينون لهم ما يفعلون ، وفي هواهم يجتهدون ، فعقولهم لأهوائهم تابعة ، وألسنتهم بالثناء بغـير حق طائعة ، وكلماتهم في الدفاع عنهم وعن سياساتهم ذائعة شـائعة ، يتكلمون فيطيلون ، ويتحدثون فيسرفون ، ويخطبون فيعظون ، يبكـون ويستبكون ، وكأنهم في الوجد هائمون، لكنهم لما يفعل ملوكهم خـانعون مؤيدون ، وفي سبيلهم أعناقَ الآيات والأحاديث يلوون ، وعن الحق هم معرضون •

ويزيد الألم وأنا أرى وأسمع :

رأيت في منى وعرفات كيف يكون السلوك المخـالف للديـن ، المنافي للشعيرة ، المجافى لأصول الملة ، فالحج الذى يفـترض أنـه

يجسد الوحدة والتوحيد والتسوية بين الناس ، يصبح مجالا للتميز في أبشع صوره ، وللتفاوت في أسوأ معانيه . فعرفات مساحة من الأرض جد محدودة يقف الناس عليها يوم الحج الأكبر ، وهى الحج ، بنص قول الرسول الأعظم : الحج عرفة ، والناس فيها بالتلبية والدعاء مشغولون، وبالابتهال والرجاء يجأرون ، والمناجاة والنداء يرددون ، ولكن فريقا من أمراء تلك البلاد يأبون إلا أن يضيقوا على الناس ، فيقيموا فيها المخيمات الكبار لأنفسهم وضيوفهم وخدمهم وحرسهم ، وهى مخيمات تستنزف مساحتها ، وتقلص على الاستيعاب قدرتها ، وتضيِّق على حجاجها ، وقد لا يكون في المخيم الضخم إلا بضعة أفراد من خدم وحشم ، لكنه الحرص على التظاهر ، والتفاخر ، والتكاثر ، فترى الحجاج في عرفات في الساحات يقفون ، وعلى الصعيد الطاهر يصلون ، يركعون ويسجدون ، تحت الشمس القاسية يتعبدون وبشواظها لا يبالون ، أما أولئك فعرفات عندهم طعام وشراب ، ونوم ولعب ، ثم تصريحات طنانة ، بعبارات رنانة .

والأمر في منى أشد من عرفات وأقسى ، فمنى منطقة صغيرة يقيم فيها الحجاج - وهم بفضل الله بضعة ملايين - أيام التشريق ، وشاء الله أن تكون ضيقة محدودة المساحة ، لكن يأبى أولئك الأمراء إلا أن يزيدوها ضيقا على ضيق فيقتطعون منها المساحات الكبيرة يبنون فوقها قصورهم ، ويحيطونها بحدائقهم ، فمن أباح لهم حق المسلمين فيها ، ومن ذا الذى أجاز استيلاءهم عليها ، ما فعل ذلك والله إلا ضِلِّيل ، وإن حمد الله ونطق بالشهادتين وتشدق ، وبالحديث تدفق .

حدثنى بعض من أثق بصدقه حديثا وثقته ، ودقته ، وتحققت منه، وقد بلغ فيه التواتر حدا يمتنع معه إجماع على كذب ، أو اتفاق على اختلاق ، وهو حديث يؤكد إمعان هؤلاء الأمراء في الضلالة ،

وإسرافهم في الفساد ، ونكايتهم للملة ، وتزييفهم على الأمة . لمخالفة ما يفعلون للنصوص القاطعة في حجيتها ودلالتها ، والأدلة المتضافرة المانعة من الاختلاف فيها ، والاجتهاد معها . أكرمك الله وأعزك ، وهل يناقش أحد في تحريم دخول غير المسلمين أرض الحرم . إن هذا التحريم يكاد يكون معلوما من الدين بالضرورة ، ولكن أولئك الأمراء - جزاهم الله سوء ما يصنعون - بخلاف الأدلة يعملون ، وعلى غير ما تجمع عليه يسيرون . وذلك أن الملوك والرؤساء يأتون من فجاج الأرض لأداء الحج أو العمرة ، ومعهم حرسهم الخاص ، وحاشيتهم المقربة . ومن بين هؤلاء وهؤلاء من ليس على دين الإسلام ، بل إن منهم من لا يدين بدين . فيبادر أولئك الأمراء وأعوانهم إلى استقبالهم ، وصحبتهم وحواشيهم وحراسهم إلى البيت الحرام في مكة المكرمة ، صانها الله وحرسها ، دون أن يفكروا في منع من لا يدين بالإسلام ، ربما حرصا على حسن العلاقات مع نظائرهم من الملوك والرؤساء والأمراء ، وكأن الدين ليس إلا قربانا يتقربون به إليهم ، وأحكامه مجرد ذبيحة تنحر إرضاء لهم . ثم قد لايكتفون بدخولهم الحرم والبيت الحرام ، فيمعنون في الضلال ، إذ يفتحون لهم باب الكعبة المشرفة ، وإليها يدخلون ، وحين يخرجون ، يظلون عنها يتحدثون ، وقد لا يدركون أثر ما يقولون .

وعجيب أمر هؤلاء الأمراء والمشايخ ، الذين يملأون صحفهم وإذاعاتهم المسموعة والمرئية بكلام لا ينقطع ، وخطب لا تنتهى ، وشعارات لا تتوقف ، عن حكم الدين ، وحكمة الشريعة ، وتنفيذ الحدود، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، يريدون أن يصوروا الأمور للرعية على أنهم - دون غيرهم - القائمون بأمر الدين الحق ، القوامون بالقسط ، المقيمون لأحكام الشرع ، فكيف - بالله - يتسق هذا

والواقع مع ما فيه من مخالفات واضحة ، وانتهاكات صارخة ، وخروج عن صحيح الدين لا وجه له ، وتطاول على أحكام الشـــرع لا مجـــال لإساغته ، وقد أهمني هذا الأمر لأنى على يقين بأن عموم الفساد مـــن المحال ، والإجماع على الباطل متعذر ، حتى علمت بأن من المشـــايخ من أنكر ما يفعل الأمراء ، وشدد عليهم في الإنكـــار ، ولكـــن فقـــهاء السلطان سلطوا على أهل الحـــق ، فنالوا منهم ، وديروا لهم المكـــائد ، وكالوا لهم الأكاذيب ، وافتروا عليهم الأبـــاطيل ، مســتعينين بســياط السلطان ، من عبيد نعمه ، وأقنان أياديه من خدمه وعساكره ، فأخرسوا أصواتهم ، وحجبوا عن الرعية آراءهم ، ومنعوهم من مقابلة النـــاس ، وألقوا ببعضهـــم في غياهب السجون ، وظن فقـــهاء الســلطان أنـــهم الغالبون . ونسى هؤلاء وهؤلاء أن الحق قـــد يضعـــف أنصـــاره ، ويتبعثـــر رجاله ، وتتضاءل قوته ، وتبرد إلى حين عزيمته ، لكنه أبدا لا يموت ، وأن الباطل مقضى عليه مهما اشتد ساعده ، وتجمع حاشده ، وتضافرت على تأييده قوى البغى ، وتكاثفت من أجله جيوش الضلالـــة والكفر .

وتيسير أداء هذه الفريضة على الناس يوجب على كل من لديـــه مقدرة على التفكير فيه أن يفعل ، حتى لا يكون هـــذا الأداء مصحوبـــا بمشاق أخرى ما أرادها الله فيها ، وفي هذا الإطار أقول وهـــو حســبنا ونعم الوكيل :

أول ما تحتاجه رحلة الحج تهيئة الحجاج وتوعيتهم في بلادهـــم ، يقوم بها علماء يتكلمون بلسانهم ، ويستطيعون توجيههم ، ويكونون ممن أدوا هذه المناسك ، وعرفـــوا شعائرها ، وســـلكوا طرقـــها ، وعـــانوا مشاقها ، حتى يكون لديهم تصور كامل لما يقولون ، فلقد ســـمعت والله ممن أثق به أن أحد العلماء الكبار حين شاهد الكعبة لأول مرة صلـــى الله

ركعتين تحية لها ، فلما قيل له يامولانا أكرمك الله ماذا فعلت ، قال سجدت لله تحية لبيته وكعبته ، فلما قيل له حفظك الله للعلم فإن تحية الكعبة الطواف ، قال والله يابني إني أدرس لتلاميذي ذلك منذ أكثر من ربع القرن ، ولكنها الدهشة • فالمعايشة والتجربة من الضروري للموجه الناصح ، والمسلمون الراغبون في أداء الفريضة من حقهم أن يعايشوها في مخيلتهم قبل أن يقوموا بها في حياتهم حتى يحسنوا أداءها • ومن فضل الله على الناس ما يحدث من تطور في أدوات الاتصال والتعليم ، فإن من الميسور الآن أن يتم تعليم الآلاف المؤلفة بوسائل التعليم عن بعد ، وأجهزة الإذاعات المرئية ، وأشرطة الفيديو ، وهي كلها تمنح المتعلم فرصة كافية لتصور ما يتعلم ، واستيعاب عناصره ومقوماته •

الأمر الثاني من أمور التيسير العناية بأمور الانتقال من موانى الوصول برا وبحرا وجوا إلى مكة ، فمنطقة المشاعر في منى وعرفات فمزدلفة ومنى ومكة إلى الموانى مرة أخرى ، مع ما يكتنف ذلك من سكن وإقامة ، ووسائل الانتقال الحالية في هذه المناطق السيارات ، وثمة من يلجأ في داخل المشاعر إلى السير على الأقدام • وتحمّل المشقة في أداء الفريضة محبب إلى النفس ، لكن ذلك لا ينبغي أن يكون سياسة القائمين على الأمر في تلك البلاد ، بها يسوغون قصور الخدمات وفساد الأنظمة ، وفي تقديري أنه قد آن الأوان لعمل أمرين مهمين تيسيرا على الحجاج ، أولهما إنشاء خط حديدي كهربي يمتد داخل منطقة المشاعر ، ويستوعب ملايين الحجاج فيها ، وإني لأعجب حين أجد مثل هذا القطار في القاهرة تحت الأرض يحمل ملايين الركاب كل يوم ، وتخلو منه منطقة هي قلب العالم الإسلامي وهي في أمس الحاجة إليه ، ولا أظن أن إنشاء مثل هذا الخط للتنقل داخل

المشاعر سيكلف أمراء تلك البلاد أكثر ما يتكلفون فيما يعرفون مما هم به مبتلون ، وثانيهما ضرورة إنشاء هياكل خرسانية لمبان ذات طوابق في منطقتى مزدلفة ومنى لاستيعاب الحجاج وإقامتهم ، وتحتوى على الخدمات الضرورية من دورات للمياه وحمامات ومطاعم بحيث لا يجد الحاج مشقة في أمور حياته تحول بينه وبين معايشة تجربة الحج والانغماس الكامل فيها . وأرجو ألا يبادر مشايخنا الذين أثق بهم إلى الحكم على هذين الأمرين بالرفض ، كما فعل فقهاء السلطان في مراحل سابقات في الاقتراح الخاص بالهدى ، وألا يلجأ أحد من العلماء إلى الحكم بالحرمة في الأمور المستحدثة ، حتى لا يتساءل الناس فيما بعد كيف يصبح الحرام حلالا . كما يفعل دائما فقهاء السلاطين اذ يحرمون ثم يحللون ، وقد يحللون ثم يحرمون فيجعلون الناس من أمر الأحكام الشرعية في اضطراب، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

الأمر الثالث ألا يكون تحديد عدد الحجاج لكل دولة أداة من أدوات سياسة أولئك الأمراء في تلك البلاد ، فإذا أرادوا توثيق علاقتهم ببعض البلدان زادوا عدد من يسمح لهم بالحج منها ، وإذا أرادوا - أو أريد لهم - التعبير عن غضبهم عليهم قلصوا العدد الذى يسمح له بالحج ، فهذا والله من جرائم السياسة ، ومما يخالف مصلحة المسلمين ، فإن المصلحة ظاهرة جلية ، أن يكون الحج لله وحده ، لا تعلو كلمة فيه إلا كلمته ، ولا يبتغى فيه إلا وجهه ، ولا تطبق فيه إلا أحكام شريعته ، فهل في شريعة فقهاء السلطان ما يقول إن المسلم في اندونيسيا أو الشيشان أقل درجة من المسلم في الكويت أو في عمان ، فيبخسوا أولئك لحساب هؤلاء . وهل في شريعة هؤلاء أن (المتعاقد) المقيم على أرضهم مسلم من الدرجة الثانية فهو أدنى درجة في الحج من أهل البلاد ، فيمنحون هؤلاء ويحرمون أولئك حين يعطون أهل البلاد الحق

في الحج كل سنة مطلقا من أى قيد ، ويقيدون (المقيم) فلا يحق له الحج إلا كل خمس سنوات ، أى شريعة هذه التى تفسد أمور المسلمين وتمزق ما بينهم • مع أنه ليس في شرعة الإسلام إلا ما يقـــرب ويوحـــد ، أى شريعة هذه التى تجعل تمزيق ما بين المسلمين غاية ، وإفساد ما بينـــهم نظاما ، وإذا كان ثمة مصلحة في تقييد الحج وتحديد عدد الحجاج فـــهى بطرد الحكم تتسق ، وبتعميمه تتحقق ، وإلا فإنكم من حيث تدرون أو لا تدرون تقولون إن أهل البلاد من المؤلفة قلوبهم ، بمثل هذه الرشـــاوى الصغيرة يتقرب إليهم حكامهـــم ، وحاشا لهم أن يكونوا كذلك • فـــهم أصلب بالإيمان عودا ، وأشد في الإسلام يقينا ، وأثبت في الحق دفاعا ، وأعظـــم في سبيل الله بذلا ، فلا تشـــوهوا صورتـــهم ، ولا تلطخـــوا سمعتهم •

كيف السبيل إلى هذا التوحيد في المعاملة • في اجتهادى أن أمور الحج كلها يجب ألا تخضع لدولة ، وألا توكل إلى نظام سياسى ، وإنمـــا يجب إقامة منظمة خاصة لإدارتها على مستوى العالم الإسلامى ، وهذه المنظمة هى التى تضع النظم الملائمة لمنطقة المشاعر المقدسة ، وتحدد ضوابطها وقواعدها ، وتباشر تنفيذها والإشراف عليـــها ، ومـــن بيـــن أخص ما يجب أن تقوم به تحديد عدد الحجاج والمعتمرين طبقا لما هـــو متاح من إمكانيات وما هو سائد من ظروف ، فلا يظل الحج رهينة من يستخدمه في السياسة ، يوظفه ليحقق به أغراضها •

* * *

ومن حوافز السفر السياحة والتنزه ، وله فوائد كثيرة وقد تصحبه بعض المفاسد ، شأنه في هذا شأن كثير من أمور الدنيا ، فلا يكاد يوجد فيها شيئ خالص من مفسدة ، ولو أنك بقيت في بيتك ، وأغلقت عليك بابك ، لم تبرأ من بعض مفاسد العزلة وهى كثيرة ، فلا تظنن - حفظك الله - أن مفاسد السياحة داعية إلى البعد عنها ، وأن بعض ما يقال من أخطائها أو أخطارها ثمرة ضرورية لها فتبادر إلى تجنبها • وأى شيئ الآن في حياة البشر يخلو من خطر ؟ !!

أولى فوائد هذا السفر التعرف إلى الدنيا ، والوقوف على مخلوقاتها وكائناتها ، وحالاتها وأوصافها ، إذ شاءت إرادته سبحانه أن يختص كل بقعة بنوع من المخلوقات لا يوجد في غيرها ، سواء أكانت هذه البقعة برية أم مائية ، ويفسر ذلك علماء علوم الأرض بأنه مظهر من مظاهر التكامل بين الكائنات ، وشكل من أشكال التكيف مع البيئات ، بحيث إذا أخرج الكائن منها لم يستطع مواصلة الحياة في غيرها ، إلا إذا استطاع إعادة تكييف نفسه مع بيئته الجديدة ، وهذا في عالم الحيوان نادر • وفي هذا من الإشارة إلى الحكمة الإلهية ما فيه ؛ إذ اختص الإنسان بمقدرة خاصة على التكيف مع البيئات على اختلافها ، والتعايش مع المناخات على تعددها وتفاوت أحوالها ، ومعايشة الأوساط وإن تنوعت وتضاربت عاداتها ، وهكذا أقدر الله الإنسان على التنقل ، ومنحه القدرة على الانتقال والارتحال بين البيئات والمناخات والأوساط ، وكأنه سبحانه يشير إلى أن أولئك الذين يلزمون بيوتهم لا يبرحون أقرب إلى تلك الكائنات غير الإنسانية شبها ، وأدنى إليها مسلكا ، وبقدر هذا الاقتراب يكون بعده عن المسلك الإنسانى الحق ، لما فيه من تعطيل للقدرة ، وإهدار لما منحه الله من طاقة واستعداد • كما أن تأمل المخلوقات طريق من طرق الهداية ،

ودرب من دروب التبصر ، وسبيل من سبل اليقين ، ومدخل من مداخل الإيمان • فلا يظنّن أحد أن هذا السفر من الإيمان بعيد ، فيجعله من باب الإسراف المذموم ، أو العمل المرجوم ، فإن متعة الناظر تحمل على التدبر فيما يرى ، وبها يزداد المؤمن إيمانا •

الفائدة الثانية من فوائد هذا السفر التبصر في أحوال الناس ، وفقه عاداتهم وأنماط سلوكهم ، وأخلاق الناس تختلف باختلاف الأماكن والأقاليم والبقاع ، وما فيها من حيوانات ونباتات وكائنات ، وما ينتشر بها من تضاريس وتخوم وعلامات ، فالذين يعيشون في الجبال غير الذين يعيشون في السهول ، والذين يقطنون في البوادى يختلفون عن الذين يقيمون في المدن ، والذين يعايشون البحار ليسوا كالذين على مشارف الصحراء أو في أعماقها ، وأولئك الذين تحيط بهم الرمال ليسوا كالذين تحيط بهم المياه • والاختلاف بين أولئك وهؤلاء لا يعنى تفضيل بعضهم على بعض ، ولكن يعنى أن لكل منهم عاداته وسلوكه وقيمه التى تؤكد أن تنوع الخلق هو الأصل ، وأن محاولة صب الناس جميعا في قالب واحد أمر مخالف للطبيعة التى أراد الله لها أن تكون ، ولو شاء ربك لجعل الناس جميعا أمة واحدة ، فأى محاولة في هذا السبيل مصيرها بالضرورة إلى الفشل ، ونهايتها حتما إلى زوال • ولا يتوهمن أحد أن نمطه السلوكى هو النموذج الأمثل الذى يجب التزام الناس به ، وأن تقاليده وعاداته هى المستوى الأرفع الذى لابد أن يتساموا إليه ، فهذا وأيم الله ضرب من سوء الإدراك أقرب إلى فساد العقل • ولا يبلغنّ به الضلال أن يفترض أن الدين يدعو إلى شيئ من ذلك ، فيضيف إلى فساد العقل فساد الدين ، فالدين لا يحمل إنسانا على التخلى عن عاداته وتقاليده ما لم تكن مخالفة لشريعته وهى واضحة جلية • والدين الحق يطلب من الإنسان أن يكون ذاته ، ويغرس فيه

وجوب أن يعرف للآخرين حقوقهم في أن يكونوا أنفسهم ، وأن يترجم سلوكُهم ذواتهم .

الفائدة الثالثة من فوائد هذا الضرب من السفر إدخال البهجة على النفس ، وذلك بإمتاع الحواس على اختلافها ، من مشاهدة واستماع وشم ولمس وتذوق ، فإذا استمتعت كل حاسة أخذت المتعة سبيلها إلى النفس ، إذ خلق الله الحواس لها مدخلا ، فيها تغرس آثارها ، وتزرع انطباعاتها ، فهى للشعور مثيرة ، وللمشاعر منبهة ، وليس استمتاع الحواس بمحرَّم ما لم تكن المتعة بمحرم ، وليست البهجة أمرا كريها أو مرذولا إلا إذا بالغ الإنسان فيها فصرفته عن الحق . وكل شيئ بالمبالغة ممقوت مستكره ، فالذين يحاولون تنغيص هذه المتع يهرفون بما لا يعرفون ، ويفتون فيما لا يعلمون ، وبذلك على قيم الحق يخرجون .

* * *

صاحب السمو .. المطوع

قابلته على شاطئ الباهاما ، حيث السحر يتجسد ويتوقد ، تراه في كل لحظة ، في كل نظرة ، في كل لفتة ، مع كل خطوة ، ثم التقيت به في باريس وكان عائدا من حفل راقص في ملهى الكونكورد ، ثم رأيته في القاهرة ، في جناحه الفاخر في فندقها الضخم على شاطئ النيل ، الجمال كله حوله ، ما كان منه حلالا وما لم يكن . وحين زرته في مدينته في شبه الجزيرة وجدت أمره عجبا ، رأيته مغمض العينين يتحدث ، قال وحوله بعض من طالت لحاهم حتى لا مست بطونهم ،

والذى لا إله إلا هو لقد أكلت حتى بشمت ، حتى إنه لم يعد ثمة طعام أشتهيه ، وشربت حتى ارتويت ، حتى أنه لم يعد ثمة شراب أرتجيه ؛ وتذوقت ما أحببت حتى استوعبت ، حتى إنه لا يوجد على ظهر البسيطة ما أحس تجاهه برغبة ، وإنى لعلى يقين من أن البقاء هنا في رحاب البادية خير من متع الدنيا كلها ، وإنى لأعجب لمن يسافر ليعب من متع قصيرة الأجل بدلا من أن يشتغل بالعلم • قلت في نفسى : هل هو الذى تغير سريعا او تغير به المكان • وحين عقبت باسما : أكرمك الله وأعزك وهدانى وإياك ، ألأن بعض الناس قد أكلوا وجب على غيرهم أن يحسوا بالشبع • نظر إلىّ نظرته المعهودة فأيقنت أنه يذكرنى بالحكمة المأثورة : ليس كل ما يعرف يقال ، وليس كل ما يقال جاء وقته ، وليس كل ما جاء وقته حضر أهله • غفر الله لنا وله •

* * *

وليس هذا شأن صاحبنا وحده ، بل هو شأن كثير من المعاصرين : أفرادا وطوائف وجماعات ، وحكومات ، وأنظمة • ولا أقول شعوبا •

أما الأفراد فإن منهم من تتغير مواقفه ، وتتذبذب اتجاهاته ، وتتضارب مسالكه ، وتكون أقواله معبرة عن كل أحواله ، ناطقة بها ، مصورة لها ، مجسدة إياها ، شاهدا عليها • ومنهم من يكون التضارب جليا بين أقواله وأفعاله ، بين سلوكه وشعاراته ، بين مبادئه ومواقفه ، ومردُ هذا كله - عندى - إلى أحد أمرين : سوء الفهم والإدراك ، أو سوء الخلق والسلوك - وسوء الفهم والإدراك نتاج عدم القدرة على فهم الحقائق حق فهمها ، والقصور في التعرف الصحيح على مكوناتها وخصائصها وأبعادها وعلاقاتها ، فآراؤه - لذلك - تعبير صحيح عن رؤى غير صحيحة ، ومقولات صادقة لمدركات غير

صادقة ، ودلالات واعية لمدلولات غير واعية ، ولذلك يكون صاحبها بها شديد الاقتناع ، بالغ التعصب ، هى عنده الحق الصراح الذى لاتشوبه شائبة من شك ، واليقين المطلق الذى لا تخالطه ذرة من تردد أو تساؤل ، وعلاج هذا في تقديرى لا يكون إلا بالحوار والمناقشة والجدل . ينتقل من مرحلة إلى مرحلة بعد أن يبدأ من اليقين الثابت الذى لا خلاف فيه ، ليرقى إلى ما فيه الاختلاف . ولا ينبغى أن يتصور أحد أن الحوار مع أمثال هؤلاء سهل أو هين ، فإن المدركات لديهم من الثبات والرسوخ والاستقرار بحيث يحتاج نقلها من مرحلة التسليم المطلق إلى مرحلة التأمل العقلى إلى جهد وصبر ودأب ومتابعة . لكن ذلك ليس بمستحيل ؛ إذ إن النماذج الفردية التى من هذا النمط إنما تبنى رؤيتها على اقتناعات ذاتية ، هى في جوهرها رؤى خاصة ، يمكن مناقشتها . وهى لذلك تختلف إلى حد بعيد عن الذى يبنى مقولاته في إطار منظومة تضمه مع غيره ، في شكل جماعة أو طائفة أو حزب أو مذهب . فالكلام مع هؤلاء له ضوابط آخر ، حتى لا يصبح الحوار معهم استنزافا للعقل ، وإهدارا للطاقة ، وتضييعا للزمن .

وسوء الخلق والسلوك قد يكون الباعث عليه الطبع والفطرة ، أو الاكتساب والتربية . ومحور سوء الخلق الطبعى يدور مع الكراهية ، ونوع منها بعينه وهو الحقد . فالحاقد لا تطيعه حواسه أن تجد في الوجود شيئا جميلا ، فإن رأى منه شيئا نفر منه ، وإن سمع عنه سد أذنيه ، وإن شمه مرغما أحس له بغصة ، وإن لمسه عفوا فكأنما لدغته عقرب ، ودون استمتاعه به أو تذوقه له خرط القتاد ، وفساد النفس يفسد خصائص الحواس ، وفساد الحواس دليل فساد النفس . ومثل هذا لا علاج له . فالنيران فيه تستعر ويشتد أوارها ، فإن لم تجد ما تحرقه

أحرقت نفسها ، وليس أمامك في مثل هذه الحـال إلا أن تدعـو الله أن يسلطه على نفسه ، فنفسه به - بإرادته سبحانه - خير كفيل أن تـورده حتفه ، وتنتهى به إلى مستقره من النار ، وبئس القرار .

والحقد - عصمك الله منه - غير الحسد ، وإن كان يجمع بينـهما ما فيهما من كراهية الآخر وبغض ما عليه من نعمة ، بيـد أن الحسـد يدور مع النعمة وجودا وعدما ، فهى سبب الحسد وباعثه ، فإذا زالـت زال ، وإذا تحولت تحول ، مخلفا وراءه في الحاسد شيئا من الشـماتة التى تصحبها الراحة والرضا ، أما الحقد فمحوره شخص المحقود عليـه وليست نعمته ، ولذلك لا يتوقف الحاقد عن كراهية المحقود عليه حتـى لو زالت نعمه ، ولقد كنت أظن وأنا في مقتبل العمر أن الحقد قد ينتـهى بزوال ما في المحقود عليه من نعمة ، فتبين لى عدم صواب ذلك ، ثـم حسبت أنه يزول بزوال شخص المحقود عليه بموته ، وأوقفتنى تجربتى مع الناس أن ذلك ليس صحيحا ، ولقد عرفت من الحاقدين من لا يـزال الحقد يأخذ عليهم جماع أنفسهم ، ويتوهج في قلوبـهم ، وتمتـح منـه مشاعرهم مع أن من يحقدون عليه قد وورى الثرى منذ سـنوات ذات عدد . وهذا دليل على أن الحقد نار تشتعل في صاحبها لا تنفـك منـه مهما عاش ، فهو لا يبرأ منها أبدا . وهذه النار قاتلته لا محالة ، لأنـها لا تخمد إلا إذا خمـدت أنفاسه ، وإنى والذى لا إله إلا هـو لأظنـها مصاحبته إلى عالم الغيب .

ومن الأمثلة البارزة للحقد - كما صورها القرآن الكريم - ما جـاء في قصة يوسف عليه السلام ، فقد بلغ حقد إخوته عليه مبلغا لم يجـدوا معه بدا من قتله ، لم يردعهم ما كان عليه يوسف - وهو أصغرهـم - من ضعف وقلة حيلة ، ولم يحل بينهم وبينه ما كانوا يعرفونه من حـب أبيهم له ، وحرصه عليه . وفي النص القرآنى إشارات واضحة تقطـع

بهذا الحقد وتصوره أبلغ تصوير ، فهم حين همُّوا بتنفيذ ماهمّوا به من القتل لم يشاءوا أن يجهزوا عليه مرة واحدة ، وآثروا أن يتركوه في البئر يعانى من الموت مرات ومرات ، ثم إنهم حين تعرفوا عليه في مصر في نهاية القصة لم يستشعروا أمامه ندما ولم يحسوا تجاهه بمودّة • وهى حكمة الله العلى سبحانه أن يردهم إليه حتى يروه في حال خير من أحوالهم ، يده العليا عليهم ، ثم يقربهم منه لتزداد نيران الحقد في نفوسهم اشتعالا وضراوة وتأججا •

ولعل أبرز مثل للحقد في الأدب المسرحى شخصية (ياجو) في مسرحية (عطيل) لويليام شكسبير ، فقد استطاعت أن تجسد نيران حقد لا يخمد له أوار ، ولا ينطفئ له لهيب •

السبب الثانى من أسباب سوء الخلق والسلوك يعود إلى التربية التى تغرس النفاق ، وتجعله نمطا مألوفا ومسلكا معتادا • وليس شيئ من ذلك في الفطرة ، فلم يخلق الخالق سبحانه الإنسان منافقا كذوبا محتالا ، يدع ما يرى ويعتقد ليُرضى غيره ، رغبة أو رهبة • ولكنها التربية التى تنبت النفاق وترعاه حتى يزهر ويثمر ، تجعله شيئا مألوفا ، وأمرا شائعا معروفا ، ومسلكا يتنافس فيه المتنافسون ، وسبيلا مطروقا يحتشد به السائرون • والمنافق يرى في أعماقه الحق حقا والباطل باطلا ، ولكنه يظن أنه بنفاقه بالغ غايته ، محقق طلبته ، فإذا كان من يرجوه يرى بخلاف رأيه بادر إلى مدح ما إليه مال ، وذم ما عنه انصرف ، متوهما أن ذلك ذكاء وفطنة ، متخيلا أنه سيأتى يوم يكون قادرا فيه على أن يفصح عما في نفسه ، وأن يعبِّر بصدق عن مكنون حسه ، لكن هذا اليوم لا يأتى أبدا ، تلك مشيئة الله له ، لأن الرغبة فيه لا تزول ، والرهبة لا تتوقف ، وهكذا يظل المنافق إلى ما شاء الله يعانى مذلته وهوانه بينه وبين نفسه • وهذه إرادة الخالق

سبحانه في معاقبة هذا النمط من خلقه ، إذ أهدر نعمة الخالق فيه • وضيّع نعم الله عليه • ولله في خلقه شئون •

والمنافق هش ، يحس في نفسه بالضعف ، ويرى في ذاته من المثالب ما يحاول ستره بنفاقه ، فإذا انكشف موقفه الحقيقى تجاه من ينافقه سارع إلى تغييره أو تفسيره ، وكأنه جريمة يجب درؤها ، وخطر ينبغى اتقاؤه ، وهكذا يظل في دائرة لا يخرج منها أبدا ، وهوان لا رجعة فيه قط • ولهذا لا ينافق المنافق إلا من يرى فيه قدرة عليه بالفعل أو بالقوة ، فأما من ليس له عليه قدرة فهو عليه جدُّ شرس • تراه يعامله وكأنه يفترسه ، تعويضا عن هوان نفسه • فإذا رأيت شخصا شديد التطرف لقوى أو لمن تُظَن به القوة ، فاعلم أنه شديد القسوة على الضعيف أو من يتوهم به الضعف ، ولو أن هذا الضعيف أبرز له ما لا يتوقعه من قوة في الرد ، أو صلابة في موقف ، أو عنف في مواجهة ، لارتبك واضطرب ، وخال الأرض تميد تحت أقدامه ، وراح يشكو ما لقى مما لم يتوقع ، مصورا ذلك على أنه ظلم حاق به ، وإساءة متعمدة وجهت إليه ، وما ذلك إلا لأنه كان يرى أن له حقا في العسف بمن دونه قد سلب منه ، وفرصة في افتراس فوتت عليه •

ولقد يكون ضعف المنافق مجرد شعور لا حقيقة له ، ولديه من مقومات القوة ما يستطيع به المواجهة ، ولكنها النفس الخوارة التى تتوهم القدرة في غيرها ، وتتيقن الضعف في ذاتها • وهذا النمط في الرياسات والحكومات شائع شيوعا يوشك أن يصبح القاعدة المطردة التى لا تحتاج إلى تمثيل أو مزيد من بيان • وحسبك أن تتأمل مسالك الرؤساء والزعماء والقادة في عالمنا العربى والإسلامى لتجد الصورة الكاملة والتجسيد الحى للرعب والمذلة والخور والاستكانة والخضوع والهوان تجاه من يظنون بهم القوة من الأعداء الخارجيين ، والعنف

والقسوة والبطش والقهر والإذلال والاستئساد والتعاظم والتنفج تجاه المحكومين المساكين • وفي هذا كلام طويل قد يأتي موضعه إن شاء الله •

وبين النفاق والحقد وشائج قربى تتمثل في أمور : أولها الإحساس العميق بالدونية تجاه الآخر المحقود عليه أو المحسود ، وثانيها الإيمان الكامل بضعف النفس ، وثالثها اليقين المطلق بالعجز عن المواجهة والتصدى ، وهذه كلها كما ترى انفعالات داخل نفس صاحبها لا صلة لها بالحقيقة الواقعة من مقومات للقوة وعناصر للمقدرة ومؤهلات لتحقيق النصر ، فالحاقد والحاسد يحكمهما ما في أنفسها لا ما في عالم الواقع الحى المعاش ، وقد يكون ما في أنفسهما ناشئا عن توهم ، أو ناتجا عن سوء تقدير ، ولكن التحليل الواقعى ليس ممكنا في نفس رسخ فيها الإحساس بالدونية والإيمان بالضعف واليقين بالعجز عن التصدى • فإذا نصح أحد الحاقد أو الحاسد باستثمار عناصر قوته حتى يطهر نفسه من ضعفها ، ويبرئها من سقمها ، ظن بالناصحين الظنون ، وخالهم لإضراره يعملون ، وإياه إلى التهلكة يدفعون •

وكما تتغير مواقف الأفراد تتغير كذلك مواقف الطوائف والجماعات والحكومات والأنظمة ، وإن كانت دوافع التغير وأشكاله مخالفة بصورة أو بأخرى لما يقع للأفراد ، ويمكن إجمال هذه المخالفة في ناحيتين : إحداهما في نطاق التغير الكميّ ، والأخرى في إطار التغيّر الكيفىّ •

أما التغير الكمّيّ فيتمثل في شيوع أسلوب النفاق السياسى الذى يطلق عليه - تأدبا - الكياسة والدبلوماسية ، لكن جوهر النفاق واحد ، فالجبناء دائما يتملقون الأقوياء ، ويلغون مالهم من إرادة إرضاء لهم • والجبن - حفظنا الله منه أفرادا ، أما الجماعات والأحزاب والحكومات

والأنظمة فليس لنا فيها حتى الآن حيلة ؛ لأنها نتـاج القمـع والجـهل المركب - كما يكون سلوكا فرديا يكون مسلكا جماعيا ، فـإذا توهـم الجبان أن خطر القوى منه قريب لم يجد مناصا مـن التلطـف معـه والتودد إليه ، مقدما له من التنازلات ما يسترضيه به ، لكن القوى غالبا قد لا يرضى بغير إذلال المنافق الجبان ، حتى يكون درسا لغيره ممـن قد يتطلع يوما إلى مزاحمته ، والنفاق يغرى القوى بضرب الضعيـف ، فإذا بدرت علامات النفاق من الموافقات الذليلـة شـجعته علـى أن يضرب بقوة إن كان ما زال مترددا ، وكلمـا ازداد المنـافق خنوعـا وخضوعا ومذلة ارتفعت درجة القسوة والشراسة إلـى أقصـى مـدى مستطاع ٠

وأما التغير الكيفى فيتجسد في أن في الصراع دائمـا جـانبين : الحق والقوة ، وفي معظـم حالات الصراع يكون الحق فـي مواجهـة القوة ، وذلك لأن القوة المطلقة معادية بطبيعتها للحق المطلق ، والحـق المطلق غالبا ما يركن أصحابه إليه مغفلين واجبهم فـي اتخـاذ العـدة اللازمة لحمايته ، هذه هى حكمة التاريخ الأولى ، ولا يذهبن بك الظـن إلى أن القوة قادرة على أن تقهر الحق مهما كان جبروتها وما كان عليه الحق من ضعف ، فحكمة التاريخ المتممة أن النصر النهائى للحق مهما طال الصراع وامتد ٠ والقوة لا تملك إلا أن تطيل أمده ، وقد تحقق فيه بعض الانتصارات الجزئية التى لا يمكن مهما كانت أن تحدث تحـولا أساسيا في العلاقة بينها وبين الحق ٠ ومرد ذلك عندى إلـى أن القـوة المطلقة تفقد في بنائها الذاتى مقومات استمرارها ، وتتضمن في داخلـها عوامل انهيارها ، ذلك أن المجتمعات كالأفراد ، ولقد يكون الفرد فـي بعض مراحل حياته شديد القوة شامخ البنيان ، لكن ذلك كله موقـوت ، فإن الزمن به كفيل ، ينقضه حتى يزيله ، وليس معنى هذا أن يسـتكين

أصحاب الحق متوهمين أن النصر لا محالة قادم ، لأنـــهم باســتكانتهم يطيلون من حيث أدركوا أو لم يدركوا أمد الصراع ، ويدفعـــون مــن طاقتهم وإمكانياتهم وحقوق القادمين من أجيالهم ثمنا باهظا حتـــى يتـم حسمه في نهاية الأمر ، ولو أنهم صـــبروا وصدقــوا وصمــدوا فــي المواجهـــة لقللوا من خسائرهم التـــى امتــدت واتصلــت واســتمرت وتعاظمت .

هل يحتاج هذا الكلام إلى دليل ؟ لن أعود بك إلى الـــوراء آلاف السنين ولا حتى مئاتها ، حسبك أن تستعيد ذكرى سنوات قليلـــة خلــت لتتساءل معى : لو أن العرب ثبتوا في معركتهم سنة ٤٨ فإلى أى حـــد كانوا سيخسرون ؟ وهل كانت خسائرهم حينئذ ستتجاوز خسائر معركـــة واحدة من المعارك التى خاضوها من بعد في مصر وســـوريا ولبنـــان وفلسطين ، ولو أنهم صمدوا في معركتهم الحالية على شراستها وعنفـها وضراوتها فكم يخسرون ؟ وهل تتجاوز خسائرهم للحســـم فـــي هـــذه المعركة أكثر من بعض مئات الآلاف - لكنها بالقطع دون الملاييـــن - ثمنا للتحـــرر من الجبن والخـــوف و الضعـــف والاســتكانة والمذلـــة والهوان . وأيهما أفضل : أن نخسر هذه الخسائر اليوم مع ما تمثله من ألم وعذاب لننهى الصراع جذريا أو أن نسوّف ونؤجل وندفـــع الثمـــن مضاعفا ساعة بعد ساعة ويوما إثر يوم ، حتى يأتي اليوم الذى لن تجـد فيه الأجيال الجديدة مفرا من أن تدفع الثمن باهظا ، ولن يكون حينئـــذ أقل من ملايين ذات عدد ، لكن الخطر سيكون قد وصل إلى درجة مـــن الضراوة والوحشية بحيث أصبح يستهدف كل فرد ، ويدمر كل قيمـــة ، ويستنزف كل طاقة ، ولن يكون ثمة مجال لتزييف المواقـــف بأمنيـــات كذاب تتحدث عن الحكمة والتعقل لتغلِّف بـــهما خـــور الإرادة وفقـــدان العزيمة وانسحاق الذات . أليس أى تسويف في ضوء هذا جريمة فـــي

حق الأجيال الجديدة ؟ ألسنا بما نفعل نحمّل هذه الأجيال ثمـــن جريمـــة نرتكبها ووزر إثم نصنعه ؟ يدفعون هذا الثمن من دمائـــهم وقدراتـــهم وطاقاتهم ونهرب نحن من تحمل المسئولية بإطلاق شعارات كواذب عن الحكمة والتعقل ، والحكمة في الحسم ما دام هو السبيل الوحيد ، والتعقل في تحمل الخسائر المحدودة قبل أن تصبح خسائر شاملة ٠ فلا نـــامت أعين الجبناء ٠

* * *

ومن حوافز السفر **الهجرة طلبا للنصرة** ، وهو أن تضطر الظروف المحيطة بقضية ما في بلد ما بعض المناضلين من أجلها إلى هجرة مؤقتة طلبا لنصرة قضيتهم في بلد آخر هو في التحليل العلمي أهل لتحقيق هذه النصرة .

وهذا التحديد يتطلب بحث عدد من المسائل المتصلة به نظرا لما قد يشوبها من خلط واضطراب .

المسألة الأولى تحديد طبيعة القضية موضوع النضال ، فليس كل من يرفع شعارا صاحب قضية . وليس كل من يتكلم عن المبادئ صاحب مبدأ ، وما كل مجموعة توافقت رغبات أفرادها في أمر من الأمور تنظيما مناضلا ، ولا كل جماعة تسعى لنشر أفكار بمقاتلة من أجل الحق والحرية .

والشرط الأول في القضية أن تكون عامة . ليس محورها فردا أو مجموعة من الأفراد ، وليس من شك في أن الفرد مهم جدا لنفسه ، وأنه مهم أيضا لجماعته ، وربما كان مهما كذلك لشعبه ، ولكن هذه الأهمية شيئ والأهمية النضالية شيئ آخر ، ذلك أن أهمية الفرد في النضال مرهونة بمدى قدرته على التفاعل مع غيره في القضية المشتركة ، وهذا التفاعل إنما يكون في وسط ينضجه وينضج به ، ومن هنا يكون البناء التنظيمى لأصحاب القضايا العامة ضرورة وجود وبقاء واستمرار ، ويكون التنظيم وحده هو الذى بيده قرار الاستمرار في أرض المعركة أو الهجرة منها بالنسبة لأعضائه المنتمين إليه ، وليس من حق أى منهم أن يتخذ قرارا فرديا بهجرة قصيرة أو طويلة ، لأن تقدير الظروف الميدانية في النضال يجب أن يكون عملا جماعيا ، نابعا من تقدير صحيح وشامل للقوى المضادة . وهو تقدير قد يتطلب استطلاع آراء الأفراد ، لكن القرار النهائى بتحديد العناصر المهاجرة

والجهات التى تتوجه إليها والأعباء المنوطة بهم فيها يجب أن يكون قرارا تنظيميا ، يخضع للخطط التكتيكية المرحلية في إطار الاستراتيجية العامة الشاملة للتنظيم .

والشرط الثانى أن تكون مبادئ هذه القضية معلنة معروفة للناس ، وللتنظيمات المتعددة في الحياة السياسية والفكرية والثقافية والاقتصادية بصورة خاصة . فلا مجال لاعتبار الداعين إلى مبادئ غامضة أو غير معلنة مناضلين ، لأن النضال حركة تتسم بالحيوية لاستقطاب الجماهير ، وهذا الاستقطاب يقتضى اللجوء إلى الحوار والمناقشة والجدل ، وتحديد المواقف من القضايا العامة التى تعنى الجماهير أو تعانى منها الجماهير ، فإذا لم تكن المبادئ معلنة كان الحوار ضربا من الرجم بالغيب وقفزا في الفراغ .

والشرط الثالث أن تكون هذه المبادئ محددة ومفصلة وقابلة للاختلاف وتعدد وجهات النظر ، لأن المبادئ الغائمة والغامضة وغير المفصلة لا تكون مجال تعدد في الاتجاهات والمواقف ، وهل اختلف أو يختلف أحد في حق البشر في الحرية والعدالة والمساواة ؟ وهل وجدت أو توجد حكومة أو نظام مهما كانت درجة استبداده وقسوته وبشاعته يجرؤ على أن ينكر هذه الحقوق قولا وإن سحلها تطبيقا وفعلا ؟ إنما الخلاف في الوسائل والأدوات ، في التطبيق العملى ، في السياسات والبرامج ، وهى جميعا لا تكون إلا مفصلة ومحددة . كذلك يجب أن تكون هذه المبادئ مما يقبل الاختلاف لأن رفع شعارات مسلّم بها بالضرورة معناه واحد من أمرين : فإما الطنطنة الانتهازية التى لا طائل من ورائها في التحقيق ، وإما التلبيس على الناس بالجمع بين متناقضات تتمثل في مجموعة من المعتقدات المسلم بها متجاورة مع مجموعة أخرى من السياسات غير المسلمة ، بهدف تمرير هذه في

رحاب تلك . وهذا ضرب من التشويش المتعمد الذى تلجأ إليه بعض الحركات الانتهازية قصيرة النظر .

والشرط الرابع أن تكون هذه المبادئ ذات طابع إنسانى عام ، لا فئوى ولا طائفى ، تتصل بالجماهير العريضة وتمس بشكل مباشر حياتها ، وتعكس العلاقات الجدلية في داخل المجتمع حيالها ، ومن المؤكد أن لبعض الفئات والطوائف مطالبها الخاصة التى قد تكون شديدة الحساسية تجاهها . وقد ترى في هذه المطالب حقوقا أساسية لها ، وتؤمن بأن حرمانها منها افتئاتا عليها ، لكن مثل هذه الحقوق - على فرض التسليم بها - تظل في دائرة محدودة لا تمس إلا أصحابها . ومن ثم لا يمكن تعميمها لتصبح قضية إنسانية عامة .

ومقتضى هذا كله أن دعاة العنصرية - مهما كان لهم من ضجيج - ليسوا أهلا لاعتبارهم مناضلين ، لأن العنصرية بطبيعة تكوينها ومقولاتها وأهدافها موقف مضاد للقيم الإنسانية ، مناقض لأبرز مقوماتها ، وهى الحقوق المتساوية والمتكافئة للبشر جميعا ، بغض النظر عن أشكالهم وألوانهم وانتماءاتهم الجنسية والعنصرية والدينية والمذهبية والسياسية .

المسألة الثانية تحديد ظروف المكان أو البلد الذى تتم منه الهجرة المؤقتة . ومن البدهى أن يكون هذا المكان غير ملائم مرحليا لاستمرار بقاء بعض العناصر المناضلة فيه ، مما يضطر معه التنظيم إلى تهجيرها لتحقيق أهداف محددة له . تتمثل في إنقاذ حياتها من ناحية واستمرار فاعلية التنظيم نفسه من ناحية أخرى . وعبارة "عدم الملاءمة مرحليا" لا تتسم بالدقة الكافية ، وذلك هنا مقصود ، لأن ما يواجهه المناضلون تتغير صوره وأبعاده وأساليبه ، والجامع بينها وجود مقاومة شرسة ومتعسفة إلى أقصى حد تواجه المناضلين وتجعل من بقائهم

خطرا على وجودهم من جهة وعلى القضية نفسها من جهة أخرى وعلى التنظيم نفسه من جهة ثالثة ٠

ومعنى هذا أن الهجرة المؤقتة ليست نتاج مجرد التضييق على المناضلين وتقييد حرياتهم ، فإن هذا - وحده - دون محاولات التصفية الجسدية التى قد تصاحبه أسلوب شائع تلجأ إليه السلطة في كثير من البلدان ضد مخالفيها ٠ وعلى التنظيم في هذه الحالة أن يدرس مدى جدية هذه الأخطار على عناصر من ناحية ، وعلى القضية من ناحية ، وعلى التنظيم نفسه آخر الأمر ٠ مراعيا أنه ليس كل خطر على الأفراد خطرا بالضرورة على القضية أو البناء التنظيمى ، بل على العكس من ذلك أحيانا ٠ فقد يكون التهديد بالتصفية الجسدية لبعض العناصر التنظيمية عامل دعم إضافى في البعد التاريخى ٠ بحيث تصبح هذه العناصر - متى صفيت جسديا - بمثابة قيمة مضيئة مضافة إلى التنظيم وقضيته التى يدافع عنها ٠

وليس معنى هذا أن يسلم التنظيم مناضليه ، فمثل هذا الموقف ضرب من الخيانة الصريحة ، وحتى لو وجد التنظيم - في التحليل الأخير - أن بقاء المناضلين دون تهجير مفيد ميدانيا فإن عليه أن يعمل ما وسعه الجهد لحمايتهم من الأخطار عند استهدافهم ، لأن العلاقة جدلية بين الفرد والتنظيم ٠ وإذا كانت حياة الفرد في حياة التنظيم فإن حياة التنظيم في حياة أعضائه ٠ وكرامة التنظيم كلها تكمن في قدرته على المحافظة على كرامة كل عضو فيه ٠

ومن هذا يتبين أنه لا يحكم التنظيم في قراره بالهجرة المؤقتة لبعض عناصره رغبة في مهادنة ، أو تقديم إشارة غزل لبعض القوى المضادة بالتخلى عن بعض السياسات التى لا تعجبها بالتخلى عمن يمثلونها ، لأن مثل هذا الموقف كفيل بأن يفقد التنظيم تاريخيا مصداقيته

النضالية ، وحتى لو كسب به مرحليا فإن الخسارة المؤكدة به حتمية . سواء أمام القوى المضادة التى تغريها دائما التنازلات ، أو أمام مستويات التنظيم الذين يصيبهم الإحباط والاضطراب في تحديد السياسات واعتماد البرامج مع معاناتهم من عدم الاقتناع بها . ومن ثم يصبح مثل هذا الموقف - إذا تكرر - عامل خلخلة في البناء التنظيمي قد يسلم إلى التشرذم فيه ، وقد يؤذن بالانشقاق منه .

من هذا كله يتضح أن الحديث يدور عن هجرة مؤقتة لبعض العناصر في التنظيم ، مع بقاء باقى عناصره وقياداته في الميدان ، ولا مجال في هذا الحال لتصور هجرة شاملة للهيكل التنظيمى بكل مستوياته وعناصره ، والذين يتوهمون إمكان حدوث ذلك واهمون ، لا يعرفون أساسيات النضال الجماهيرى ، لأن أى بناء تنظيمى إنما هو نتاج العوامل الفاعلة في مجتمعه ، ينبت منها ويتطور فيها ، ومن المحال إعادة استنباته من جديد في بيئة مغايرة لبيئته ، إن بقاء التنظيم في بيئته يواجه التحديات والمتغيرات هو الذى يضمن صلابته في مراحل تطوره ، إذ يمنحه الفرصة لتشكيل مواقف متجددة قادرة على استيعاب المتغيرات وتوظيفها لخدمة قضيته ، وليس ممكنا استنبات تنظيم في بيئة مغايرة لإعادة نقله إلى بيئة أخرى ، لأن الخبرات الإنسانية جزء من الركام التنظيمى المتفاعل ، والتحديات التى تواجه المناضلين وأساليبهم في السيطرة عليها لا يمكن عزلها معمليا عن بيئتها وظروفها وعواملها ، ولا يعنى هذا تحريم انتقال التنظيم من موقع إلى موقع في الميدان ، لأن الانتقال في المواقع المختلفة وبينها في الميدان الواحد أثناء المعركة النضالية حق ثابت ، وقد يكون واجبا ، وذلك مرهون بظروف العمل في كل موقع واستثمارها لخدمة القضية والتنظيم والعناصر .

المسألة الثالثة تحديد الجهة التى تتوجه إليها الهجرة المؤقتة ٠

وإذا وضعنا في الاعتبار أن هذه الهجرة مجرد انتقال لبعض المناضلين إلى موقع جديد يتابعون فيه نضالهم في خدمة القضية والتنظيم كان من المسلَّم به أن تكون الهجرة إلى بلد ملائم لهذا النضال ، ولا تتحقق هذه الملاءمة إلا بشروط :

الشرط الأول التكامل الميدانى والتلاحم الجغرافى بين البلد الجديد والقاعدة النضالية الأم ، فلا يجوز الانتقال إلى مواقع أو بلدان بعيدة منفصلة ، لأن مثل هذا الانتقال تشوبه شوائب العزلة وتحدُّ دون فاعليته ، وهو إن خَدم بعض العناصر المهاجرة فإنه لا يستطيع تحقيق الأهداف المرجوة من الهجرة ذاتها ٠ ويجب أن يكون البلد الجديد جزءا من النسيج الجغرافى للميدان ، بحيث يصبح في مرحلة نضالية لاحقة امتدادا تلقائيا له ٠

والشرط الثانى تحقق وجود علاقة عضوية من دم أو عقيدة بين جماهير البلد الجديد وأبناء الميدان الأم ، وبهذا تتاح للعناصر المهاجرة حرية الحركة والمرونة في استخدام الإمكانيات والخبرات المتاحة في البلد الجديد لدعم النضال فيه من خلال كسب الثقة والتعاطف والمساندة والتأييد ، ولذلك لا يجوز لهذه العناصر المهاجرة التطرق إلى الخلافات الداخلية بين أبناء مهجرهم المؤقت ، وليكن موقفهم الواضح والثابت تأكيد نقاط الاتفاق برغم أىّ اختلاف ؛ لأن الهدف الأساسى هو كسب تأييد الجماهير كلها على اختلاف اتجاهاتها ، بحيث تصبح هذه الجماهير سندا قويا للنضال في الميدان الأم ، وهناك تحديان أساسيان في هذا المجال على العناصر المهاجرة مواجهتها : الأول : الاندماج في قضايا المهجر بصورة يتحولون معها تدريجيا - بوعى أو بغير وعى - إلى عملاء لحسابه ، وبذلك يصبحون عمليا عبئا على حركة النضال في

الموقع الأم • والثاني : الانعزال الكامل عن هذه القضايا بحيث يصبحون تلقائيا عبئا على جماهير المهجر ، غير قادرين على معايشة مشكلاتها ، ومشاركتها تطلعاتها تجاهها •

* * *

والهجرة طلبا للنصرة غير السفر طلبا للسلامة وإيثارا للعافية ، وإن كان يجمع بينهما السفر من بلد إلى بلد آخر • والمخالفة بينهما في أمور كثيرة ، منها أن السفر طلبا للسلامة هروب من المواجهة وعجز عن التصدى ، وانتقال إلى موقع يحقق لصاحبه الأمن ويكفل له الراحة والعافية ، فالحركة هدفها النجاة من مخاطر تحيق به في بلده الأم ، ولا اعتبار في هذا القرار لعقيدة ولا لقضية ولا لتنظيم • ثم إن المسافر طلبا للأمن والسلامة يحدد بنفسه البلد الذى يتوجه إليه بناء على اعتبارات شخصية ، فهو يلجأ إلى من يحميه ويجد معه أمنه وسلامته ، ولا يضع في المقام الأول مدى انتفاع القضية أو التنظيم بهذا السفر • بل قد يكون اختياره عبئا على القضية والتنظيم بما يقدمه من دلالات غير مستحبة ، أهمها الهروب عن المواجهة والنكوص عن التحدى ، وبالإضافة إلى هذا وذاك فإن المسافر طلبا للسلامة قد يجد نفسه مضطرا إلى تقديم تنازلات ضد قضيته وتنظيمه إذا كان منتميا ، وضد بلده عند نشوب اختلاف ما بين بلده ومهجره ، وأخيرا فإن الهجرة طلبا للنصرة موقف إيجابى ، فيه استمرار النضال ، وتحكمه اعتباراته وأهدافه ، أما الهروب بحثا عن السلامة فهو موقف سلبى ، الحركة فيه تحكمها المصلحة الشخصية المباشرة ، والاعتبارات الذاتية الواضحة ، وما يصدق على فرد في هذا الإطار قد يصدق على جماعة تؤثر النجاة بنفسها أو ببعض عناصرها •

* * *

وفي الواقع كما في التاريخ نماذج كثيرة لهذين النوعين من السفر بحثا عن السلامة أو طلبا للنصرة ، أما بالنسبة للواقع فيكفى أن أشير إلى الهجرة المؤقتة لقيادة جبهة التحرير الجزائرية في مرحلة احتدام معركة الاستقلال إلى كل من تونس ومصر ، وهو ما كفل للجبهة تأمين الإمدادات الكافية التى حسمت في النهاية المعركة العسكرية والسياسية لإعلان الاستقلال • ومن قبلها الهجرة المؤقتة التى أطلق عليها الزحف العظيم ، التى قام بها الزعيم ما وتسى تونج في الصين ورفاقه ، حين حاصرته القوى المضادة لحركة النضال فاضطر للهجرة من اقليم كيانجسى إلى إقليم يينان على بعد آلاف الكيلو مترات ، وهى الهجرة التى انطلقت تحت شعاره التاريخى : رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة واحدة •

في مقابل هذا بوسعك أن تجد عشرات من الذين هاجروا ويهاجرون هربا بحياتهم إلى أماكن مختلفة من العالم ، ومنهم من يطيب له المقام في مهجره فلا يشغل نفسه بغير حياته وأمنه ، ومنهم من يتوهم أنه يقوم بدور نضالى فيقع أسير القوى المعادية لبلده توظفه ضده وتستخدمه أداة طيعة لتحقيق أهدافها • من هؤلاء ملك كان لاجئا في إيطاليا ، تقدمت به السن وفعل فيه الزمن أفاعيله العجاب ، حين زرته - من قبيل حب الاستطلاع - في قصره في ضاحية من ضواحى روما كان دائم التأفف والضيق من أى محاولة للحديث عن بلده ، هل لأن حديثه عنها ينكأ فيه جراحا لم تندمل ؟ ربما • ولكنى لاحظت أنه لم يبد قط رغبة في رؤية بلده وقومه • بل كان يرفض مقابلة أى منهم ، ولكن هذا الرافض نفذ دون تردد الإرادة السنية لخاقان عصرنا المتصرف في أيامنا ، عندما شحنه في طائرة نقل عسكرية توجهت به إلى عاصمة بلده ليبصم لبعض العملاء ، ظنا منه ومنهم - وبعض الظن إثم -

أن بصمته كفيلة بإسباغ الشرعية على الأراجوز صاحب المتجر الصغير في واشنطن ذى الطرطور المتعدد الألوان ٠

ومن هؤلاء امبراطور أطيح به فى ثورة شعبية عارمة ، فطوّف في أرجاء الأرض بحثا عن مأمن فلم يجد غير القاهرة بعد أن تخلى عنه أسياده وحلفاؤه ، وكان الذى يشغله في فترة إقامته شيئ واحد ، وهو الحصول على كميات كافية من عسل النحل الذى تغذى نحله على زهر البرسيم ، بعد أن قيل له إن فيه شفاءه ٠ ولم يلق بالا مطلقا لما كان العالم كله مشغولا به من مواجهة قومه لقوة البلطجى الأعظم ٠

من جهة أخرى شهدت في مرحلة من حياتى المبكرة بعض أبناء المغرب العربى في القاهرة ، ومن بينهم الحبيب بورقيبة والمهدى بن بركة وأحمد بن بيللا وهوارى بومدين ، ورأيت كيف يمكن للمناضل أن يجعل من هجرته موقعا متقدما دائما لنضاله ، وكيف يستطيع أن يجمع حوله الشباب الذين يؤمنون به وبقضيته لا يشغلهم إلا نجاحها ، ويبذلون مخلصين أقصى ما يستطيعون من أجلها ٠

في التاريخ يكفى أن أشير في عجالة إلى نموذجين بارزين للسفر في عصر النبى صلوات الله عليه : النموذج الأول الهجرة إلى الحبشة ، وهى كما تقدمها القراءة الأولية والتحليل النهائى معا موقف يهدف إلى تهريب عدد من العناصر المسلمة غير القادرة على تحمل تبعات المواجهة في الموقع النضالى الأساسى للدعوة - وهو مكة - ولذلك اختير مكان بعيد لا تربطه بمكة ولا أهلها صلة قرابة من أى نوع ، لا في الدم ولا في العقيدة ولا في المصالح ، مكان تفصله عن موقع الدعوة فواصل طبيعية يصعب في تلك المرحلة التاريخية اجتيازها ولم يكن في وسع القوى المضادة في مكة أن تفرض عليه ضغوطا ليسلم المهاجرين

فيه ، وفي الوقت نفسه لم يقم المهاجرون في مهجرهم بأى جهد مباشر لتأييد الدعوة ومساندتها ، لقد كان هدفهم من الهجرة واضحا تماما ، وهو إنقاذ مجموعة من العناصر غير القادرة على المشاركة في المواجهة في الموقع النضالى الأولى .

والنموذج الثانى الهجرة إلى المدينة ، وهى في التحليل النهائى النموذج الأمثل للهجرة طلب للنصرة ، بدءا من التخطيط والإعداد والتجهيز وانتهاء بالتنفيذ العملى والانتقال الفعلى إلى موقع عملى حاكم ، ووصولا إلى النتائج النهائية لحسم المعركة لصالح الدعوة في المنطقة كلها ، ومن خلالها في العالم بأسره .

* * *

ومن حوافز السفر الارتحال طلبا للعلاج .

وطلب العلاج من المرض واجب وحق ، فلم يخلق الله داء إلا خلق له دواء ، ولا تبادر - هداك الله - إلى استثناء غير الحماقة ، فالموت حفظك الله وأطال في الخير عمرك ليس بداء ، وإن كان نتاج بعضه . وكان قدماء المصريين أول من اهتم بالتطوير العلمى للعلاج بعد أن كانت الشعوب تكل أمره إلى السحرة والمشعوذين . ولقدماء المصريين هؤلاء في التاريخ الطبى صفحات مشرقات ، فأول طبيب معروف تاريخيا هو "إيمحتب" الذى جعله الملك زوسر وزيره ومهندسه . وهناك أطباء كثيرون مشهورون منهم "إيرى" طبيب شغيلة الأهرام و"جوى" رئيس أطباء مصر العليا والسفلى ، وانتشرت المدارس الطبية في المعابد الكبرى في هليوبوليس وغيرها ، وفي أنوب ، وممفيس ، وتانيس ، وبلغ التقدم عندهم حدا كبيرا حين عرفوا التخصص فيه ، ومن هذه التخصصات طب العيون ، وطب الأمعاء ، وطب الأسنان ، وطب النساء ، وطب العقم ، وغيرها . وكانوا أول من ألَّف في الطب ، وفي بردية "إدوين سميث" التى تعد أقدم كتاب جراحة في العالم - وقد كتبها جراح من عصر الأهرام - توجد أوصاف مفصلة لحوالى ٤٨ حالة لإصابات جراحية ، تبدأ من الجمجمة إلى آخر العمود الفقرى ، ولكل حالة منها تشخيص مختصر ومطول وعلاج مناسب . وفي البرديات السبع التى تعود إلى الدولة الحديثة (حوالى سنة ١٨٠٠ ق.م) قدر ضخم من المعلومات الطبية عن الأدوية وبعض العمليات الجراحية الخاصة بالإصابات ، كما يوجد فيها وصف دقيق وتشخيص كامل وعلاج لأمراض الرأس والقلب والصدر والبطن والعيون والأمعاء . ثم إن المصريين القدماء كانوا أول من أنشأ المدارس الطبية ، وأول من استخدم النماذج في التعليم الطبى . ويوجد

في المتحف المصرى في القاهرة تماثيل تمثل شلل الأطفال ، ودرن العمود الفقرى ، والكساح ، وغير ذلك من أمراض • والمصريون القدماء أول من عالج الكسور ، وأول من استعمل الخياطة في علاج الجروح ، وأول من استعمل المراهم ، وأول من عرف المخ وسحاياه وعلاقته بحركة الأطراف ، وأول من استخدم المواد الطبيعية المركبة أدوية وأطلق عليها مصطلحات خاصة ، وقد بلغ عدد المواد التى استخدموها في العلاج ما تجاوز ستمائة مادة •

وكانت المؤلفات الطبية في مصر القديمة الأساس الذى انطلقت منه الترجمة إلى اللغات الأخرى ومنها العربية • وقد استقدم خالد بن يزيد بن معاوية بعض أساتذة مدرسة الإسكندرية لترجمتها ، كما لجأ الخلفاء العباسيون إلى الأطباء السريان والنساطرة ، وطلبوا من المترجمين نقل الكتب الطبية المصرية الأصل وغيرها من اليونانية إلى العربية ، وترجمت ترجمات مباشرة منها كما ترجمت ترجمات غير مباشرة عن طريق لغات وسيطة كالفارسية والسنسكريتية ، وظل الخلفاء العباسيون على هذا النمط من النقل الاختيارى الانتقائى العشوائى حتى أنشئت دار الحكمة في عهد المأمون ، وقد كان من بين مهامها الأساسية ترجمة الأعمال الطبية لأبقراط وجالينوس وديسقوريدس والاسكندر الطرتى وبولس الإيجانيطى ورفوس الأفيسى وإيطس الأميدى وأولبياسيوس • وكانت هذه الترجمات خطوة نحو التأليف المستقل في العربية ، وهو التأليف الذى بدأ بكتاب "فردوس الحكمة" ، ووصل إلى ذروته بمؤلفات الشيخ الرئيس ابن سينا •

وكانت المؤلفات الطبية العربية والمدارس الطبية العربية هى التى أضاءت لأوربا الحديثة سبل العلم في علاج الأمراض • فقد تعلم في البلاد العربية والإسلامية عدد كبير من أطباء الغرب في مراحل

متتابعة، كما أنشأ العرب أول مدرسة لتعليم الطب في أوربا في "بالرمو" بصقلية ، وقد درس فيها عدد كبير من أطباء أوربا ، واهتم الأوربيون بترجمة المؤلفات الطبية من العربية ، وأنشأوا مراكز لترجمة هذه المؤلفات في كل من بالرمو ، ونابولى ، ومونبلييه ، وطليطلة ، وقد قامت هذه المراكز بترجمة عدد ضخم من المؤلفات الطبية العربية ، وكانت هذه الترجمات الأساس الذى انطلقت منه حركة البحث والتعليم والعلاج في الغرب حتى العصر الحديث .

أما ظاهرة السفر طلب للعلاج فحديثة نسبيا ، إذ لم يكن المريض في العهود القديمة يسافر إلى الطبيب بل كان ينتقل إليه مجرد انتقال إذا كان مرضه يسمح له بالحركة والانتقال ، يشخص الداء ويحدد الدواء في مركزه الطبى في المعبد ، أو في داره التى يقيم فيها إلى جواره ، أما إذا كان المرض شديدا لا يسمح له بحركة فإن الطبيب كان هو الذى يذهب إليه ليراه . وكان هذا كله مقصورا بالطبع على المناطق المجاورة لمكان الطبيب ، أما في الأماكن النائية فإن علاج المريض كان يتم غالبا عن طريق المحيطين به من أهل الخبرة . وكانت مقدرته الجسدية على التحمل كفيلة بحسم موقفه مع المرض سلبا أو إيجابيا .

ويمكن اعتبار ظاهرة السفر إلى خارج البلاد طلب للعلاج وليدة العصر الحديث ، ويعود وجودها فيه إلى أسباب ، أولها تطور وسائل السفر والانتقال . بحيث أصبح من الممكن ، بل من الميسور ، أن يسافر المريض المسافات الطوال في وقت قصير ، ودون خوف على صحته أو إضرار بحياته ، بعد أن استجدت وسائل انتقال لم تكن من قبل ، كالطائرات المجهزة ، والسفن السريعة ، وقد يأتى وقت - ولا

أظنه بعيدا - تجدّ فيه وسائل أسرع ، فلا يبعد مريض عن مقصده في أى مدينة في العالم إلا ساعات ، وربما دقائق .

وثانيها التطور السريع للتجهيزات الطبية ، واكتشاف أجهزة حديثة بالغة الدقة في فترات متقاربة ، وهى أجهزة تساعد الطبيب في اكتشاف المرض وأسبابه وتشخيصه تشخيصا دقيقا ، ومن ثم علاجه علاجا ناجعا . وهذه الأجهزة غالية الثمن ، باهظة التكاليف ، تحتاج إلى خبرات فنية عالية لتشغيلها والإشراف على استخدامها . وقد لا يتيسر وجود هذه الأجهزة في بلد المريض ، وإذا وجدت قد لا يوجد المتخصصون الأكفاء القادرون على استخدامها بصورة صحيحة ، المتمرسون بالإفادة منها . ولذلك يؤثر بعض المرضى السفر إلى خارج بلدانهم طلبا للعلاج دون قلق أو خوف . وثالثها ازدياد التخصصات الطبية الدقيقة تفصيلا وتشعيبا وتفريعا . بحيث أصبح التخصص الطبى الواحد يضم تخصصات نوعية متعددة في داخله ، وصار التخصص النوعى بدوره يحتوى على تخصصات فرعية دقيقة ، وبعض هذه التخصصات الفرعية الدقيقة أصبح بدوره من التطور بحيث نشأت في داخلة تخصصات أدق . لقد كانت الجراحة قديما تخصصا واحدا ، فتحول بالتطور إلى عشرات التخصصات ، مثل جراحة القلب ، وجراحة الأوردة والشرايين ، وجراحة المخ والأعصاب ، وجراحة العظام ، وجراحة الكبد ، وجراحة الجهاز الهضمى ، وجراحة الجهاز التنفسى ، وجراحة الجهاز البولى ، وجراحة السرطان ، وغير هذا من التخصصات كثير ، لأن في داخل كل تخصص منها استجدت تخصصات وتشعبت وصار لها بدورها متخصصون . وبعض هذه التخصصات لا يوجد فيها متخصصون في بلادنا ، ومن ثم يمارسها المتخصصون في التخصص الأم ، وبعضها لا يوجد فيه منهم إلا عدد

قليل ، وهكذا يضطر بعض المرضى إلى طلب العلاج خارج هذه البلاد .

* * *

وللسفر طلبا للعلاج في بلادنا طرق متعددة أشهرها ثلاث : أولها أن يسافر المريض على نفقته الخاصة ، ويفترض أن هذا هو الأصل في هذا النوع من السفر ، وثانيها أن يسافر المريض على نفقة الدولة ، هى التى تتكفل بمصروفات علاجه وإقامته هو ومن معه من المرافقين ، ويفترض أن يكون هذا هو الاستثناء ، والثالثة أن تتحمل الدولة قسطا من تكاليف العلاج على أن يتحمل المريض باقى هذه التكاليف ، وكذلك التكاليف الأخرى التى قد يضطر إليها في سفره وإقامته ، وهذا بدوره استثناء ثان من الأصل الأول .

لماذا كان الأول في تقديرنا أصلا وما بعده فروع عنه . لأن الدولة في تقديرنا يجب أن تتكفل بعلاج أبنائها في داخلها على نفقتها . إذ إن العلاج المجانى حق من حقوق الإنسان الأساسية الطبيعية ، وتوفير وسائله وأدواته وتجهيزاته واجب من واجبات الدولة عليها أن تتحمله دون أى تقصير فيه ، ومن ثم فإن من يرغب عنه متطلعا إلى العلاج في الخارج كان عليه أن يتحمل تبعات ذلك ونفقاته ، ولكن الدولة قد تكون مقصرة في استحضار بعض الأجهزة الحديثة ، أو تدريب بعض المتخصصين عليها ، ومن ثم وجب عليها أن تدفع بقدر ما قصرت ، فإما أن تتحمل التكاليف كاملة وإما أن تتحمل جانبا منها .

لكن هذا الذى يفترض شيئ ، والواقع شيئ آخر مختلف :

فالسفر للعلاج أصبح بالنسبة لبعض الناس غطاء يقيهم من المحاكمة على جرائم ارتكبوها ، ووسيلة للهرب من الملاحقات

القضائية ، وصار بالنسبة لآخرين وسيلة للتـــنزه والتســوق ورعايــة المصالح الخاصة • وأعاجيب هذا السفر لا تنقضى ، ومن ثم أصبح من الشائع أن يقال : إن الذين لا يحتاجون إلى علاج يسافرون ، أما الذيــن يحتاجون إليه فعلا فلا يسافرون • لأن الدولة تنفق أموال الشعب علــى من لا يستحقون ، أما الذين يستحقون فإنهم منها محرومون •

* * *

المظلوم

رأيته في بتسبرج ، عاصمة ولايــة بنســلفانيا ، وبــها المركــز الرئيسى لجراحات الكبد في الولايات المتحدة ، وكان يعانى من مــوض مزمــن فيه تبعه تليف ، وقرر الأطباء أنه لا علاج له إلا بزرع كبــد جديد ، وظن أن موقعه في مصر وحالته الصحية الملحة تكفـــلان لــه الحق في العلاج على نفقة الدولة • فقد كان يعمل فـــي الجامعــة منــذ تخرج ، قضى فيها عمره كله ، منذ عين معيدا فور تخرجـــه إلـــى أن وصل إلى قمة السلم الجامعي ، درجة الأستاذية ، وشغل عمادة كليتـــه في جامعته الإقليمية أكثر من مرة ، وكان قد اتخذ قبل وصولـــه إلـــى بتسبرج الإجراءات الضرورية ، وحصل على الموافقـــات اللازمـــة ، وقيل له يمكنك السفر وستحول لك التكاليف لأن العجلة في حالتك خـــير من انتظار إجراءات روتينية قد تطول بعض الوقت ، وسافر • ورأيتــه بعد زيارتى الأولى له بعد نحو أسبوع ، وما زالت دموعه التى ســـالت على خديه تشعلنى غضبا ، وتغرس في قلبى السكين ، لقد قررت الدولة في نهاية المطاف عدم مساعدته في العلاج على نفقتها ، ما زالت كلماته بصوته المتهدج تملأ سمعى : عندهم حق ، لو كنت واقصا في صحيفــة

أو قوادا في وزارة لوافقوا على سفرى ومعى مرافقان على الأقل ، لكنه خطئ منذ البداية ، لأنى واحد ممن يشتغلون بالعلم .

وعاد دون أن يجرى جراحته ، ومات بعد قليل من عودته ، رحمه لله .

هل كان كلامه دقيقا أو كان ما قاله نفثة ملتاع فقد الأمل ؟

* * *

الزنبلك

وقفت على حالته كاملة من خلال موقع شغلته منذ أعوام قصار ، هو عالم في تخصصه ، لكنه ذو شهرة واسعة في غير تخصصه ، يحسن الحديث ، ويجيد الخطابة ، وقد وصل فيهما إلى ذروة عالية ، تستطيع أن تقول عنه إنه واحد من ألمع المتحدثين والخطباء في عصرنا ، تقدم بطلب رسمى إلى الدولة يطلب عمل نظارة طبية جديدة له ، مع إجراءات الفحص المعتاد للعينين ، وتضمن طلب رغبته في أن يتم ذلك في زيورخ بسويسرا ، وعجبت ، قيل يومها إن له فيها حسابات خاصة هى ثمرة مساندته بعض شركات توظيف الأموال ، وإنها تتطلب حضوره شخصيا ، ونصحه بعض الكبار أن يكون سفره على نفقة الدولة ، وظننت أن الأمر هزل ، ولكن ما هى إلا أيام محدودة حتى جاءت الموافقة من أكبر مسئول ، متضمنة إخطارا بتحمل جميع النفقات له ولمرافق - مع أنه في طلبه لم يطلب مرافقا - واستمتع بكرم الدولة وسافر ومعه زوجته ، وحين عاد بعد إجازاته الصيفية الممتعة متنقلا بين زيورخ في رحاب مناظر جبال الألب المثيرة ولوزان وجنيف على

شاطئ بحيرة جنيف كان قد بقى من المبلغ المعتمد بقية ، ونصحه المسئولون الكبار بأنه لا داعى لرد ما تبقى ويمكن إجراء التسوية المالية مع إدخال هذا الذى تبقى في بند النثريات الضرورية •

حفظه الله ، فمازال يستمتع بسامى الرضا •

* * *

البندول

وجامعى آخر ، هو أحد أساتذة صاحبنا هذا ، سار بدوره الشوط من أوله إلى آخره ، وزاد فوقه درجتين : فقد عين نائب رئيس الجامعة الأم لفترة ، ثم وزيرا لبضعة شهور ، وظل الرجل يعانى من مرض في عينيه بلغ به حدا مزعجا ، فهناك شيئ من الضمور في العصب البصرى ، وبدايات إعتام في الشبكية ، وضغط متزايد في قاع العين ، واضطراب في مركز الرؤية ، وغيرها ، وغيرها • قلت لبعض أحبابنا الذين يأمرون وينهون ، الرجل معتكف في منزله ومن حقه أن يعالج في الخارج على نفقة الدولة ، فلم لم يعالج ؟ قالوا : من حقك أن تسأل ، ومن واجبنا أن نقول : لأنه لم يتقدم بطلب هذا العلاج ، قلت : المسألة هينة ، سأكتب الطلب الآن وأوقعه نيابة عنه ، قالوا لا تفعل ، ولما ألححت أجابوا ببراءة : المستشفى الفرنسى في الجامعة جيد ويمكنه أن يقوم بما هو مطلوب منه ، وعجبت ؛ لقد كان المستشفى هو الذى نصحه بالعلاج في الخارج ، ولما دققت عرفت أن الرجل ارتكب خطأ ما حين كان يشغل موقعه الوزارى ، وأنه ليس مرضيا عنه •

* * *

وآخر هذه المجموعة ممثل معروف ، يقول عن نفسه إنه مستور الحال ، لأنه لا يملك إلا بضعة ملايين وأسهما في أكثر من شركة للإنتاج السينمائى ، ومزرعة كبيرة ، وفيللا ، وشاليها في الساحل الشمالى ، وآخر في لسان الوزراء ، وبضع عشرة شقة في مواقع مختلفة من القاهرة الكبرى والإسكندرية وبعض المدن الجديدة ، أصابه أثناء قيامه بدوره في فيلم جديد برد ، نتجت عنه بحة في صوته المتميز ، فنصحه أطباؤه بالراحة بضعة أيام ، لكن العناية السامية أدركته ، وقررت سفره بطائرة خاصة إلى لندن لعرضه على بعض أطبائها ، وإجراء بعض الفحوص فيها ، وانتقل بالطائرة نفسها إلى باريس للتسوق منها ، ثم عاد بعد إجازته بالطائرة ذاتها إلى أرض الوطن بعد أن تأكد أن التشخيص الأولى صحيح ، وتكلفت الرحلة المدفوعة على حساب الدولة بإعلان أن الرعاية السامية تنشر مظلتها على المخلصين لها .

* * *

هل يستطيع أحد أن يعرف الضوابط الحقيقية للسفر طلبا للعلاج في الخارج ؟ وهل هذه الضوابط موجودة فعلا ؟ أنا شخصيا لا أعرف .

* * *

ومن حوافز السفر طلب السلوانِ مما كان ، والتأسى بما يكون ٠

وكلاهما غير السياحة للنزهة ، فالنزهة بحث عن متعة الحس والنفس ، وهى صادرة عن امتداد الرغبة وتوفزها وتجددها ، وقرينة على استيعاب ما بين يديه من متع ، وتطلع إلى مزيد بشكل جديد ٠

أما البحث عن السلوى بالسفر فهو محاولة لنسيان ما كان ، وإشارة إلى ما خلفه في النفس من أحزان ٠ والسلوان والتأسى وإن اختلفا مادة عند أهل اللغة فإن بينهما وشائج وصلات :

ففى كليهما شيئ من عزوف وانصراف ، وقدر من رغبة وإقبال ، العزوف عن ما كان والانصراف عما هو كائن ، والرغبة فيما يكون ، والإقبال على الجديد فيه ٠

ألا يوحى هذا كله بالإسراف فيما كان ، والإمعان فيه إلى درجة استقطاره متعة متعة ، حتى إن تواليها وتكرارها وتعاقبها يخلف في النفس بَرَما بها ، وضيقا منها ، ويدفعها إلى إحساس مَرَضى بألم يتطلب علاجا ، وحسرة تنشد شفاء ، فلا يجد شيئا منها يتوافر فيما هو بين يديه متوافر ، بل على العكس يجد أن ما بين يديه يجدد فيه الحسرة ، ويملؤه بالحزن ، ويفعمه بالأسى ، فلا يكون لمثله سوى السفر وسيلة برء ، وسببا لسلوى ، وعاملا لنسيان ، بالإقبال على ما به التأسى ، والاندماج فيه حتى ينسى ٠

وفي كليهما تواصل واتصال ، فما كان مقدمة لما هو كائن ، وما هو كائن مدخل لما يكون ، وما يكون سبيل إلى ما سيكون ، تتدفق كل متوالية وتتواصل ، من غير توقف أو انقطاع ، ودون تداخل أو انفصال٠ وهذا التدفق الخارجى امتداد تلقائى مصاحب - للتدفق الداخلى ، وتجسيد له ، وتعبير عنه ٠

وهذا الحافز في كليهما قاهر في النفس لا يُقهر ، آمر لا يستطاع له رد ، حاسم لا سبيل فيه إلى تردد ، لا يملك صاحبه له إلا الاستجابة ، لا يستطيع عنها عدولا ، ولا منها منصرفا • يبدو في الظاهر متحكما في أمره ، مالكا إرادته ، مسيطرا على رغباته ، وذلك كله مجرد قشرة خارجية رقيقة لكوامن الشجن تملى عليه ، وسلطان التجربة يتحكم فيه ، وضراوة الرغبة تستبد به •

هل يمكن القول بأن آدم عليه السلام كان أول من ضرب في الأرض ينشد السلوى ويرجو التأسى ، غداة أن أخرج من الجنة مطرودا ؟

قد يرد على هذا التصور اعتراضان : أولهما أن آدم عليه السلام لم يستوعب متع الجنة كلها ، إذ حرم من إحدى متعها ، وهى الشجرة التى دفعته رغبته فيها إلى المخالفة عن أمر ربه فأكل منها • وثانيهما أنه لم يخرج من الجنة بإرادته ، وإنما أخرج منها مضطرا عقوبة له على ما بدر منه من مخالفة •

وعلى كل من الاعتراضين ردود وفي كل منهما أقوال :

أما الأول فمن المؤكد أن آدم عليه السلام قد استوعب بالفعل كل ما في الجنة من متع ، وكانت الشجرة آخر هذه المتع التى استوعبها حين أكل منها • ولقد تختلف أسباب الاستيعاب وغاياته ، فمنها ما يصدر عن رغبة حقيقية مباشرة ومنها ما يصدر عن غير رغبة حقيقية أو رغبة غير مباشرة ، منها ما يصدر عن إغراء الذات للذات للوقوف على الخصائص والصفات ومنها ما ينتج عن إغراء غيرها لها بما يفترضه فيها من تأثيرات وما يدعيه لها من علاقات • واختلاف الأسباب والغايات لا ينفى تحقق الاستيعاب ، بل يؤكد أن آدم عليه

السلام استوعب متع الجنة كلها ، ونال منها حظه بمختلف فصائلها وأنواعها وضروبها وأشكالها ، حتى ما حرم عليه منها ٠

وأما الثاني فمجمل القول فيه أن أى خروج ينشد السلوان هو إخراج ، قد يبدو صادرا عن إرادة ورغبة تنفيذا لما عزمت عليه الذات وما استقر أمرها عليه ، لكن ذلك كله فوق السطح يظهر ، أما ما تحته فإرادة مسلوبة ، ورغبة منهوبة ، وعزيمة مقهورة ، وذات بدَّدها السأم وشتتها الألم وذوبتها الحسرة ، فالقاهر في حقيقته مقهور ، والآمر في الجوهر مأمور ، والسيد عند أهل اليقين ليس إلا عبد ٠

في قصة آدم عليه السلام من هذا الجانب عظات بالغات ، فالرغبة في السلوان ونشدان التأسى مما كان من حرمان مدخل لمتع جديدة تتنوع وتتجدد وتتوالى وتتزايد ، ففضلا عما في الحرمان من المتعة من متعة الاستجابة لأمر الخالق فإن رحمته بعبده تتواصل إذ تجعل الاستجابة للحرمان باب متع لا يحدها زمان أو مكان ٠ وكما كانت متع الجنة بالحرمان مدخلا لمتع الدنيا ، فإن متع الدنيا بالاعتدال باب لمتع الجنة ٠ فالتواصل الفذ قائم بين البداية والنهاية ، نقطة النهاية هى في نفس الوقت - نقطة البدء ، ولحظة الطرد إشعارا بالحرمان هى بالإذعان لحظة تذوق رحمة الكريم المنان ٠

* * *

قابيل حين مضى في الفجاج يبكى أخاه كان يبكى نفسه ، نموذج مختلف لنفس الغاية التى تهفو إلى النسيان وتنشد السلوان وتسعى إلى التأسى ، بيد أن جريمته جمعت جرائم ، جريمة التطلع إلى ما لا يملك حين تطلع إلى من لا يجوز له أن يتطلع إليها ، تلك التى تقدِّر العدالة أن تكون لأخيه زوجة ، ثم جريمة الاستجابة لرغبة عاصفة مدمرة تدعو

إلى التمرد وتمحو العدل ، وتفرض الاضطراب قـــاعدة وتسـعى فــي الخراب هدفا وغاية ، ثم جريمة العمل لتحقيق هذه الرغبة الجامحة مــن غير تأمل في العواقب أو تقدير لنتائجهـــا ، ثم جريمة اللجـــوء إلـــى القتل ، وإزهـــاق النفس المحرمة ليسن بذلك أول ســـنة خبيثـــة علـــى الأرض ، ولتكون سنته منطلقا لجرائم تترى دون انقطاع . تدور كلــها حول تطلع من لا يستحق إلى ما لا يستحق أن يتطلع إليـــه ، وطغيـــان الأنانية وحب التملك . ألهذا كانت نتيجة الجريمتين تختلف ، فجريمـــة الأب ذاتية لم تتجاوزه إلى غيره فأعقبها حرمان محدود موقوت ، أمـــا جريمة الابن فمتواصلة تستمر ، لأنها نالت من الآخر وسفكت دمــــه ، وتشاء الإرادة الإلهية أن تتكرر وتتنوع ، لا تتوقف صورها ولا تنقطـع أساليبها ، حتى يكون العقاب النهائى في يوم عنده معلوم .

الوجه الآخر رأيته هناك ، في بافالو ، قريبا من شلالات نياجرا ، كان قادما من واشنطن متجها إليها ، وكنت قادما من كندا في طريقـــى إليها ، والتقينا ، وتعارفنا ، وأكلنا معا ، وتجولنا في رحاب نيـــاجرا ، حدائق وشلالات ، وعرفت قصته . شاب لطيف لا يتجـــاوز الســابعة والثلاثين في قمة النضج الفكرى لكنه يعانى من حالة من الكآبة متقطعة متفاوتة ، نشأ مع شقيقه الوحيد الذى يكبره بعـــامين فـــي بيــت أبيــه الديبلوماسى في جنيف ، وكان الوالد يحس بحاجة ولديه إلى الانتمـــاء والاستقرار معا ، فقرر أن يقوم إمام مسجد لوزان بتحفيظـــهما القـــرآن خلال إجازتهما من المدرسة الخاصة التى ألحقهما بها فـــي المدينـــة ، وحفظ هو القرآن أما أخوه فقد تعثر فلم يحفظ ، حين انتهيا من المدرسة استكملا دراستهما في أكسفورد ، وحصل هو على درجة الدكتوراه بعـد ذلك من جامعة جورج تاون في واشنطن واشنطن ، أما أخوه فلم يرغب في متابعة الدراسات العليا ، وآثر أن يدخل عالم المال ، فدخله من بابــه

الواسع : تجارة السلاح ، وتعامل فيها وتعاون مع أجهزة المخـــابرات الكبرى ، وحقق بها ، ولها ، ومنها ، ما يريد ، فقد أصبح ملياردير ا لـه طائرته الخاصة ، ومكاتبه المنتشرة في العواصم الكبرى ، وعملاؤه من أولئك الذين تتردد أسماؤهم ومقابلاتهم في نشرات الأخبار ، أمـــا هـو فسار في درب طويل ، بدأه من المقر الدائم للأمم المتحدة في جنيـف ، إلى أن انتهى به في مركز دراسات الشرق الأوسط في الجامعة التـــي تخرج منها •

في الجامعة تعرف بها ، طالبة عربية رقيقة كالنســمة ، أبوهـا ديبلوماسى يمثل بلاده في الأمم المتحدة ، مالت إليه ومال إليها ، اهتمت به واهتم بها ، وقررا أن يكونا عشهما • كان من الطبيعى أن يحضـر أبوه وأخوه ، لكن أخاه برغم حضوره إلى المدينة لــم يحضـر حفـل الخطبة ، إذ حالت دون حضوره شواغل في اللحظة الأخيرة ، وكأنمـا أحب أن يقدم ترضية لهما فاتصل به في اليوم التالى ليدعوه وخطيبتـه إلى عشاء يعقبه حضور حفل موسيقى راقص ، وحـاول صاحبنـا أن يعتذر لكن أخاه صمم ، وآثر أن يستجيب حتى لا يبدأ حياتـه الجديـدة وبينه وبين أخيه شيئ من جفاء • وكان يفتـــرض أن يغـادر أخـوه المدينة بعد الحفل ، لكنه لم يفعل ، وبقى فيها أياما ، دعاهما خلالها إلى الطعام في قاعات خاصة بالفنادق الكبرى عدة مرات ، وأغراهما بالسفر ليقيما في ضيافته في قصره على شاطئ بحيرة جنيف ، تـــردد أخـوه متعللا بأن الوقت غير مناسب ، فقال له في الوقت الذى تـراه مناسـبا ستكون طائرة خاصة تحت تصرفكما • وذهبا ، فتجربة السفر بطـائرة خاصة لا يملك كثير من الناس الإرادة الكافية لرفضها • لقـــد عـاش طفولته وصدر شبابه الباكر في سويسرا ، كما عاش فيها فـــي مطلـع حياته العملية ، لكنه لم يستمتع برؤيتها وتذوق معالمها كما استمتع بـــها

في تلك الأيام العشرة من أواسط مارس في ذلك العام ، إلى أن جاء موعد السفر . قالت له بهدوء : ستسافر وحدك ، أما أنا فسأبقى بعض الوقت هنا . هل كان بوسع صاحبنا أن يفهم ، كيف ، ولدى أخيه نساء من كل صنف ولون وجنس ومستوى ، لكنه يأبى إلا أن يختارها ليضمها إلى قائمة الحريم - حين يحاول مناقشتها تحسم الأمر : لنكن أصدقاء ، هذا أفضل . ويأبى صاحبنا أن يصدق ، لكن الحقيقة لا تترك له وقتا للتأمل أو الدهشة ، وتظل صاحبته فصلا دراسيا كاملا حيث هى في أوربا ، وحين تعود لإكمال دراستها تكون قد أصبحت صاحبة ملايين ، وتقول لمعارفها إن الطريق مفتوح لها على مصراعيه ، لكنها لن تبدأ حياتها العملية إلا بعد أن تحصل على شهادتها الجامعية . وتسجل عنده في المقرر الذى يقوم بتدريسه ، وتحضر محاضراته لتضع عينيها في عينيه ، وتتعقبه بعد المحاضرة لتناقشه في مشكلات بحثها ومراجعها ، ولا تجد حرجا في أن تدعوه صراحة لتناول طعامها . وحين يرفض تبدى دهشتها ، هل يليق بجنتلمان أن يرفض دعوتها ، وحين يقول إنه لا يستطيع أن يشارك أحدا في فراشه ترد بحرارة هو الذى شاركك ، أنت صاحب الحق الأول فيه وهو الدخيل ، لكنك تؤثر الانسحاب تحت وهم قيم كواذب . ويسكت صاحبنا لا يكمل ، هل يستطيع أن يقول إنه في البئر سقط ، هل يستطيع أن يعترف بأنه في لحظة السقوط أدرك مدى ما ارتكب عن جرم في حق نفسه ، هل يستطيع أن ينظر في أعماقه ليرى أن الغواية أكبر من طاقته على الصمود ؟ هل يستطيع أن يقول إنه عرف فعزف ، وتذوّق فعاف ، وراح يمضى في الأرض طولا وعرضا عله ينسى ، لكن هل ينسى الإنسان نفسه ؟ .

* * *

توبة الست

حين لمحتها إلى جوار حمام السباحة فوق سطح السفينة السـياحية التى تجوب شواطئ البحر الأبيض قلت لنفسى : إنها هى ، فلم يكن قـد تغير منها شيئ بالرغم من مرور أكثر من عشر سنوات علـى آخـر مقابلة لنا ، كانت ما زالت نَصفا في كل شيئ ، إلا شيئا واحـدا كـانت تحـرص على أن تستثنيه ، نصفا في السـن ، وفي الطـول ، وفـي اللون ، وفي الحجم ، وفي التعليم ، وفي الشهرة ، الاستثناء الوحيد الذى بلغت فيه الغاية وتوسدت فيه القمة هو خبرتها بالرجال ، وهى خـبرة كان يحلو لها في الزمن القديم أن تحكى بعض مقتطفاتها لى وهى فـي حالة انسجام ، بعد أن أيقنت حبنها أننى أكتفى بـأن أسـمع ، بعـد أن دعتنى إلى طعامها أكثر من مرة فعافته نفسه ، قلـت : لا أسـتطيع أن أشارك ذبابا في طعام ، كانت تقول ضاحكة : هـى حيلـة العـاجز ، أعرفها ، فالذباب الذى تتحدث عنه يملك مالا تملك ، وأشاركها الضحك لأقول : قد يكون هذا صحيحا لكنه مع ذلك يظل ذبابا .

تستطيع أن تقول إن خبرتها بالرجال بدأت قبل العاشرة ، حيـن كانت تحمل لأبيها الصراماتى على رأس درب عجور فور عودتها مـن المدرسة الابتدائية طعام الغداء تعده زوجة أبيها التى لا يفصلها عنها في السن إلا بضع سنوات ، في الطريق تتوقف أمام بقالة عم الحاج بكرى ، يضاحكها وهو يربت بيده المعروقة فوق يدها ويقدم لها حبة النعنـاع ، رويدا رويدا ارتفعت اليد إلى أعلى حتى بلغت عضدها ، ثم شرعت بعد ذلك تزغزعها تحت إبطها لتضحك والعينان الخابيتان من فرط السـعادة تلمعان ، تفتّحت بعد ذلك عيناها على ما يفعل أبوها بعد أن يطفئ النور

طالبا منها أن تنام ، وفي الأتوبيس المتجه إلى السيدة لزيارة خالتـــها ، بدأت تجد متعة حين تشعر بطعم الوخز في مؤخرتها حرارة في فمـــها توشك معها أن تشهق ، مات أبوها فأغرتها خالتها أن تعمل فـــي شـــقة مفروشـــة في نوبار، تعددت خبرتها بتعدد سكانها ، لكنها لم تمـــارس فيها ، وكانت تكتفى بنفسها ، ثم انتقلت بعد ذلك إلى شقة موظف كبير ، وحيد بعد أن ماتت زوجته ، وعلى يديه دخلت عالم الأنوثة مـــن بـــاب فسيح ، لتنتقل بعده بين الشقق والرجال • ولـــتزور مســـاجد الأوليـــاء لتوزع سندوتشات الفول النابت ، داعية بالستر •

وانقطعت مدة عن بيت أبيها ، ولما عادت كان أول مـــن قابلـــها الحاج بكرى ، دهش لتغيرها ، نضجا ، ورواء ، وطافت عيناه بمعـــالم الأنوثة الفتانة الفوارة ، هل أحس بأن لمسات الطفولة لا تـــروى حيـــن عرض عليها الزواج ، ضحكت وقالت له : سأفكر ، تمتم مســـتعجلا ، عقبت وهى تضغط يده في يدها ، عينك زائغة ، قال يقدم وعدا ويقطـــع عهدا : بك أكتفى ، وحين صعدت إلى منزل أبيها وجدت زوجته فـــي أحضان رجلها ، لقد تزوجـــت وجاءت به ليقيم معـــها ، صرخـــت ، ولولت ، ضربت صدرها ووجهها ، شقت بلوزتها حتى ظـــهر حـــامل ثدييها ، تجمع الجيران يهدءونها ، الشقة شقتها وأرملـــة أبيـــها معـــا ، عليهما أن يتفاهما ويتعايشا ، في المساء كان الثلاثة يشربون الشـــاى ، ويعلقون على أحداث المسلسل ، وقررت تأكيدا لحقها أن تنـــام فـــي فراش أبيها ، لكن الثلاثة لم يناموا إلا بعد أن أشرقت الشمس - وحيـــن استيقظت بعد الظهر وجدته بينهما ، وذراعا كل منهما يلتف على وسطه العارى • أيقظتها وطلبت منها أن تملأ الصفيحة حتى تستحم ، وحيـــن عادت كانت قد نالت منه مرة أخرى • ولما قابلت الحاج بكـــرى بعـــد العصر وهى في طريقها لزيارة السيدة فاطمة النبوية أبلغته بموافقتـــها

على الزواج • وكان بالفعل فاتحة زيجاتها • تضحك حين تتحدث عن تجاربها فيه وترى أنه شيئ مختلف تماما ، النادر فيه لا يقدم إلا المتعة ، والشائع فيه يقدم أى شيئ إلا هى ، وقد لا يقدم شيئا على الإطلاق • وأسألها : من أى النوعين كان الحاج بكرى ؟ فتجيب : عجيب أمر هذا الرجل ، كانت قدرته تتجاوز قدرة شباب في عمر أولاده ، وكانت خبرته في الممارسة شيئا لا يصدق - قادر على أن يتفنن في إرواء العطش النهم ، متعته في أن يصل بها إلى الذروة مرات ، لكن القدر عجل به بعد أقل من عام واحد ، وتزوجت بعده سبعة ، ومنحتها زيجاتها الثلاث الأخيرة مالا وفيرا ، مكنها من أن تبدأ مشروعها التجارى الخاص ، وأن تصبح - بحنكتها ودريتها - سيدة أعمال من كل نوع • وحين كنت أعقب : الإسراف في الزواج يطفئ شعلة الجسد • كانت ترد ضاحكة : هذا الكلام يقوله الموكوسون مثلك ، أما الحقيقة فالأمر مختلف ، إذ تزداد الشعلة رواء وبهاء بالارتواء •

تعمدت أن أتبعها إلى مطعم السفينة عند العشاء ، وأن أجلس أمامها مباشرة ، وما أن نظرت إلىّ حتى بادرتها بتحيتى المعهودة لها • أوشكت أن تصرخ كأنما عثرت على كنز ، قالت : رأيتك منذ اليوم الأول لكننى أقنعت نفسى بأنك لست أنت ، لقد تغيرت كثيرا ، قلت دون مجاملة : أما أنت فلم تتغيرى ، اغتصبت ابتسامة ميتة وهى تقول : سبحان الذى لا يتغير ، لكنك كالعهد بك كذاب ، سألتها - ربما لأرد بعض حقى - : أين الثامن ، من جديد اغتصبت ابتسامة أخرى لتقول : بالتأكيد تقصد العاشر ، هل كنت قد فوجئت حقيقة حين سألت : هل بلغوا عشرة ، لفتت وجهها إلى الناحية الأخرى وتمتمت سارحة ، كان الحادى عشر في الطريق لولا ما كان • لم تشأ أن تتكلم ، ولم تكن كعهدى بها ، فلم تضحك ، ولم تداعب من حولها بمداعباتها الغليظة ،

ولم تعلق على ما أمامها تعليقاتها الماجنة ، كانت مغلقة كقفل أصابه الصدأ ، وحاولت مرات أن أفتحه فلم ينفتح ، وجربت كل وسائلى المعهودة فكانت لا تستجيب ، إلى أن سألتها عن ابنتها ، وفوجئت بها تبكى ، البكاء بالنسبة للمرأة شيئ عادى ، أما بالنسبة لها فكان مستحيلا ، فلم تعرف أبدا كيف تبكى ، فكيف بكت ؟! . قلت لنفسى لما سمعت القصة كاملة ، لها أن تبكى ، لكن هل يجدى البكاء .

عرفته لما سعت إلى مكتبه بتوصية صديق مشترك لتطلب مساعدته في تصدير جزء من حصته من الفاكهة إلى منطقة الخليج . وكان يعلم حاجتها إلى إتمام العملية حتى تفى بالتزامات مالية عاجلة ، لكنه كان من الذوق والكياسة بحيث منحها إحساسا بأنه هو الذى يسعى إليها ، وأعطاها قيمة التعاقد قبل أن يتسلم شحنتها ، وكان مع ذلك راقيا ، لطيفا ، وسيما ، أنيقا ، مهذبا ، ابن ناس . ويصغرها بعشر سنوات ، ومع ذلك لم يكن يتكلم معها أو عنها إلا بلقب : الهانم ، وكان اللقب وحده كافيا ليكون المفتاح السحرى لها . وتوثقت علاقتهما حتى أصبحت تأخذ رأيه في تعاقداتها ، ومشروعاتها ، ثم فيمن معها وما حولها ، وأخيرا في حياتها . وأصبح من عادتها أن تمضى ليلة كل فترة في فيللته بالعجمى ، وأخيرا قررت أن تتزوجه ، ولم يجد من جانبه مانعا ، فوافق على زواجها .

سألتها : أين المشكلة ؟ ردت بأسى : سلوى ، إنها ابنتها التى لابد أن توافق على زواجها ، حتى لا تتجدد المشكلات التى قامت بها مع العاشر ، فعرفتها به ، وتوثقت علاقتهم جميعا ، وتعودوا أن يتعشوا معا إذا حضر إلى القاهرة ، أو إذا سافرتا إلى الاسكندرية ، ويقضيان "السهرة" بعد العشاء في فيللته بالعجمى ، ثم يذهب مع ساعات الصباح الأولى إلى شقته في لوران ، قلت : حتى الآن لا مشكلة ، قالت : في

زيارتنا الأخيرة إلى الإسكندرية بعد العشاء انتهزتها فرصة وقلت أحدد موعد عقد القران ، وشاركتنا سلوى ، وكانت في غاية السعادة ، حتى إنها صممت على تعجيله قبل الموعد الذى اقترحته أنا ، ومضت السهرة مترعة بالبهجة ، ثم ذهب ، ونامتا معا ، ولكنها استيقظت بعد مدة قصيرة فلم تجد سلوى إلى جوارها ، ظنت أنها في الحمام ، فخرجت تشرب ، سمعت في الصالة همسا ، وحين أضاءت النور وجدتهما عاريين تماما ، كما ولدا ، شلتها المفاجأة فلم تصرخ ، وانتفض واقفا فشدته البنت قائلة : ولا يهمك ، كمّل ، حين استجمعت قوتها صرخت فيها لم تعبأ بها حتى انتهى ، ونظرت البنت إليها وهى ما زالت ترقد عارية لتقول لها باشمئزاز : نحن على الأقل نحب بعضنا ، أما أنت فمن من المئات الذين عرفتهم كنت تحبين ، وبصقت تجاهها ٠ قلت محاولا تهوين الأمر عليها ، فليذهبا إلى جهنم ٠ هما الخاسران ، قالت والدموع تسيل على خديها ، جهنم في أعماقى ، حتى وأنا مغمضة العينين أراهما ، ليتنى كنت عمياء لا أرى ٠ مازلت أسمع صوتها ، ليتنى كنت صماء لا أسمع ٠

* * *

من حوافز السفر معرفة الطريق :

وهذه المعرفة وسيلة لغاية ، وغايتها المباشرة إعادة استعمال هذا الطريق مرة أخرى ، وباستثناء المرشدين السياحيين الذين يتدربون على طرق بعينها لإرشاد المجموعات السياحية التى تمر بها فإن القائم بهذا النوع من السفر جندى أو تاجر أو مجند لحساب أحد الفريقين : الجيوش أو التجار ، وليس القصد النهائى للفريقين واحدا وإن اتفقا معا في الغاية المباشرة ، أما الجيوش فهدفها النهائى دراسة إمكانية استخدام الطريق في عمل عسكرى ، وأما التجار فغايتهم النهائية جعل الطريق مدخلا لنشاط اقتصادى ، ولأن الهدف النهائى مختلف فإن الملحوظات والاعتبارات التى يهتم بها كل من الفريقين بدورها تختلف . فالجيوش تهتم بتوزيع التجمعات السكانية ومدى كثافتها والطرق الموصلة بينها وإمكانية السيطرة عليها أو تجنبها ، واقتحامها أو عدم مواجهتها ، وتدرس إمكانيات الهجوم عليها والدفاع عنها ودور الطرق في كل احتمال منها . ولقد يسرت وسائل الاستطلاع الحديثة من أقمار صناعية وطائرات تجسس ووسائل تنصت واتصال والإحصاءات والبيانات والخرائط والمعلومات المتصلة بحجم الإنتاج والاستيراد ومعدلات الاستهلاك وأنماطه يسرت هذه الوسائل كلها كثيرا مما كانت تعانيه الجيوش من قبل في الحصول على معلوماتها ، لكن ما زالت الجيوش برغم هذا التطور كله في حاجة إلى العنصر البشرى المدرب للتعرف المباشر والدقيق على الأرض ، والقيام بعمليات متعددة لجمع المعلومات وإرسالها لتحليلها واستخلاص النتائج الضرورية منها ، ومقارنتها بمصادر المعلومات الأخرى ونتائجها . وفي هذا الإطار قد تحتل الطرق المهجورة والمدقات غير الممهدة أهمية تفوق ما للطرق السريعة منها .

وأما التجار فهدفهم دراسة عادات السكان وتقاليدهم في المناسبات المختلفة ومعدلات استهلاكهم من منظور السلعة التى يريدون إدخالها عليهم ، وقد تكون سلعا مشابهة لما يستهلكون ، ومن ثم فإنهم يدرسون مدى إمكان منافستها في السوق والوسائل التى تكفل لها تحقيق النصر في هذه المنافسة ، بتطوير خصائص السلعة أو خفض سعرها أو هما معا ، وقد تكون سلعا بديلة لا يعرفها السوق فيدرسون السبل التي تمكنهم من جعلها جزءا من عادات السكان الاستهلاكية . والطريق في هذا كله يكتسب أهميته من وجود تجمعات سكانية كبيرة عليه ، لأن سرعة وصول السلعة جزء من عناصر القدرة على المنافسة . ولذلك فإن الرائد الذى يرتاد الطريق نحو ذلك يجب أن تكون لديه القدرة على لحظ الجزئيات ، من خلال معايشة كاملة ومتصلة للمستوى الذى تهدف السلعة إليه . ومن المثير للسخرية أن يسافر وفد كبير ليقم أسبوعا في فندق على أعلى مستوى في عاصمة أفريقية يجتمع خلالها بالمسئول التجارى في السفارة هنالك ويرتب له مواعيد مع عدد من المسئولين في تلك الدولة ، في محاولة لفتح سوق جديد للمنتج المصرى ، ثم حين يعود الوفد يرسلون إلى هنالك آلافا من الجلابيب البيضاء التى يلبسها الرجال في منطقة الخليج . وحين ترد السلعة يصرخون من عدم التزام الأفارقة المستوردين .

بين التجار والجيوش مشابهة ، لا لأن الجيوش قد تتاجر ، أو يتاجر بها ، فذلك باب فساد إذا فتح لا يسد ، ويحدث من الخلل ما لا قبل لأمة بتحمله مهما بلغت قوتها واستقرار أمورها ، ولكن لأن التجارة في العصر الحديث صارت معركة حقيقية ، قريبة الشبه بالمعارك العسكرية ، تتطلب ما تتطلبه المعارك العسكرية من استيفاء شامل لكل المعلومات والبيانات واستعداد كامل لكل الاحتمالات ، وتقييم صحيح

لكافة المتغيرات ، ومتابعة دقيقة لجميع المستجدات ، وخطط مفصلة تضع في الاعتبار الإنتاج المحلى وخصائصه ، والعوامل التى تكفل منافسته في سوق الاستهلاك ، وكذلك العوامل المؤثرة في السوق ، بما في ذلك قيمة العملة ومدى استقرارها ، وعلاقتها بالعملات القابلة للتحويل ومدى ثبات قيمتها فيها ، والرصيد الاستراتيجي للاحتياجات الأساسية وإمكانية زيادته وعلاقة السوق بالأسواق المصدرة ، والمنازعات المحلية والإقليمية والدولية المؤثرة عليها بشكل مباشر أو غير مباشر ، وخصائص هذا التأثير .

والعلاقة بين التجارة والجيوش ، أو بتعبير آخر ، الحروب ، علاقة وثيقة في التاريخ القديم والوسيط والحديث ، فلم تكن بعيدة عن حرب البلوبونيز ٤٣١-٤٠٤ ق ٠ م بين إسبرطة وأثينا ، وحرب الثلاثين عاما في أوربا ١٦١٨-١٦٤٨م ، كما كانت بصورة ما وراء حرب الاستقلال الأمريكية ١٧٧٥-١٧٨٢م ، والحرب الأهلية الأمريكية بين الشمال والجنوب ١٨٦١-١٨٦٥م ، وحرب الباسفيك بين شيلى من ناحية وبيرو وبوليفيا من ناحية أخرى ١٨٧٩-١٨٨١ ، وحرب البوير في جنوب أفريقيا ١٨٩٩-١٩٠٢م ، والحرب الروسية اليابانية ١٩٠٤-١٩٠٥م ٠ ولعل أبرز الأمثلة المعبرة عن العلاقة بين التجارة القذرة والحرب ما يطلق عليها حرب الأفيون التى وقعت بين بريطانيا والصين ١٨٣٩-١٨٤٢ التى بدأت عقب أن حظرت الصين استيراد الأفيون بعد أن دمرت ما كان مخزونا منه في كانتون ، فأعلنت بريطانيا الحرب عليها سنة ١٨٣٩م وهزمتها ، وبمقتضى معاهدة نانكين التى وقعت سنة ١٨٤٢م أنهيت الحرب واضطرت الصين أن توافق على فتح موانيها الكبرى في كانتون وشنغهاى وأموى وفوتشاو وتنجبو وأسواقها كلها للتجارة البريطانية القذرة ، كما اضطرت للتنازل عن هونج كونج

لبريطانيا ، وهو التنازل الذى استمر أكثر من قرن ونصف القرن إذ لم تسترد الصين هذا الجزء منها إلاّ منذ بضع سنوات خلت .

والتجارة والحرب وثيقا الصلة في التاريخ العربي والإسلامى أيضا ، فقد كان لنقل التجارة الدولية فيما قبل الإسلام طريقان أساسيان : الأول يمر عبر الخليج وكان تحت سيطرة فارس . والآخر يمر عبر البحر الأحمر وشاطئه العربى وكان لمدة طويلة نسبيا مستقلا ، إلى أن ساعد الروم الأحباش في السيطرة على اليمن حتى يضمنوا سيطرتهم عليه وظل الصراع بين الطريقين ومن يستعملونهما قائما حتى جاء الإسلام وامتدت الفتوح الإسلامية ، وأصبح الطريقان معا تحت سيطرة المسلمين ، فازدهرت التجارة الدولية عبر الطريقين اللذين تكاملا في خدمتها ، حتى اكتشف فاسكو دى جاما طريق رأس الرجاء الصالح فآذن هذا الاكتشاف باضمحلال هذا الطريق ، وكان هذا الاضمحلال نقطة البدء في تحول موازين القوى إقليميا ودوليا .

من التاريخ نتعلم درسين أساسيين .

الأول - أن التجارة أو لنقل الاقتصاد محور الحرب ، منه تبدأ ، وإليه تنتهى ، والقوة العسكرية تتجه إلى حيث توجد المصالح الاقتصادية ، والذين يتوانون في بناء قوتهم العسكرية يُسلمون - شاءوا أو أبوا - مصائرهم إلى أعدائهم .

والثانى - أن الذين يرفعون شعارات التنمية ، والإنتاج والازدهار الاقتصادى ، دون أن يربطوا هذا كله ببناء قوة عسكرية تحميه وتردع الطامعين فيه واهمون ، والأمم لا تبنى بالوهم ، ولا تنهض بالأكاذيب .

الحرب في العلاقات الدولية أشبه بالطلاق في العلاقات الشخصية ، شيئ كريه ومزعج ، لكن الحرب أكثر بغضا ، لأنها لا تخلف وراءها إلا الخواب والدمار والموت ، وأسرع الطرق إليها الضعف ، وانهيار القدرة ، وإيثار الاستسلام ، وهذه كلها قبل غيرها كافية لإغراء الطامعين ، كفيلة بإذكاء رغبتهم في الهيمنة واستنزاف الموارد ، وتحويل البلد إلى سوق استهلاكية للنفايات وحقل تجارب للفئران البشرية .

* * *

قواعد اللعب

اتصل بى متهللا حتى خلته يكاد يقفز من سماعة التليفون يبلغني بأن الجهات المسئولة وافقت على أن تبدأ الخطوة الأولى في حلمه الكبير ، هو واحد من بقايا عصر الأحلام الكبيرة ، يؤمن بأن قدرة هذا البلد على المنافسة لا حدود لها شريطة أن تحسن المجال الذى تتنافس فيه ، وهذا المجال بالنسبة إليه محدد ، بدلا من أن نصدر القطن شعرا نحوله أولا إلى غزل ، فيتضاعف الدخل القومى منه سبع مرات ، ثم نحول في مرحلة ثانية الغزل إلى منسوجات ، فيتضاعف الدخل القومى منه عشر مرات أخرى ، أى أن مليون القنطار - أو نحوها - التى يتم تصديرها سنويا يمكن أن تدر عائد سبعين مليونا ، وفضلا عن ذلك يستوعب المشروع ما بين أربعة إلى خمسة ملايين عامل متنوع المستويات ، بدءا من العامل البسيط شبه الأمى الذى يقف على آله الفرز إلى الخبير في الألكترونيات الذى سيقوم بتصميم المنسوجات بحيث تتناسب مع جميع مستويات الاستهلاك وعاداته في العالم ،

بالإضافة إلى خبراء الإدارة والتسويق والإنتاج والتصدير • وكان يردد دائما : نحن لدينا كنز حقيقى لكننا نبدده لنقع أسرى مشروعات وهمية ليست إلا سرابا •

سألته ما الخطوة الأولى التى وافقوا عليها ؟ قال : إرسال وفد إلى منطقة غرب إفريقيا لدراسة أحوال السوق ، وإمكان فتحها للمنتج المصرى من الملابس الجاهزة • لم تمنعنى سعادته من أن أبدى له تخوفى قائلا : أرجو ألا تكون الخطوة الأولى هى الخطوة الأخيرة ، قال : أنت متشائم ، ألم تسمع الشعارات صادرة من أعلى المستويات ، قلت له : حسبك أنها شعارات • وانتظرت أخباره ، ولكنه لم يتصل بى ، وقابلته في النادى بعد شهر فسألته : ألم تسافروا بعد ؟ فقال : بل سافرنا وعدنا ، استغربت ، كيف يمكن دراسة أحوال السوق لمنتج جديد في عشر دول متعددة العرقيات والأديان والعملات والبلدان والعادات والطرق في فترة الشهر ، فقال ، لم نمكث في الزيارة إلا عشرة أيام ، قضينا خمسة منها في باريس في رحلة الذهاب ، ويومين في رحلة العودة • صمتَ وقد انتابتنى الدهشة ، صمت بدوره ورفع الصحيفة إلى وجهه حتى لا أرى في عينيه الدموع •

* * *

فتح مخك

قابلته لأول مرة في معرضه في دمياط ، ولما أبديت له بعض الملحوظات عن حجرة المكتب التى وقع عليها اختيارى أبدى استعداده لتنفيذ ما أريد في خلال ساعات ، واصطحبنى معه ليرينى إمكانيات

ورشة الموبيليا الخاصة به • وكيف أن عماله المتمرسين ينفذون أعمالا فنية ذات مستوى رفيع • كان شديد الحماس لعمله ، يحلم بأن يتمكن من غزو الأسواق الخارجية بصادرات غير تقليدية • مرددا أن الموبيليا قادرة على أن تزرع الحب والتقدير والإعجاب ، لأنها هى التى تعايش الناس في مختلف أحوالهم ، فإذا ارتاحوا لها اعتزوا بها ، وامتد الاعتزاز منها إلى صانعها • وكان يأمل أن يكون هو الصانع المصرى الذى يحظى بهذا الاعتزاز على مستوى الأسواق الخارجية • لما قابلته في المرة الثانية كنت في مطعم في فندق على شاطئ البسفور ، أشغل نفسى حتى يأتى الطعام بمشاهدة المنظر الساحر من خلف الزجاج: المياه البالغة الزرقة تمتد حتى الأفق وتتداخل بلون السماء المرصعة بسحابات شفيفة وكأنها سفن متعددة الأشكال ، والسفن الصغيرة تتناثر فوق سطح الماء كأنها النجوم ، حين سمعت خليطا من كلمات عربية وإنجليزية وتركية ، التفت فوجدته يحاسب الجرسون ، وكانت مفاجأة سعدنا بها ، كان عائدا من موسكو بعد أن أبرم عقدا لتصدير أثاث بمبلغ يعادل خمسة ملايين دولار ، وكان إحساسه بأنه بهذا العقد بدأ يغزو العالم ، سألته وهل يحقق لك العقد فائض ربح مناسبا ، قهقه حتى دمعت عيناه وهو يقول : ولا مليم ، وتابع مفسرا : لن أربح في هذه الصفقة ، إنها البداية وسأكتفى فيها بتغطية التكاليف ، لست أنتظر أى مكسب منها ، مكسبى الحقيقى في فتح السوق ، وبعد ذلك سيأتى الربح وفيرا دون سعى منى • حين أقبل عليه الجرسون يبلغه بأن هناك من تنتظره في الاستعلامات عقبت ضاحكا : أنت لا تضيع وقتك ، فرد جادا : لا تسيئ بى الظن ، إنها مرشدة سياحية ستصحبنى إلى بعض مصانع الأثاث ، وسكت لحظات ثم أضاف : وأنا في طريقى إلى موسكو زرت مصانع الأثاث في إيطاليا ، وقررت أن تكون عودتى عن

طريق تركيا ، البلدان أكبر بلاد المنطقة إنتاجا للأثاث ، إذا أردنـــا أن ننافس وجب علينا أن نتعلم • قلت وقد أسعدتنى الكلمات : ترى هل من الممكن فعلا أن ننافس في هذه الأسواق ؟ أجاب بثقة : الجودة والدقـــة يمكن أن يتوافرا في أى مصنع للأثاث وفي أى قطعة ، لكن لدينـــا مـــا ليس لدى الآخرين ، لدينا القدرة على الإبداع المتكامل في إنتاج القطعـة لتؤدى وظيفتها وتمنح من يستعملها في نفس الوقت الإحساس بالمتعـة ، طلبت منه أن يوضح فقال بإيجاز : الوظيفة العملية لا تحول دون وجود عناصر جمالية ، البشر جميعا متساوون في عشقهم للجمال ، والجـودة والدقة وسلاسة الاستعمال والمقدرة على التناسب مع الفراغات المتاحـة يجب أن تضاف إليها لمسات جمالية ترتبط بها الحواس ، بذلك توجـــد الصلة الخاصة بين الشيئ وصاحبه ، وتركنى لينطلق •

رأيت بعد ذلك اسمه يتردد في بعـــض الصحـــف فـــي شـــكاوى صارخة لكبار المسئولين ، أدركت أنه سقط فـــي جـــب البيروقراطيـــة المصرية العريقة ، ذات التقاليد الراسخة ، فالتصدير يحتـــاج إلـــى إذن خاص ، والإذن الخاص يحتاج إلى ضمانـــات خاصـــة ، والضمانـــات الخاصة تحتاج إلى علاقات خاصـــة ، والعلاقات الخاصة تحتاج إلـــى ثمن خاص ، وليس صاحبنا من الخـــواص ولا ممن يملكون أن يدفعـوا الثمن •

* * *

ومن حوافز السفر : اختبار الصديق .

الإنسان حيوان اجتماعى بالضرورة ، هذه فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لابد أن يعيش في جماعة ، فيها يتفاعل ، ومن خلالها يكتسب خبرته ، ومنها ينقل تجاربه ، ووسطها يتعلم حكمته ويصفو معينها : كيف يتعايش برغم اختلاف المصالح ، ويتعامل عند تضارب الاتجاهات ، ويسلك لدى استشعار المخاطر . الجينات الوراثية لا تنقل تجارب ولا خبرات ولا تحمل معلومات ولا معارف ، ولكنها تمنح المقدرة على التعامل مع كل ذلك ، والمقدرة إذا استخدمت استخداما صحيحا أثمرت ما يرجى منها وبها ، وأما إذا لم تستثمر أو استثمرت استثمارا غير صحيح فإنها لا تحقق النتائج المطلوبة ، بل على العكس من ذلك قد تنتج ما ليس بمطلوب . الوسط الاجتماعى هو المعلم الأول للكائن البشرى ، وهو المدرب الأساسى له . والتعليم الذى يقدمه لا يتمثل في معلومات ومعارف وعلوم وقضايا كلية ونظريات أساسية ، وإنما يتم عن طريق المسالك المتكررة والمتنوعة إزاء المواقف والأحداث الجزئية ، يستخلص منها الرؤية ويستقطر منها الدلالة ويحدد بها الاتجاه .

ليس المجتمع المعلم المدرب كيانا هلاميا غير محدد ، ولابناء كليا أصم غير قابل للاختراق ، إنه في حقيقته الأفراد الذين يعايشهم الإنسان ويتواصل معهم ويحتك بهم فيتفاعل ويأخذ ويعطى ، بدءا من الأم الحاضن الأول لبذرة الفرد في المجتمع والمجتمع في الفرد ، ، هى التى تمنحه ذاته وتهبه خصائصه وتنمى ميوله وتعزز أو تعدل من رغباته وتشذب سلوكه وتهذب علاقاته وتصقل ملكاته ، ثم تتسع دائرة المجتمع لتضم باقى أعضاء الأسرة الصغيرة . فالجماعات القريبة ، فالمجتمعات ذات الصلة ، وتمضى في اتساعها في دوائر متعاقبة متداخلة متواصلة

في أعماق الإنسان حتى تشمل الإطارات الأكبر من المنطقة والدولة والإقليم والعقيدة ، وقد تتناهى في اتساعاتها بالنسبة للبعض حتى تتناول العالم كله : ماضيه وحاضره ، وربما أيضا مستقبله .

وفي هذه العلاقات المتعددة يمكن التمييز بين نمطين واضحين ، قد ينتج منهما ثالث وإن كان ذلك نادرا ، النمط الأول علاقات فرضتها الطبيعة ، فهى علاقات اضطرارية ، لا يملك الإنسان مهما كانت آراؤه ومعتقداته إنكارها ، وإن كان في بعض الأحيان يتنكر لها . وهى العلاقات التى تنتج عن القرابات التى أشرنا إليها ، والصلات التى تنتج عنها . فلا مجال لفرد مهما بلغت جرأته على الحقائق أن ينكر علاقة أبوة أو بنوة أو أخوة أو جوار أو تماثل في الجنس أو المذهب أو العقيدة . لكن بوسعه أن يرفض أن تجعله العلاقات التى من هذا النوع يدفع لها ثمنا من مشاعر أو مواقف ، والنمط الثانى علاقات اختيارية منتقاة ، لم تفرض على الإنسان من الخارج بل نبعت من الداخل ، ليست قيدا على الإرادة . وإنما تعبير عنها ، وأهم أشكال هذا النمط من العلاقات الصداقة ، فهى الاختيار المحورى للكائن الإنسانى ، هى التعبير الجوهرى عن إرادته المطلقة ، هى أساس التمييز والتميز والانفراد ، بين البشر ، فليس في وسع قطعان الحيوانات وأسراب الطيور أن تعرف الصداقة وإن عرفت مستويات من علاقات القرابة ، أما الصداقة فموصولة بالإنسان وحده نشأة وامتدادا .

الصداقة انتقاء واختيار وإرادة ، لكن الإنسان قد يكون في حالة اغتراب يحس فيها بحاجته إلى صديق ، وقد يسيئ الاختيار ، فلا يكتشف سوء اختياره إلا بالتجربة تلو التجربة ، لأنه في كثير من الأحيان يوهم نفسه بأن لمن اختاره مندوحة فتتشكك نفسه في نتائج

تجاربه حتى تأتى إلى الحاسمة ، أو القاصمة ، التى لا مجال معها لشك أو تردد .

وإذا صادفت الصداقة موقعها تمكنت من نفس صاحبها فأصبحت أوثق وأقوى وأمتن وأعمق من أى علاقة سواها ، تتجاوز في قوتها وعمقها جميع الروابط الأخرى على اختلاف أنماطها ، ومسالك الصديق في هذه الحالة تتعدد ، فمنه نوع تعميه الصداقة وتصمُه ، فلا يرى إلا ما يرى صديقه ولا يسمع إلا صوته ولا يتحدث إلا بلسانه ، وهو في كل ذلك صادق صدقا بينا لامراء فيه لأن نفسه قد صاغتها الصداقة وصبتها في قالبها وأخلصتها لها ، فكأنهما صارا كيانا واحدا وإرادة واحدة ورؤية واحدة ، وهذا الضرب من الصداقة لانضج فيه فهو غير مجد لكليهما ، لأن صاحب الشخصية الطاغية لم يفد بالصداقة غير صورة منه ، والإنسان لا يقوى بصوره وإن تعددت ولا يفيد منها وإن كثرت ، كما أن صاحب الشخصية الذائبة لم يزد بصداقته غير استلاب إرادته ، وزوال ذاته ، وانمحاء شخصيته فليس هو نفسه ، وليس هو صديقه ، فالضياع فيه متحقق مهما تمكنت منه الظنون والأوهام . ومنه نوع تتمثل فيه الصداقة الناضجة ، إذ ترى في الصديق نفسك على حقيقتها ، في حالات قوتها وضعفها ، فرحها وحزنها ، رخائها وشدتها ، يقف معك يساندك ويعضدك ، يبادر إلى دعمك دون أن تطلب ويسعى في خيرك من وراء ظهرك ، تجده وقت حاجتك إليه ، وتفتقده عنه حاجته إليك . ليس صورة منك فتمله ولكنه ليس نقيضا لك فتنأى عنه ، يَصدقك ويُصدّقك ، يلومك ويدفع عنك ، تجد معه صلابة الشجاعة ، وإلى جواره منعة الكثرة ، وعنده صدق المشورة ، يبصّرك بالعاقبة ويبادر إلى درء المخاطر عنك ، ويوضح لك الاحتمالات من

غير أن يزيفها خوفا عليك • يمنحك الإحساس بصفاء النفس والدنيا برغم كل ما قد يكون من غيوم ومصاعب •

في هذا الصديق الصدوق صفات تجتمع ، أهمها : الحب والإخلاص ، والصدق والأمانة ، والحزم والرصانة ، والشجاعة والحكمة ، والتجربة والإيثار • وباجتماع هذه الصفات تكتمل الفضائل التى يسعى إليها الإنسان الكامل ، ينشدها في نفسه ويرجوها فيمن يحب ، وليست صفة منها بالتى تغنى عن غيرها ، وإن بدا ذلك من ظاهره أمرها ، فالحب والإخلاص لا يغنى أى منهما عن الآخر ، إذ إن الحب إحساس والإخلاص ثمرته ، وقد تحول ظروف دون اكتمال الثمرة ونضجها ، وكذلك الأمر في باقى ما ذكرته لك من صفات • وقد يبدو للمتعجل أن الحزم هو الشجاعة ، وأن الحكمة هى التجربة ، وأن الرصانة ليست منهما ببعيدة • وليس ذلك صحيحا ، فبينها من الفروق ما يجعل كلا منها بناء متميزا في مكوناته وخصائصه وآثاره في العلاقات وتوجيهه للمسالك •

ولأن الناس يختلفون في احتياجاتهم ودوافعهم وأهدافهم من تكوين علاقاتهم فإنهم ليسوا سواء في تحرى اختيار صداقاتهم على هذا النحو الأمثل ، فهذا مستوى لا يسعى إليه إلا من ينشد الكمال ويرجو السمو ويطلب الحقيقة ، ولذلك كان من دونهم من الناس يرضون بمن توجد فيه بعض الصفات دون بعض ، والصفات التى يهتم بها هؤلاء هى التى تلبى عندهم إحساسا بنقصهم فيها وحاجتهم إليها ، وهكذا يكتفى الواحد منهم من الصديق بما يريده فيه ، مهملا ما يتصور أنه ليس في حاجة إليه • وهذا دليل على قصور في فهم الصداقة حق فهمها عند طرفيها • والحد الأدنى الذى لا سبيل إلى صداقة بدونه صفات ثلاث ،

هى الحب والإخلاص والصدق • فليس صديقا من افتقد واحدة منها مهما كان ما يتسم به من خلائق •

هذا الكلام كله يصدق على مستوى الأفراد ، أما الجماعات والطوائف والدول والأمم والشعوب والعقائد فالمسألة فيها تختلف ، فليس بينها صداقات ولاعداوات ، إنما الذى يوجد بينها روابط أخر تجمعها كلمة "المصالح" ، وهذه المصالح تقتضى التوازن في العلاقات بين الطرفين أو الأطراف ، والذين يتحدثون عن علاقات صداقة بين الدول والأمم والشعوب إما ضالون أو مضللون ، وكذلك الأمر حينما يكتب بعضهم عن صداقات بين الشعوب لوجود صداقات بين الحكام ، وهؤلاء يبلغ بهم قصور التفكير توهم أن الشعب كله قد تم اختزاله في حاكمه ، وأن الحاكم قد صار شعبه بكامله ، وأن العلاقات الفردية التى يمكن أن تربطه بغيره من الحكام بمثابة إطار يجمع الشعبين أو الدولتين • ومثل هذا الكلام ضرب من التهريج والشعوذة ، فليس الحاكم شعبه وإن عبّر في بعض المراحل عنه • وليس الشعب حاكمه وإن أحسن اختياره ، ولا يحق لحاكم مهما ادعى تمثيله لشعبه أن يرى أنه وشعبه كيان واحد ، ومثل هذا الموقف هدفه تزييف إرادة الشعب أو الأمة أو الدولة ، وإضفاء الشرعية على ما ليس شرعيا من المصالح الشخصية ، والتمويه بالدفاع عما لا يمكن الدفاع عنه من مواقف زائفة • وإذا كانت المصالح هى التى تجمع فهى أيضا التى تفرق ، وليس من حق حاكم أن يفرط في مصلحة الشعب باسم صداقة يراها أو من أجل علاقة خاصة يحافظ عليها • ولذلك فإننى من الذين يؤمنون بأنه ليس من حق الحاكم - متى كان حاكما - أن تكون له مصالح خاصة من أى نوع ، لا مع ولا ضد ، لا في الداخل ولا في الخارج ، كيف السبيل إلى ذلك ، الأمر هين ، بأن تكفل الدولة أو الشعب له كل

احتياجاته طوال حياته في المستوى الذى يليق به ، شريطة ألا يكون لـه حق التملك قط • فالملكية الخاصة للحاكم وآله هي السـبب الأول فـي فساد أمره وأمر الدولة معه ، وإهدار مصالح الشعب والأمة •

ثمة مسألة أخيرة جديرة بالنظر والتدبر ، تـدور حـول طبيعـة المصالح التى يمكن أن تجمع أو تفرق بين الدول والأمـم والشـعوب ، ومن المؤكد أنها لا يمكن أن تكون مصالح فئة خاصـة ، ولا جماعـة محددة ، ولا طائفة معينة ، وإنما هى المصالح العليا للأمة التى تتسـم بالثبات والاستقرار ، تلك التى حددتها دروس التاريخ وأكدتها تجاربه ، وهى التى تسمى بالأمن القومى ، فلا مصلحة لأمة فـي غـير أمنـها القومى ، ولا مصلحة لأمة في موقف يهمل هذا الأمن أو يتجاهله مـهما كانت المغريات • وفي نقاط التحول التاريخى الحاسمة تصبح الحاجـة إلى التمسك بالأمن القومى أكثر إلحاحا وأشد ضرورة ، لأن المخـاطر الواردة آنئذ قد تثمر بإهماله انتكاسات لا حدود لتداعياتها • وعلى الأمة أن تعلن بوضوح في هذه اللحظات موقفها ، وأن تحشد لـها قدرتـها ، وأن يكون مؤكدا لدى كل من يعنيهم الأمر أنها على استعداد لأن تدفـع ثمن مصالحها التى هى أمنها القومى مهما كان هذا الثمن باهظا •

* * *

وسائل اختبار الصديق تتعدد ، فـهو يختـبر بـالمنح والمنـع ، وبالعسر واليسر ، وبالاستغناء عنه والحاجة إليه ، وبـالاقتراب منـه والبعد عنه ، ولكن تظل الصحبة في السفر مـن أبـرز وسـائل هـذه الاختبار إن لم تكن أبرزها ، ومن أصدقها دلالة إن لم تكن أصدقـها ، ومن أعمقها كشفا إن لم تكن أعمقها • وإذا كانت المتاعب والمصـاعب في الماضى قادرة على اختراق الأعماق وكشف الحجب التى لا سـبيل إلى التعرف إلى ما وراءها إلا بالمواقف في المسالك ، حيـن كـان

الناس يضربون في الأرض أياما وليالى ، وربما شهورا ، متعرضين للأخطار متوقعين المكاره تحدق بهم من حيث لا يعلمون ، وتفاجئهم من حيث لا يتوقعون ، فإن في عصرنا من متاعب السفر ومصاعبه ما يماثل ما كان إن لم يزد عليه ، ومن ذلك اختلاف نظم الدخول والخروج والإقامة ، وتعدد طرائق البيع والشراء والإجارة ، وتفاوت الأسعار في السلع من مكان إلى مكان ، ومن موقع إلى موقع ، ومن بلد إلى بلد ، ومن إقليم إلى إقليم ، وتضارب نظم البنوك والجمارك في الموقف من العملات سماحا ومنعا وبيعا وشراء ، وما يترتب على هذا كله من عواقب قد لا تحمد ، ومتاعب قد لا تحتمل ، ومصاعب قد تؤدى إلى التهلكة .

* * *

رأيت في حياتى نماذج من الصداقات متفاوتة ، منها ما استمر واستقر ، ومنها ما استمر لم يستقر ، ومنها ما انقطع فلا هو استقر ولا هو استمر ، والذى استمر مستقرا جد نادر ، وفيه ملحظ أساسى ، أنه وفقا لمقاييس الصداقة الناضجة غير مكتمل ، ويصدق عليه قول الشاعر القديم .

إذا كنت في كل الأمور معاتبا صديقك لم تلق الذى لا تعاتبه

فهى صداقات – في أحيان كثيرة – على دَخَل ، ومن عجيب أمرها أن أطرافها يعرفون حقيقتها ، ولكنهم بها راضون، هل ما يفعلونه نوع من الاستسلام للأمر الواقع بتقبل الحد الأدنى المتاح بعد أن عزت القيم وندر وجودها . فهو تعليل للنفس بالممكن بعد أن أصبح المثل الكامل غير ممكن . أو هو نوع من التظاهر الكذوب أمام النفس وأمام الناس ، وفائدته أمام النفس أنه يمنحها تقديرا للذات أعمق ، ورضا عنها أكبر

وأوثق ، وإحساسا بالأفضلية أشد ، فالصداقة عندئذ تبدأ من الذات لتنتهى إليها ، تدور في رحابها ولا تنشد إلا إياها ، وأما فائدته أمام الناس فتتمثل في أنه يظهر أمامهم في صورة من يمنح من نفسه ، ويعطى من مشاعره ، ويهب من كيانه ، دون أن ينتظر جزاء أو يتوقع شكورا ، فيستلب منهم ما لا يستحق من تقدير وإعجاب ، ومكانة وإعزاز .

ليس معنى هذا أن الصداقة الناضجة لم يعد لها وجود ، فهى بحمد الله علاقة قائمة بين الصفوة ، وستظل كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، مهما بدا من تغيرات الزمن والناس والمصالح ، ولى شخصيا صداقات منّ الله سبحانه بها على ، لكنى لا أتحدث عنها رغبة عن الحديث عن النفس ، وحسبى أن أقدم في هذا الشأن نموذجين بارزين ، أولهما في التاريخ الحديث ، وثانيهما - وهو في الحقيقة الأعظم والأروع والأنضج - في التاريخ الإسلامى والإنسانى كله . النموذج الأول للصداقة الناضجة ما كان بين الأستاذ جمال الدين الأفغانى والشيخ الإمام محمد عبده ، فهما مع اختلافهما في التكوين والتفكير والمنهج التقيا في صداقة بلغت من النضج والاكتمال مبلغا يندر أن نجد له نظيرا ! ، جمعت بين الأفغانى الثورى المؤمن بالعنف أسلوبا لتغيير المجتمع والدولة وإعادة البناء الشامل طبقا لمنهجه في بناء الكوادر وتعميق عقيدتها وشحذ إرادتها ودفعها إلى العمل الثورى الفورى ، ومحمد عبده الإصلاحى المؤمن بالتعليم والثقافة والإعلام ، وسيلة مثلى لبناء الفرد فالأسرة فالمجتمع فالدولة . التقيا معا برغم الاختلاف ، وعملا معا في سبيل بناء ثورة حقيقية تكون تعبيرا عن وعى جديد وإرادة جديدة ، وبرغم ما كان لمحمد عبده من تحفظات فإنه لم يتوان في أن يشارك في تحمل مسئولية دعم الثورة وتأييدها ، وحين

اضطر الاثنان إلى الخروج من مصر كان السفر لهما استكمالا للمسيرة، فأصدرا معا في باريس العروة الوثقى ، لتكون نقطة انطلاق جديدة لبناء جديد •

النموذج الأروع والأكمل والأمثل ما كان بين المصطفى صلوات الله عليه وصفيه وخليله أبى بكر الصديق • وليس في التاريخ الإنسانى كله نموذج مماثل لهذه العلاقة الحميمة التى يفنى فيها الصديق في الصديق ويجد في فنائه فيه نفسه ، تذوب ذاته فيه ليجدها امتدادا له ، فكرا وقلبا وكيانا ووجودا • ولا يستطيع أحد مهما بلغ من براعة الحساب أن يقوّم ما قدم أبو بكر للصداقة وما قدمت الصداقة له ، كان في كل لحظة من لحظات حياته ، معه أو بعيدا عنه ، مع أهله أو مع أعدائه ، مع من يعرفه أو مع من لا يعرفه ، يتمثله خلقا وسلوكا ورأيا وموقفا • ذروة عطاء هذه الصداقة تتجسد في رحلة الهجرة ، إذ يصبح شرف الصحبة عنده تكليفا بتحمل المسئولية الكاملة ، إعدادا وتخطيطا وتنظيما وتدريبا ونفقة ، لا يتردد لحظة واحدة في التضحية بكل شيئ : بنفسه وأهله وبنته وغلامه وما يملك ومن يملك • وقمة نجاح هذه الصداقة تتجلى شامخة فور رحيل النبى الصديق إلى الرفيق الأعلى ؛ إذ يبلغ تمثله ومحاكاة موقفه درجة ما كان ليبلغها أحد غيره ، وبرغم الأسى الهائل في الأعماق ولوعة الفراق يستشعر ما هو أهم ، الخطر الذى يمكن أن يحدق بالدعوة والسلطة والدولة والنظام والعقيدة ، فيحسم الموقف في مواجهة المخاطر ويرتاد أفق السلامة ، ويجمع الناس على كلمة سواء : من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت •

* * *

خلاصة الخلاصة

تبقى في ختام هذا العرض لأهم دواعي السفر أمـور يحسن الإشـارة إليها :

أولها : أن السفر استجابة لـدواع ودوافع وأهـداف لا تقتضـى بالضرورة تحقيق ما سافر الإنسان من أجله ، فمن الثابت عقلا وواقعـا أن كل من يسعى لغاية قد ينجـح في تحقيقها وقد يخفق في الوصـول إليها ، ومن ثم فإن عدم تحقق الغايات ليس دليلا على عدم وجودهـا ٠ ومن الناس من لديه الشجاعة الكافية ليعترف بنتائج ما سعى إليه سـلبا وإيجابا ، ومنهم من لا يملك هذه الشجاعة فيحاول تضليل نفسه والتمويه على الآخرين ، وقد لا يعنينا موقفه من نفسه لأن ذلك شأن خاص بـه ، وإن كان مثل هذا الموقف يدل على جبن في مواجهة الذات وتخاذل فـي تحمـل المسئوليات ، أما التمويه على الآخرين فهو الذى تجب الفطنـة له ، حتى لا تضللهم ادعاءات زائفة وأباطيل كواذب ٠

ثانيها : أن وجود دوافع محددة في مرحلة من المراحـل قبيـل السفر أو فيه لا يعنى بالضرورة ثباتها واستمرارها وعدم تغيرها ، فلقـد تتغير هذه الدوافع بالسفر كما قد تتغير في أثنائه ، وهذا أمـر طبعـى وبدهى ، لأن في السفر من المتغيرات والمستجدات مـا قـد لا يكـون مقدرا أو محسوبا ضمن الظروف والأحوال ، والاسـتجابة للمتغـيرات بإعادة النظر في المواقف دليل مرونة فكرية ومقدرة على التكيف مـع الواقع ، وبذلك يكون تغير الدوافع والأهداف ثمرة عاملين متداخليـن : الإضافات الكمية للخبرة الفردية مـن ناحية والمتغيرات في الواقع مـن ناحية أخرى ٠ ومن هنا يكون للعامل الفردى تأثير لا يستطاع نفيـه ،

ولذلك كان تعدد المواقف واختلافها بين الأفراد مع وحدة الظروف أمرا مفهوما وسائغا ، والذين يرفضون ذلك وينكرونه يتجاهلون حقيقة واضحة وضوح الشمس ، لأن اختلاف ردود الأفعال تجاه الحدث الواحد أمر طبعى ، لأن رد الفعل بما يترتب عليه من تعدد المواقف يختلف باختلاف الأفراد ، بل يختلف باختلاف الحالات التى يكون عليها هؤلاء الأفراد .

ثالثها : أن لكل فرد يدخل في تجربة السفر تقييمه الخاص لهذه التجربة ، ورؤيته الذاتية لنتائجها سلبا وإيجابا ، وهى تختلف طبقا لرؤية الفرد وتقديره ووعيه بالعوامل المؤثرة فيها وفهمه لصور تأثيرها وإحاطته بها ، ولهذا كانت الدروس المستخلصة من تجربة السفر لا يمكن تحديدها بشكل قاطع لكل من اشترك في هذه التجربة ، من المقطوع به وجود دروس مستفادة لكل فرد تمس الناس والأشياء والبلدان والأحداث والمواقف ، لكن تحديد كل درس على حدة وتقييم أثره أقرب إلى الاعتبارات الخاصة منه إلى الرؤية العامة . وليس الاختلاف في التقييم مقصورا على تجربة السفر وحدها ، بل إنه يمتد ليشمل كل ما يتعرض له الفرد في حياته من مواقف وأحداث وعلاقات ، لأن الاختلاف في التقييم نتاج حتمى للاختلاف في المكونات الخاصة للإنسان ، ونمط استجابته الشعورية لما يمر به من تجارب ووقائع .

رابعها : أن الإنسان بعد عودته من سفره ليس هو نفسه قبل السفر ، هو بعد السفر مختلف ، وبغض النظر عن مدى هذا الاختلاف فإن من المؤكد أنه يطرد بتأثير عاملين : الاغتراب وطول المدة ، فالاغتراب يقدم خبرات متعددة في كيفية التعامل مع من لا يعرفهم ولا يعرفونه ، وكلما تعددت جوانب الغربة زادت المقدرة على اجتياز

حواجزها وبخاصة في اللغة والعقيدة والعادات والسلوك ، ومن ثم تتطور المهارات الخاصة باكتساب مهارات جديدة • والأمر كذلك أيضا في طول المدة ، لأنه كفيل بالكشف عن أنماط ووجوه من العادات والتقاليد قد لا يقف المغترب عليها بصورة صحيحة ودقيقة إذا كانت مدة إقامته قصيرة ؛ وثمة عامل ثالث لكنه يتفاوت بتفاوت الأفراد ، وهو الاختلاط في المجتمعات التى يسافر إليها ، والتعايش مع أصحابها إلى درجة الاندماج فيها ، بحيث لا يجدون حرجا في أن يكونوا معه على طبيعتهم دون تكلف أو حساسية •

خامسها : أن حدوث التغير شيئ والوعى به وتحديد أبعاده ومجالاته شيئ آخر ، الأول مقطوع به ، والثانى لا مجال لأحد إلا للمسافر وحده للقطع به • وحتى المسافر نفسه قد لا يستطيع أن يحدده بشكل واضح قاطع ، لأن هذا التحديد مرتبط بمقدرة صاحبه على الفهم والإدراك والوعى والتحليل والإحاطة بالمتغيرات في الواقع ثم استكناه واستقصاء ما تركت من آثار داخل النفس • والتفاوت في هذا كله قائم بين الأفراد ، وبين الفرد نفسه في حالاته المختلفات • حتى إنه ليمكن القول بأن من الطبيعى أن يكون تحليل الفرد نفسه لمعطيات رحلته يختلف في بداياتها عنه في نهاياتها بما استوعبه فيها وما أفاده خلالها • ومن باب أولى في الرحلات إذا تعددت وفي الأزمنة إذا تطاولت •

* * *

سفر الغربة

سفر الغربة

الاغتراب المعنوى شديد القسوة ، عميق التأثير ، بالغ الأثر ، يتوجه إلى فكر الإنسان فيعيد صياغته بما يتسق معه ، ويقصد إلى مشاعره فيشكلها حسبما يهوى ، الفكر والأحاسيس ساحته ومن هنا كانت خطورته ، وإذا كان من شأن الرحلة في المكان أن تزيد غالبا الخبرة ، وأن تنمى دائما المهارة ، وأن تكسب صاحبها مزيدا من المقدرة على مواجهة المتغيرات ، واستيعاب المستجدات ، فإن الاغتراب المعنوى يوشك أن يكون على عكس ذلك كله ، فمن شأنه أن يشل القدرة لا أن يزيدها ، وأن يعطل المهارات لا أن ينميها ، ويعوق الخبرات لا أن يطورها ، ويجعل الفرد مشوش التفكير ، معطل الإحساس ، سيئ الظن بمن حوله وما حوله ، عاجزا عن التواصل معهم ، نائيا عن الإحساس بهم ، يخطئ في الإدراك ، ويخلط في الفهم ، ويخلّط في التعبير ، ويضطرب في التحليل ، وربما حمله هذا الاغتراب إلى إحساس بالكآبة فالاكتئاب ، فيفقد الأمل ، ويتدرج منه إلى حالات مرضيَة أشد عنفا ، من الخوف ، فالرعب من الناس والأشياء والعلاقات والأحداث ، حتى إنه ليقيم حول ذاته قضبانا يحبس نفسه فيها في دائرة شديدة الضيق ، تضيق وتضيق ، لا تفسح له مجالا لحركة ، ولا تتيح له فرصة لتصرف ، ولا تدع له وسيلة لصلة ، ولا تمكنه من إبداء رأى فيما يرى أو يسمع .

ولا يحسبنَّ أحد أن هذا الموقف يتناقض مع بعض ما عرف ويعرف من سلوك بعض العباقرة ، الذين قد يضيقون دائرة الاتصال بهم فيبدون في ظاهر أمرهم كمن يسجنون أنفسهم ، يشبهون أولئك

الذين يرفضون مجتمعاتهم ، قد بتروا بها صلتهم ، لأن العبقرى وإن بدا مسلكه الخارجى شبيها بمسلك المغترب المعنوى فـإن بينـهما فروقـا جوهرية ، فالعبقرى منتم لمجتمعه ، شديد الاهتمام بقضايـاه ، عميـق العناية بمشكلاته ، إسهامه في تقديم حلول إيجابية له غايته ، فهو يعانيه في شعوره ولا شعوره ، ويعالجه في تفكيره ، ويتمثله فـي رؤاه فـي مجمل لحظاته ، وهو يلجأ في ذلك إلى الوسائل التى يجيدها ، ويطـور قدراته من أجلها ، لكنه إذ يحتقر أنماطا معينة من الناس والعلاقـات لا يحب الاتصال بها ، ويرى فيها عبئا عليه ، وإهدارا لوقتـه ، فيغلـق دونها نفسه وبابه ٠ أما الآخر فيمكن القول بإيجاز بأنه على العكس من هذا كله ، لا يحس بمجتمعه ، قد انعزل عنه وبتر علاقته بمن فيه ومـا فيه ، حتـى أصبح على يقين بأن أموره كلها لا تعنيـه ، إنـه - فـي حقيقته - نموذج كامل لغير المنتمى ٠

"مجتمع" المغترب المعنوى الذى يقاطعه في حاجة إلـى تحديد ، وخلاصة القول فيه أنه ما يحس المغترب بانعزلة فيه - فـهو يختلـف بحسب نمط الاغتراب عنده ، قد يكون الأسرة الصغيرة المكونـة مـن الأب والأم والأشقاء ٠ وقد يكون الزوج أو الزوجة ، وربما كان مجتمع المدرسة أو الحارة أو الشارع أو القرية أو المدينة ، ولعله في بعـض الحالات مجتمع العمل أو المهنة ، أو أبناء الوطن ، وربما كان - فـي بعض الأحيان - متمثلا في الزمان الذى يعيش فيه الإنسـان ٠ إنـه - بتركيز شديد - يتمثل في "الآخرين" الذين يحس معهم - أو بتعبير أدق : إزاءهم - بقطيعة ونفور ٠

هل يمكن أن يكون المغترب المعنوى طبيعيا في علاقاته بمن هـو خارج مجتمعه المرفوض ، أو أن اغترابه يصوغ نمطه الفكرى ويطبـع مشاعره النفسية ويوجه قيمه السلوكية تجاه الناس والعلاقات جميعـا ؟

هذه مشكلة تحتاج إلى دراسة ، لأن ما لمسته من ظواهر هذا الاغـتراب ما يمكن تفسيره بما يتسق مع الموقفين ، من السهل القول بأنه شـــخص مذبذب ، حينا هو طبعى وحينا غير طبيعى ، لكن مثل هذا الموقف فـــي تقديرى غير علمى ، أشبه بمن يهرب من البحث عن العوامل فيكتفـــي بالظواهر ، ولذلك حاولت جهدى أن أعرف تلك الأسباب مـــن خـلال ربطها بأنماطها السلوكية . فتبين لى أن هذا النمط مـــن الاغــتراب لا ينفك عن صاحبه في علاقاته ، وأنه يظهر جليا فيمـــا مـــاثل عوامـــل اغترابه . فإذا كانت ثمة حالة مشابهة - أو بدت له مشـــابهة - لحالتـــه تمثل نفسه فيها ، وصب عليها موقفه ، أما إذا كانت الحالة مغايرة فإنـــه يتجاوز دائرة اغترابه ليشارك فيها بصورة أو بأخرى ، فـــالولد الـــذى يحس بالغربة بين أفراد أسرته الصغيرة لتصوره وجود تمييز ضده فـــي المعاملة يبتر صلته بأسرته ولا تعنيه أمورهـــا ، أمـــا خـــارج نطـــاق الأســـرة فإنه يسلك سلوكا عاديا طبيعيا ، ما لم تقع مشكلة لغيره تمـــاثل مشكلته ، حينئذ يرتد إلى نفسه ليستخلص منها الأحكام والمواقف .

* * *

وللاغتـــراب المعنوى عوامل شتى ، نتناول بعض ما له أهميـــة منها :

العامل الأول - الغربة البدنية :

الجسد يألف المكان والمناخ والظروف المادية ، يتكيف معـــها . ويطور قدراته وفقا لخصائصها ، فإذا تغير المكان أو تغيرت الظـــروف أحس بغربة ، يفسرها بعض المتسرعين على أنها تغير العادات ولكـــن الحقيقة تدور حول الخصائص البيولوجية للجسم التى تتكيف مع الوســط المحيط به ، فإذا تغير الوسط تغير الجســـم بالضـــرورة ، ذلـــك أن

التعايش الدائم والمستمر والثابت يصوغ خلايا الجسم ، فإذا لم تستقر أو لم تستمر أحس الجسم بنفرة ، ووجدت الخلايا الأعضاء نفسها في حالة تخلخل حتى تتمكن من أحد أمرين : فإما العودة إلى الظروف المألوفة وإما إعادة التكيف مع الظروف الجديدة ٠

الذين يعيشون في خط الاستواء لا يستطيعون أن يعيشوا في الإسكيمو ، والذين يعيشون في المحيط المتجمد الجنوبى يجدون نفرة من العواصم المكتظة ، والذين يطيلون البقاء في الغواصات في أعماق المياه يختلفون عن الذين يقيمون إقامة طويلة نسبيا في سفن الفضاء ، والذى تتكيف قدراته وخلاياه بنمط سائد في موقع يجد جسمه قلقا يعلنى الاغتراب إذا فارق موقعه ولو إلى بضعة أميال ٠ المسألة كلها تدور في إطار تكيف الجسم بالموقع ، فإذا أحس الجسم بخلل نتيجة اغتراب دق ناقوس الغربة في النفس ، لأن التواصل بينهما قائم ، وتفاعلهما معا أمر ثابت ومستقر ومستمر ٠

قد تتخذ الغربة البدنية أشكالا مَرَضية ٠ وهذا أمر طبيعى ، ولها جانبان : أولهما أعراض جسدية تتمثل في الخلل في أداء بعض الوظائف ، كضيق التنفس ، وعدم وضوح الرؤية ، وعدم دقة السمع ، وشيئ من المعاناة في وظائف الجسم الداخلية ٠ وثانيهما أمراض نفسية تتعدد مظاهرها ، كالرغبة في النوم ، أو الأرق ، وفقدان الشهية إلى الطعام ، والعزوف عن الكلام ، والخمول المستمر ٠ وهذه الأعراض بما تمثله من حالة نفسية انعكاس - أو امتداد - للحالة البدنية للجسم وعدم قدرته على التكيف ، فإذا تطورت حالة الجسم إيجابا واستطاع التكيف مع البيئة الجديدة خفت حدة الظواهر المَرَضية إلى أن يكتمل تأقلمه فيصبح ذلك إيذانا بالبرء منها ٠

قهر الغربة البدنية - ومن ثم تقليل آثارها السلبية - أمر ممكن ، وذلك عن طريق تدريب الجسم تدريبا كافيا على الظروف المماثلة لحالة الغربة ، وكلما طالت مدة التدريب أصبح الجسم أقدر على تحمل البيئة الجديدة ومتغيراتها • والتدريب يجب أن يكون عن طريق محاكاة خصائص البيئة الجديدة محاكاة كاملة ما أمكن ، وتستمر هذه المحاكاة لفترات تتزايد مع استمرار التدريب بدءا من ساعات محدودة في اليوم إلى أن ينتهى إلى أيام كاملة • وفي المراحل الأخيرة من التدريب يمكن أن يستمر لبضعة أيام متصلة • بحيث يكون الجسم قد عانى ظواهر مرحلة الانتقال إلى بيئته الجديدة قبل أن يسافر إليها ، واستطاع بمعونة من حوله وما حوله كسر حدتها وإضعاف تأثيراتها •

والظواهر السلبية للغربة البدنية - بصورة عامة ، مع التدريب عليها أو حتى بدونه - بطبيعتها موقوتة ، وإن كانت فترة معاناتها تختلف بين الأفراد زمنا وتتفاوت حدة • لكن الجسم في النهاية قادر على أن يتجاوزها مستقرا على حالة ازاءها • وغالبا ما يأخذ هذا الاستقرار شكل التكيف العضوى مع البيئة الجديدة ومتغيراتها • فإذا تم التكيف آذنت الأعراض العضوية بالانتهاء ، وزالت تماما ولم يعد لها وجود ، أو أعاد الجسم تشكيل طبيعته بحيث تصبح هذه الأعراض جزءا من استجابته التلقائية لمعطيات الظروف المحيطة •

في ختام هذا المبحث نشير إلى مسألتين تحتاجان إلى دراسات ميدانية تطبيقية ، لأن ما بين يدى فيهما ليس كافيا بصورة علمية للحكم فيهما :

المسألة الأولى هل يجب أن يكون التدريب بهدف التكيف على البيئة الجديدة قبل معاناتها إراديا ، أى يصدر عن وعى به ورغبة فيه وحرص عليه ومتابعة له ، أو أن من الممكن أن يوضع الجسم في

ظروف ملائمة ومساوقة لما سيعانيه في بيئته الجديـدة دون إرادتـه • والجسم قادر بتلقائية على التكيف مع هذه الظروف • التجـارب التـى وقفت عليها - وسأشيـر إلى بعضها بعد حين - ليسـت قاطعـة فـي نتائجها ، وإن كان من الممكن القول بأن أى تدريب على النمط المشابه لما يستجد مفيد في إعادة تشكيل القدرات الحيوية للجسم وإن لم ينتج هذا التدريب عن وعى • لكن من ناحية أخرى من الممكن القول بأن الإرادة الإنسانية الصادرة عن وعى بالظروف التى يمكن أن تستجد ومعرفـة متغيراتها وما تسلم إليه من ضغوط على الجسم يمكن أن تعـزز مـن مقدرة الجسم على الاستجابة • فتجعله أكـثر اسـتعدادا لقبـول هـذه المتغيرات وأقل تأثرا بها ، أى أكثر استعدادا للتكيف معها • ثم تكيفـه الكامل بها •

المسألة الثانية هل إذا عاد الجسم بعد معاناته في غربته ثم تكيفـه الكامل بها إلى بيئته الأولى عاد تلقائيا إلى طبيعته السابقة ، أو أنه يبـدأ مرحلة جديدة من المعاناة كما لو كان قد انتقل إلى غربة بعد اسـتقراره في بيئته الجديدة وتكيفه معها • التجارب التى وقفت عليها تشـير فـي مجموعهـا إلى أن الجسـم يحتاج إلى مرحلة يعيد فيها تكيفـه بيئتـه الأولى • لكن هذه المرحلة لا تحتاج إلى نفس الفترة الزمنية التى تحتاج إليها مرحلة التكيف ببيئة جديدة ، فاستجابة الجسم في الحالات العاديـة أسرع ، ومقدرته على العودة لمرحلته الأولى أقوى إلا فـي الحـالات الشاذة ، هل يعنى هذا أن الخلايا قد أصبح فيـها قـدر مـن المرونـة فأسرعت في استجابتها للمتغيرات ، أو أن لها ما يمكن وصفه - بقـدر كبير من التجوز - ذاكرتها الخاصة التى سرعان ما تستعيد بها ومعـها خصائصها الأولى •

* * *

مولانا الشيخ

هذا هو لقبه عند مريديه ومن يحيطون به - وهم كثر - كان قبل إحالته إلى المعاش أحد الشيوخ في إحدى كليات الأزهر ، وظل بعد المعاش يقيم في داره الريفية الصغيرة في المرج ، واستمر يعقد في "المندرة" ذات المصاطب المبنية بالطوب اللبن المغطى بالجير ندوته الأسبوعية بانتظام ، ولم يكن لها موضوع محدد ، ولا متحدث ثابت ، كانت أقرب إلى الحوار المفتوح الذى يشارك فيه الحاضرون الشيخ ، ومن خلال المشاركات والمداخلات تتداعى الأفكار وتتبلور الآراء وتتحدد الرؤى ، وكانت الأوضاع السياسية ضمن موضوعات الحوار قبل الثورة ، وكان الشيخ فيها شنيد النقد ، يرى أن الفساد قد عمَّ وطمَّ ، ولم يكن يستثنى جهة أو هيئة ، فلما كانت الثورة قال لمريديه عبارته المأثورة : إنهم شباب وفي حاجة إلى أن يتعلموا ، فلنعطهم فرصة ليعلموا ويعملوا ، ولم يكن بعضهم غريبا عليه ، فقد كانت ندوته أحد الأماكن التى اختيرت في بعض مراحل الإعداد للثورة لتكون مكانا لبعض لقاءاتها ٠ ومن قبلها كانت مكانا التقى فيه الفريق عزيز المصرى باشا ببعض من رغب في أن يضمهم إلى حركته من الضباط إبان الحرب العالمية الثانية ٠ كان الشيخ قد اعتاد نمطا معينا في حياته اليومية ، يستيقظ قبيل صلاة الفجر ليتوضأ ويصلى ، ويتلو بعض أجزاء من القرآن ، ثم يتناول كسرة خبز جافة مغموسة في كوب من الشاى ، وهذا هو إفطاره ، أما غداؤه فلا يتناوله إلا بعد العصر ، طبق من البقول المطهوة مع قطعة صغيرة من اللحم أو بدونها ، وبعد صلاة العشاء يأكل زبدية صغيرة ، يتناولها من إنائها الفخارى بكسرة

خبز جافة ، ثم ينام • وهكذا كان هيكلا عظميا مكسوا بجلد شاحب • لكنه رزق من صفاء الذهن ودقة الحفظ وضبط المعلومات والمقدرة على التفكير وسلامة التعبير ما يثير العجب •

قبيل أحداث ٥٤ فاجأه بعض أعضاء جماعة دينية تعمل بالسياسة أو جماعة سياسية ترفع شعارات دينية بحضور ندوته الأسبوعية ، ولم يسبق لهم أن حضروها ، وأخذ بعضهم يحاوره في الأوضاع الجديدة ، ويحاول أن يستدرجه لإصدار أحكام بإدانتها ، وترددت في تلك المراحل المبكرة أفكار عن تكفير من لم يحكم بما أنزل الله ، وضرورة تنفيذ أحكام الشريعة ، وقال الشيخ رأيه بوضوح مع أنه لا ينتمي إلى الجماعة • واعتقل الشيخ ، وأرسل إلى السجن الحربى • وحين رآه مدير السجن في الاستقبال قال مستنكرا : يرسلون إلينا ميتا ، ماذا نفعل به • ولكن "الميت" ما لبث أن أصبح أسطورة في التحمل والصمود والشجاعة •

كان أول صدام له مع كبير زبانية السجن - وهو ضابط اسمه صفوة ، يكتبها بالتاء المفتوحة طبقا للنظام التركى المألوف - وقد حكى عنه من نزل الشيخ معهم في محبسه الأعاجيب ، عن قسوته وشراسته وقدرته على ابتكار وسائل التعذيب ، فقال الشيخ معقبا على ما سمع : إنها حكمة الله أن يضرب صفوة الخير بصفوة الشر ، لكن الحق منتصر كما وعد • وبلغت العبارة مسمع كبير الزبانية فاستدعاه وقد عزم على أن يجعله عبرة ، وأخذ يهزأ به أمام نفر من جنده الذين كانوا يبادرونه بالصفع والركل إذا صمت قليلا يفكر ، فتمتم الشيخ ببيت من الشعر يقول :

رضينا قسمة الجبار فينا   لنا علم وللجهال حال

فزاد كبير الزبانية غيظا وسأله : من الجهال وما الحال ، وفي ظنه أن الشيخ سيسترضيه بكلمة لكن الشيخ قال : الحال السلطة التي تجعل البغال أمثالك يعذبون أهل العلم ، استشاط غضبا ونهض يصفعه صفعة مدوية ، فجمع الشيخ ريقه وبصق تجاهه، ومع أنه كان كليل البصر فإن البصقة التى أخذته على غرة كانت محكمة حتى إنها ملأت وجهه • ابتسم جنده وهم ينظرون إليه وقد أفزعته البصقة ، ثم سرعان ما تداولوا الشيخ بين أيديهم ضربا مبرحا ، وأمرهم كبيرهم بأن يعلق كل يوم من سباقيه كالذبيحة ساعتين وألا تقدم له إلا وجبة واحدة حتى يقول عشر مرات : أنا جاهل ، أنا بغل • ورفض أن يقولها ولو مرة واحدة ، وأصبح الشيخ علَما على المقدرة على الصمود والتحدى ، حتى إن كبير الزبانية كان يرسل جنده ليهمسوا قائلين له : إنهم سيقولون إنهم سمعوه يردد العبارة المطلوبة بصوته الواهن فلم يسمعها غيرهم ، فكان يرفض قائلا : سأفعل نفس ما فعلت وسأقول نفس ما قلت • وظل الأمر كذلك نحو بضع وثلاثين يوما أطلق سراحه بعدها ، دون أن يقدم لمحاكمة ، قيل إن أحد ضباط القيادة كان في جولة تفتيشية على السجن حين فوجئ بوجوده ، وسمع قصته ، وكان ممن يعرفون الشيخ في مرحلة الإعداد للثورة ، فأمر بإطلاق سراحه على الفور • وحين عاد الشيخ إلى منزله استقبل بعض المهنئين ، وكان من بينهم بعض ضباط القيادة الذين حملوا إليه الاعتذار •

حين سألته بعد فترة قصيرة من خروجه من محنته : يا مولانا ، الضرورات تبيح المحظورات، كان رده رحمه الله : يابنيّ وأين القدوة والمثَل • ولما سألته كيف احتمل ما احتمل ، قال : والله ما أحسست بجوع ، ولا بألم ، كنت أركز تفكيرى في قضية أو مسألة علمية ، أظل أعالجها بالآراء والاحتمالات حتى يغمى على ، فإذا أفقت عدت

استقصى فيها الوجوه والأدلة • فما تغير حالى في المعتقل عن حـــالى في بيتى إلا في مسألة التعليق تلك ، ولذلك كان الإغماء نعمة من الله • فأيقنت أنه - دون أن يدرى - كان يدرب نفســه وجســده ، وبتدريبــه استطاع التأقلم والتكيف ، واجتاز المحنة •

* * *

مازال معاليه •• ينبح

"ابن المهندسة" هو لقب طالب الطب الذى أطلقه عليه مجموعـــة الأصدقاء الذين كانوا يدرسون في كليات مختلفة في جامعة القـــاهرة • وفي مرحلة الوهج القومى كانت السياسة وقضاياها الداخلية والخارجيـة جزءا من خبزهم اليومى ، إلا هو ، كان يجلس معهم وهـــم يتناقشــون ساعات متواصلة عن أولويات العمل السياسى ، ووجهات النظــر فــي المشكلات الوطنية والقومية والدولية ، وربما استمروا في مناقشاتهم إلى ما بعد الفجر ، وكان يكتفى وحده إذا طلب رأيه بــأن يعقــب بعبــارة مأثورة لا يغيرها : ربنا يولّى مَن يصلح • وكان الأصدقاء ينفجــرون ضحكــا غيظا وسخرية ، فقد كان يظن أنــه بذلــك يرضــى جميــع الأطراف • ومع ذلك استمرت علاقته بهم ، فقد كان مـــهذبا ، رقيــق الحاشية ، وديعا ، وحيد أمه التى تعمل بالمركز القومى للبحوث ، والتى علمته كيف يكسب حب الآخرين • وفي سبيل هذا الحب ســمحت لــه بالاختلاط بهذه الصحبة بعد أن رضيت عن أخلاقها مع تحفظ وحيــد : ألا يشاركوا في أى نشاط سياسى ، وبالطــبع كان يقال لــها : إن مــا يدور بينهم مجرد كلام لا أكثر ، وكانوا يحرصــون علــى أن تــدور مناقشاتهم في إطار الثقافة العامة - من كتب ومسرحيات وأعمال فنيـة -

إذا حضرت جانبا من مناقشاتهم عندما يزورنه في بيته ، ثم ما لبثت أن تعودت أن تكون زياراته لهم في أماكن أخرى خارج البيت . كان يطلق عليها ضاحكا : المواقع المحايدة .

ولم يؤت ابن الهندسة من بيته ، ولا من بيوت أصدقائه ، ولا في موقع من المواقع المحايدة ، وإنما عند زياراته التقليدية مع أمه لأختها الأرملة التى كانت تقيم في شقة صغيرة في حلوان ، وكان البيت تحت المراقبة بعد أن انتشرت في تلك الآونة بعض المنشورات التي تهاجم نظام الحكم وتكشف بعض صور الفساد الإدارى والضغط السياسى في مصانع النسيج والمطروقات والحديد والصلب ، وهوجمت الشقة التى تعلو شقة الخالة ، وضبطت فيها ماكينة رونيو للطباعة اليدوية ، لكن لم تضبط منشورات، فقرر الضابط الهمام المكلف بالعملية أن يفتش جميع الشقق في المبنى ، وأن يتحفظ على جميع الطلاب والعمال الموجودين فيها حتى يكشف سبب وجودهم ، فربما تكون لهم صلة بالموضوع .

ولم يستغرق بقاء ابن المهندسة قيد التحقيق سوى أقل من أسبوعين أطلق سراحه بعدهما ، لكننا حين قابلناه وجدناه قد تغير تماما ، فلم يعد يلزم الصمت عند مناقشاتنا ، بل كان يبادر إلى إثارة الموضوعات ويأخذ موقفا متطرفا فيها ، ولم نسمع عبارته المشهورة تخرج من فمه مرة واحدة ، وصار أكثرنا حرصا على الترتيب لعقد الاجتماعات بعد أن كنا قد اعتدنا على أن نجعل عقدها يتم بصورة تلقائية دون إعداد سابق ، وهمَّ بعض الأصدقاء بالشك فيه ، فرغب في أن تعقد الاجتماعات في منزله فرفض متعللا بموقف أمه ، واتصل البعض بها في محاولة لكشف الغموض ، فأسرت إليه بشكوى تثير ألمها ، فابنها لا يستطيع النوم إلا جالسا في ركن الحجرة على الأرض كالمحتبى ، يضم ساقيه إلى فخديه ويلصقهما بصدره ويحيطهما

بذراعيه ، ثم لا يكاد يستغرق في النوم حتى يستيقظ مفزوعا يصـــرخ مستغيثا معلنا ندمه مرددا عبارة : حاضر يـــا فنـــدم ، وطلبـــت مـــن الأصدقاء المساعدة في إعادة تكييفه لحياته العادية كما كان ، وجلســـت الصحبة بدونه تحلل الوقائع • ثم قررت أن تناقشه في شكوكها ، وحين علم في أثناء الجلسة بالموضوع بكى ، وأعلن أن الضابط اتفـــق معـــه على أن ينقل إليه بصورة دورية منتظمة المعلومات عنا ، ولما قلنا لـــه إن الضابط لا يعرفنا قال إنه هو الذى أبلغه عنا خوفا من التعذيب ، قلنا لأمه إنه لا حل له إلا أن يتزوج ، وآثرنا أنه نعلن أمامـــه انفضـــاض اجتماعاتنا ، وحين قابلت أمه بعد نحو عام كانت ما زالت تشكو ســـوء حاله حتى بعد الزواج • وظلت كذلك إلى أن اختير وزيرا في عصـــر الانهيار القومى ، حينئذ توقفت والدته عـــن الشـــكوى ، قـــال بعـــض الأصدقاء : إنها توقفت بناء على طلب سيادة الوزير لحساسية موقعـــه ، وأضاف بعضهم ساخرا ، لقد تطورت حاله بعد الوزارة إلـــى أســـوأ ، فصار إذا استيقظ ينبح بشدة بدلا من أن يصرخ ، ثم يتحدث عن مراحل نضاله في خدمة الدولة والنظام • قلت لنفسى : هذه حالة شاذة ، وطبقـــا للقاعدة الأصولية فإن الشاذ يثبت القاعدة ولا ينفيها ، قالوا : وقد ظـــل ينبح وهو في منصب الوزارة أكثر من عقد مـــن الســـنين ، ومـــا زال معاليه ينبح إلى يومنا هذا •

* * *

العامل الثاني - الغربة النفسية :

هذا العامل في تقديرى أخطر عوامل الاغتراب المعنوى ، وأعمقها تأثيرا في بناء الشخصية ، وصور تأثيره معقدة متشابكة متداخلة تتقاطع وتتفاصل وتتضارب ، ولذلك كانت قادرة على البقاء في مسارب خفية داخل النفس متخفية تحت مظاهر مختلفة ، كما كانت أقل استجابة للعلاج من غيرها ، ومن الواضح أن أصدقاءنا من الأطباء النفسيين يجدون في هذا العامل بالإضافة إلى خبزهم أشكالا متعددة من المتعة في استعراض قدراتهم ؛ ولو أن واحدا من الذين يعانون من هذه الغربة عرض نفسه على العشرة الطيبة منهم لقال كل منهم فيه كلاما مختلفا عن الآخرين ، لأن الظواهر المَرَضية تقبل اختلاف التفسيرات وتعدد التأويلات ، وفي استطاعة كل أستاذ منهم أن يقول لك كلاما عبقريا عن المريض من خلال وقوفه على بعض الأعراض الجزئية أو السلوكيات الخاصة ، كلام هو في الحقيقة دليل عبقريته هو في إعادة بناء الشخصية على النحو الذى يتصوره أكثر منه دليلا - أو حتى قرينة - على صحة التصور ودقة التشخيص .

ومحور الغربة النفسية عدم التلاؤم مع الوسط المحيط بالفرد ، بشخصياته وأحداثه وعلاقاته ، ولعدم التلاؤم هذا أسباب متعددة ، أبرزها عندى ثلاثة : **أولها النشأة غير السوية في بيئة غير سوية ،** وأبرز ظواهرها التفرقة في المعاملة بين الأبناء ، حين يحظى بعضهم برعاية كبيرة واهتمام بالغ يرقى إلى مرتبة التدليل ، ويفقد بعضهم الاهتمام والرعاية إلى درجة الإهمال ، فينشأ كلا النوعين نشأة غير سوية غير قادر على التلاؤم مع البيئة الطبيعية ، يتوهم أولهما - إلى درجة اليقين - أن رغبته وحدها في الشئ كفيلة بمنحه مشروعية الحصول عليه ، وأن أى حرمان له مما يتطلع إليه يعبر عن

موقف متعسف تجاهه ، وأنه يصدر عن تجن عليه إذ يحرمه مما هو حق ثابت ومشروع له • وأما ثانيهما فإنه يعانى من أنماط مختلفة من الاضطرابات النفسية ، منها عقدة الاضطهاد والحرمان والإحساس بالدونية والانطواء والرغبة في الانزواء ، وقد تحمله في بعض الحالات إلى أنماط سلوكية عكسية من العدوانية والاستعلاء والتجنى على الآخرين • وفي كلتا الحالتين يعانى كل منهما من الغربة النفسية وانقطاع الصلة بينه وبين من حوله من المقربين إليه بخاصة ، وقد ينعكس هذا الموقف في إعلانه الدائم حبه لهم واعتزازه بهم وحرصه عليهم • وهى صورة من الدفاع عن الذات ضد الأحاسيس الحقيقية العكسية وتبرير لها في نفس الوقت ، وكلما ازدادت هذه الإعلانات دلت على عمق الإحساس بالغربة والقطيعة •

السبب الثانى **الحواجز التى تقوم بين طرفى العلاقة الزوجية** مما يؤدى إلى إحساس كل منهما بنوع من الغربة عن الآخر ، وبما أن العلاقة الزوجية تستلزم بطبيعتها قيام صلة مستمرة ومستقرة وثابتة فإن المعاناة تزداد ، بحيث تتحول العلاقة إلى إطار من الكراهية يحيط بالطرفين ، ويبدأ كل منهما في لحظ الجزئيات التى تثير نفوره وتعمّق إحساسه في محاولة للدفاع عن الذات ، وتستمر دورة التأزم حتى تنتهى في علاقة زائفة محورها الكراهية ، فيضطر الطرفان إلى معاناة التمزق بين الداخل والخارج مما يعمق من الإحساس بالغربة ويزيد من توالى تداعياتها •

والأسباب في قيام حواجز بين الزوجين تتعدد ، ويتفاوت تأثيرها في كل طرف وفقا لمجموعة من العوامل المتداخلة من بناء شخصية كل منهما وتشكيل سلوكه تجاه نفسه وتجاه الآخرين • ومن بين هذه الأسباب التباين في القيم السلوكية ، بمعنى أن لكل طرف من الطرفين

ما يعتبره قيمه الثابتة ، فإذا بلغ الاختلاف بين هذه القيم حدّ التضارب كان ذلك إيذانا بوقوع العزلة بينهما ، كأن يكون أحد الزوجين قد ربى سلوكيا منذ نشأته على عدم الاهتمام بالمال واعتباره مجرد وسيلة لتحقيق الراحة ومن ثم يجد متعته في إنفاقه بينما الآخر يعتبر المال غاية تستحق المحافظة عليها والتضحية من أجلها ، فإذا حاول أحد الطرفين فرض رؤيته ونمطه السلوكي على الآخر كان ذلك إيذانا ببدء العزلة بينهما ، وكلما ازدادت المحاولة حدة بلغت العزلة بينهما مبلغها حتى تصل إلى قمتها بالانفصال النفسى الكامل بينهما ٠

ومن بين هذه الأسباب أيضا انعدام التكافؤ الثقافى بين الزوجين ، وليس المقصود بالتكافؤ الثقافى المستوى العلمى بل المقصود به الإحاطة بجوانب الحياة الثقافية والفكرية والتواصل معها ، والاهتمام بالقضايا الإنسانية ومشكلاتها ومتابعة تطوراتها والتعرف على العوامل المؤثرة فيها والاتجاهات المتوقع تطورها إليها ، ومن الممكن أن يكون أحد الزوجين معنيا بهذا كله حريصا عليه بينما الآخر يحصر دائرة اهتمامه في نفسه وبيته وعمله لا يعنيه ما يدور خارج هذه الدائرة الضيقة ٠ فإذا لم يتوصل الطرفان إلى إيجاد أرضية مشتركة تكفل لهما اللقاء عليها وحاول أى منهما فرض نمطه على الآخر فإن حواجز العزلة النفسية قائمة لا محالة بينهما ٠

ومن بين هذه الأسباب كذلك عدم التوافق الجنسى بين الزوجين ، ولست في هذا أخوض في محرّم ، وكثير من الناس الذين يرفعون الشعارات يحرصون على أن يسموا الكلام في الجنس بالإباحية ، ومن عجب أنهم يربطون موقفهم بحرصهم على القيم الدينية والأخلاقية ، وهذا ضرب من الجهل بالدين والأخلاق معا ، فلقد دعا الإسلام منذ كان نظريا وعمليا إلى إشباع الرغبة في الطرفين من

طرقها المشروعة ، ومن يدرس كتب الفقه الإسلامى يجد بحوثا مفصلة أوفي ما يكون التفصيل في شئون الغريزة الجنسية ووسائل إشباعها ما حل منها وما حرم ، وهى بحوث تدل على فطنة الفقهاء ومقدرتهم على إدراك الآثار النفسية المدمرة لانعدام التوافق أو تجاهل الرغبة ، بالإضافة إلى دلالتها على اتساق الدين وأحكامه مع الفكر السوى في الاهتمام بالغريزة الجنسية وتحديد السبل المشروعة لإشباعها ٠

إن إحاطة الغريزة الجنسية بسياج من المهانة والاحتقار أمر ترفضه القيم الأخلاقية الصحيحة ، كما تأباه الشريعة السمحة ، فهى وإن لم تكن أسمى المشاعر الإنسانية فإنها أصدقها ، وبفضلها يكون إعمار الكون ، ويتحقق استخلاف الله للإنسان فيه٠ والغريزة بالضرورة ليست قصرا على طرف واحد ، بل إنها أداء مشترك ينهض به الزوجان ، والتوافق بينهما في هذا الأداء ضرورى لإشباعهما معا ، وجعلهما يكتفيان ببعضهما دون أن يلجأ أحدهما - ولو في أحلامه - إلى طرف ثالث ٠ وإذا أحسّ أحد الطرفين بأنه فقد متعته مع الآخر فقد إحساسه بالإشباع ، وأصبحت ممارسة الغريزة مع الطرف الآخر عامل تعذيب في العلاقة ، يزيد مضاعفاتها سوءا ما يحيط بالموضوع من تقاليد زائفة تحمله على الصمت وإخفاء الأمر حتى عن النفس ، حتى لا يتهم بسوء الخلق ٠ وتظل حاجته الدفينة تتفاعل حتى توقعه في غربة كاملة عن نفسه وعن الآخرين ٠

والسبب الثالث من أسباب الغربة النفسية الشعور بفقدان الأصدقاء ، والإحساس النفسى بالعجز عن التواصل الإنسانى عبر صداقات حقيقية ، والصداقة ضرورة ملحة لتحقيق التوازن النفسى والشعور بالأمان ، وفقدانها يعنى تلقائيا العجز عن تحقيق المشاركة والفشل في نسج العلاقات الإنسانية السوية ، وهذا النمط من العجز

والفشل يؤكد وجود مرض نفسى حقيقى ، محوره الإحساس المبالغ فيه بتضخم الذات ومن ثم انعدام تصور وجود نظير مكافئ ، أو الخوف المبالغ فيه من الآخرين لدرجة اليقين بأن مثل هذا النمط من العلاقات الإنسانية كفيل بإفقاده ذاته بدلا من إثرائها ، وذلك بذوبانه في غيره وتلاشيه فيه ، وهذا المرض بشقيه شائع في كثير ممن يشغلون مناصب عالية ، وبخاصة بين رؤساء دول العالم النامى ، الذين يجدون أنفسهم فجأة في موقع القيادة واتخاذ القرار دون أن يكونوا مؤهلين لذلك ، فيعانون في مراحلهم الأولى في السلطة من عقدة الخوف ومن ثم يحرصون على الانعزال عن أصدقائهم وبتر علاقتهم بهم ، خوفا على أنفسهم منهم ، فإذا استمروا في السلطة فترة طويلة - وهذا هو شأن قيادات العالم النامى - ازدادت ثقتهم في أنفسهم وتأكدت في أعماقهم قدراتهم ، وتحولوا إلى الإحساس العميق بعدم صلاحية إنسان لصداقتهم ، لأنهم فوق مستوى غيرهم بما لهم من خصائص وقدرات ، وبذلك يكونون قد ساروا خطوات في درب جنون العظمة الذى يدفعهم إليه دفعا المحيطون بهم من حواشيهم المقربين ، الذين يدركون تحولاتهم المرضية فيسارعون إلى تلبية احتياجاتها بالتطامن والخضوع المطلق من ناحية والإشادة المستمرة بالعبقرية التاريخية لهذه القيادات المريضة من ناحية أخرى ، وبذلك تتحول السلطة في أيدى هذه القيادات إلى خطر حقيقى على الذات وإهدار للمقومات والإمكانيات . ومن أعجب ما درست من الحالات أن بعض القيادات تعانى من تزامن الظواهر المرضية للحالتين معا ، في وقت واحد ، فيصاب المصاب من هؤلاء - وكثير منهم مصابون - بالخوف من عناصر معينة ، حتى يصل به الأمر إلى حد الرعب من مجرد ورودها على خاطره ، لكنه من ناحية أخرى يحس بالعظمة الشامخة التى لا تسمح له بمجرد إعادة

النظر فيما يرى أو يقرر • وأخطار هذه الحالات مركبة • وكلما ازداد جنونها تزايد خوفها ، وتدفع الشعوب في النهاية الثمن الباهظ للتحـولات المرضية لزعاماتها التاريخية•

* * *

أليس مما يثير الإعجاب إلى أبعد الغايات أن يتجسد فـــي النبـــى محمد صلوات الله عليه خصائص يتفرد بها أقرب إلى المعجزات ، ومن بينها فيما نحن بصدده قدرته على بناء صداقة حقيقية مـــع أصحابـــه ، وتمكنه من دعمها وتطويرها بما يعمق وجودها ويضمن استمرارها ، ثم مقدرته الفذة على اكتساب صداقات جديدة سرعان ما تصبح من بين أهم علاقاته وأقربها إليه ، وأخيرا قيام هذه الصداقات علـــى أسـس مــن الإحساس بالمساواة الإنسانية الكاملة القادرة على القيام بدورهـــا سـلبا وإيجابا في النقد والنقد الذاتى الأمر الذى كان يتيح لأصحابه مواجهتـــه دون تردد ، ومن غير تكلف تعبيرا عن هذه الصداقة ويقينا بهـــا •أليس ذلك دليلا على الإعجاز الحقيقى لشخصية النبى ، وبخاصة إذا وضعنـــا في الاعتبار أن ذلك كان في بيئة شديدة الفساد من جوانب كثيرة ، أهمها فيما نحن بصدده تضخم الذات عند الزعماء والقادة ، وأن ذلك كله يعنى أن النبى كان في موقفه سابقا غير مسبوق ، وإذا أحببنا أن نلقى نظـــرة على قيمة سلوك النبى في هذا المجال وجب علينا أن نتلفت من حولنـــا لنرى أننا بعد نحو ألف وأربعمائة سنة ، وبعد التراث الإنسـانى الـذى يتحدث عن المساواة والتكافؤ نجد أنفسنا أمام شخصيات معروفة تمامـــا بقدراتها وإمكاناتها وتاريخها ثم لا تجد حرجا في أن تمضى قدما فـــي جنـــون العظمة واثقة الخطا ، على الرغم من أنها - مـــهما تصـورت ومهما صور لها المنافقون من حولها - لن تكون أكثر من نقطـــة فـــي حرف من كلمة من جملة في سطر من كتاب التـــاريخ الضخـم الـذى

يتجاوز عدد مجلداته عدد سنوات الكائن البشرى على هذا الكوكب • أى مهانة وأى هوان وأى امتهان وأى حطة وأى انحطاط وأى تخلف أن تحدث هذه الردّة في العلاقات الإنسانية في عصرنا •

* * *

العبقرى

هما شقيقان قامت بتربيتهما أمهما دون مشاركة من الوالد الذى كان همه الأوحد السعى في سعة الرزق ، وكان وجوده في المنزل نادرا ، يأتى على استحياء ويذهب على استحياء ، زاد من شحوب شخصيته فيه رغبته في البعد عن زوجته التى كانت شديدة الشراسة معه ، فقد نشأت تكره الرجال ، وأول من نالتهم كراهيتها أبوها الذى تركها وأشقاءها الأربعة في حجر أمهم الأمية ليتزوج ثانية تصغره بأعوام ، وعانت الأسرة الكبيرة العدد من الفقر والحاجة والإهمال ، وحين نضجت البنت الوحيدة لم يسع أحد للزواج منها مع جمالها فصبت غضبها عليهم وازدادت عدوانية معهم ، وحين جاء أخيرا مدرس إعدادى مستور الحال يطلبها لم يجد حرجا في أن يردد أمامها الأثر المشهور : خذوهن فقراء يغنكم الله ، فنال بدوره حظّه الأكبر من ضغينتها ، واتسعت دائرة كراهيتها حتى شملت كل امرأة أقل منها جمالا وأيسر منها حالا ، وكل زوجة مستقرة مع زوجها ، وكل رجل يرعى بحب أمور أسرته الصغيرة • تزلزلها لمسة حنان بين زوج وزوجة ، وتذهب برشدها نظرة حب أو كلمة مودة ، ويجن جنونها إذا سمعت عن أسرة مستقرة لا تعصف بها عواصف الشحناء • وتعمل الجينات الوراثية عملها في الشقيقين ، فيحمل الأكبر سمات والدها بينما

يكون الأصغر نسخة مطابقة لها ، فتجد نفسها دون إرادة تصب كل سخطها على الأول بينما تحتضن الثاني إلى درجة التدليل ، له الأولوية المطلقة في كل شئ ، في الطعام والشراب والملابس وزيارات الأهل في المناسبات ، تباهى به وحده مشيدة بجماله ولطفه وخفة دمه وكأنها تتحدث عن نفسها ، ويخرج الشقيقان من مرحلة اليفاعة وقد حمل أكبرهما الخصائص الصوتية لأبيه ، بينما صار صوت أصغرهما كشكله نسخة مطابقة لصوت أمه ، فإذا رد على أحد في التليفون خاله إياها ، وإن سمعه أحد دون أن يراه قطع بأنها هى التى تتكلم ، فتزداد به ولعا ، وتزداد معاملتها للأكبر سوءا ، ويتعمق إحساسها بالنفور منه إلى درجة لا تستطيع معها إخفاء مشاعرها نحوه .

ويحصل الأكبر على الثانوية العامة بمجموع مرتفع يؤهله للالتحاق بالكلية الثانية من كليات القمة ، مع أنه لم يحصل على درس خاص أو حتى مجموعة ، ومع معاناته طوال مرحلة الامتحان من استهانتها بقدراته وإعلانها تأكدها من فشله ، فتجد الأم نفسها إزاء ذلك في تحد حقيقى ، فتبذل كل جهودها وتوظف جميع إمكانيات الأسرة التى صارت بفضل جهد الأب الذى لا يكل كبيرة في الدروس الخاصة للأصغر في جميع المقررات الدراسية ، حتى يتفوق بدوره ، ويحصل على مجموع يؤهله للالتحاق بالكلية الأولى في القمة ، وحينئذ تحس الأم بالراحة لأنها حققت نصرا على ابنها الأكبر ، ولا تجد حرجا في أن تتباهى أمامه بما حققت لتزيده في أعماقه ألما وسخطا ، فإذا الأكبر يكون من المتقدمين ويعين معيدا ، وإذا بالأصغر برغم كل الدروس والمجموعات العلمية لا ينجح إلا بعد لأى وتعثر أكثر من مرة يفقده بضع سنوات إضافية ، وحين يحصل على الدرجة العلمية تكون بالحد الأدنى للنجاح ، وبينما يسافر الأكبر في منحة علمية للحصول على

درجة الدكتوراه من جامعة أمريكية يبذل الأصغر - ومعه كل من تعرفه الأم - الجهود المكثفة للتوسل لكل من يستطيع المساعدة في قيده بالدراسات العليا في أى جامعة إقليمية • وبينما ينطلق الأكبر نحو الذروة بحصوله على الدكتوراه في وقت قياسي يلاحق التعثر الأصغر ، فتجدها الأم فرصة لتطلب له من الوالد حظًا أكبر من ثروته التى كانت قد زادت بجهده المستمر • وإذ يرفض الوالد ذلك حرصا على العدل بين الشقيقين تذكى الأم في الأصغر حدة الكراهية للوالد والشقيق لحرمانه مما تراه ويراه عدلا • مما يضطر الأكبر إلى العودة إلى الخارج لينأى بنفسه عن الصراع وقد امتلأ إحساسا بالانقطاع ، ثم يموت الوالد فلا يجد الأصغر وأمه حرجا في أن يتحايلا بطرق غير مشروعة للحصول على ما كان للوالد في البنوك من أموال ، وما كان له في بعض المناطق من عقار وأراض ، لا تترك منها إلا قطعة صغيرة ترتب هى عليها دينا ضخما ، وتطالب الأكبر بسداده حتى يمكن تقسيم التركة ، ويشق الأمر على المغترب ويصرخ في غربته لكنه يرضح آخر الأمر بعد إلحاح شديد خضوعا للابتزاز غير الأخلاقى تحت اسم القيم والسمعة ولا يجد في نفسه شجاعة الرفض ولا شجاعة المواجهة ، وتزداد الفجوة بينه وبين أمه وشقيقه اتساعا وعمقا ، فلا يطيب له المقام في مكان ، ولا في موقع ، يحس بالغربة في كل مكان وكل موقع ، يرى نفسه مظلوماً أبدا ، دون أن يجرؤ على أن يشير من قريب أو من بعيد إلى ظالميه الأدنين ، وتبدأ رحلته نحو السقوط إلى الهاوية حين يُسقط كراهيته على بلده كلها ، واصفا إياها بأسوأ ما يتصوره إنسان ، بحيث تصبح - عند من يستمع إليه - مستودع قاذورات الدنيا بأسرها خلقا وسلوكا ، وأبناؤها هم أحط خلق الله كذبا وتزويرا وتزييفا وخداعا، ولا يجد مانعا من افتعال وقائع ليبرر بها

موقفه ، إلا الوقائع الحقيقية التى أثمرت ما صار عليه • ولا يتحدث عن بلده إلا بعد أن يستثنيهم ، فإذا سألته فلم لا تراهم ما دمت تحبهم وتحترمهم ؟! أجاب بأنه يود أن يكون إلى جوارهم العمر كله لولا شواغل الدنيا ، فإذا حضر شقيقه أو أمه إليه لم يطق أن يجلس معهم إلا لحظات يفتعل عقبها موعدا ليفلت من البقاء معهما فترة طويلة ، ثم يتحدث عن الشوق ووجع البعاد •

* * *

اللعبة الساحرة

لما ذهبت إلى الجامعة للمرة الأولى كانت تقود سيارتها الخاصة الاسبور الفخمة التى اشتراها لها أبوها المسئول الكبير في بنك استثمارى بهذه المناسبة ، وكانت من طراز العام التالى الذى سيبدأ بعد شهور قليلة ، أما هو فظل حتى بعد تخرجه يذهب ويعود واقفا على ساق واحدة فوق سلم الأتوبيس ، وإذا حسُن حظه انحشر بداخله ، وكان أحد الذين عرفوها بعد أيام من التحاقها بكليتها بالرغم من أنه يسبقها بعامين دراسيين • وتعرف إليها كما تعرفت إليه من خلال المجموعة اللصيقة التى سرعان ما استقطبتها ، وجد فيها جرأة وذكاء وكرما لم يعهده ، ووجدت فيه نكهة جديدة غير عادية بالنسبة لها ، كان يستطيع أن يستخرج الضحكة صافية من القلب بالسخرية من الناس والأشياء والمواقف ، حتى من نفسه لا يتورع أن يسخر ، وتسللت روحه الفكهة إليها فتوثقت علاقتهما ، وأصبح من المعتاد أن تدعوه لتوصيلة يقبلها أحيانا ، وحين يرفضها في أحيان أخرى يدعوها لتوصيلة من نوع آخر ، تصاحبه على قدميها يجتازان ممرات الكلية حتى يخرجا منها ،

ليطوفا بأرجاء الحرم الجامعى قبل أن يستقرا آخر الأمر في الكافتيريا يتناولان مشروبا يصر هو على أن تتبع فيه طقوسا خاصة تبدأ بأن تدعوه بالحاح وهى ترفع يديها متشابكتين أمام وجهها كأنها تتضرع ، ثم يتعطف فيمسح رأسها بما في يده وهو يعلن بعظمة وكبرياء أنه قد منحها شرف الصحبة على المشروب الذى كثيرا ما كان يدفع ثمنه دون أن يبالى بأن ميزانيته ستضطرب لأيام ، وربما لأسابيع ٠ ولم يكد ينتهى العام الأول من التحاقها بالجامعة حتى كان أقرب أعضاء الشلة إلى قلبها ، لكن إعجابها به كان شبيها بإعجاب الطفل بالساحر القادر على أن يثير دهشته فيما يرى ويسمع ، حتى جاء العام التالى وكان عام تخرجه فبدأ ينقطع عن الشلة وعنها أياما في مذاكرة مبكرة ٠ وحين كانوا يسألونه كان يرد مداعبا إنه يجاهد ليكون عميد العاطلين حتى إذا تخرجوا أصبحوا في رعايته ٠ لفتها جده إلى جانب جديد فيه ، واستمرت سخريته في لقاءاتهما وتحولت من الناس العاديين إلى المسئولين الكبار ، بدءا من رؤساء العالم إلى رؤساء الدول إلى الرؤساء في محيط الجامعة والكلية ، وتناولت كل شيئ : النظم والأشخاص والسلطة والثروة والثورة ، وكانت تحكيها ، وتحاكيها ، في المنزل ومع صداقات أبيها على أنها من مبتكراتها فكانت تحظى منهم بإعجاب خالص ، ولو أنها أسندت شيئا منها إلى مؤلفها الحقيقى لتحول الإعجاب إلى قلق وتوتر ٠

لم تحس بما له من أثر في نفسها إلا بعد أن انقطع عنها بعد أن أدى امتحانه النهائى وسافر ليعمل في مصيف في سيناء ، وسافرت مع أمها في نزهة إلى أوربا ، لم تستمتع بشئ مما رأت ، ولم تشارك في اختيار مشترياتها ، وأصابتها حالة أقرب إلى الاكتئاب ، فكانت تفضل في معظم الأوقات البقاء في الفندق وحدها حتى تعود أمها ، ولما عادتا

إلى القاهرة أبلغت الأم أباها بحالها ، فأوشك أن يعرضها على بعض الأطباء المختصين لولا أن من بين أصدقائه الأطباء من نصحه بألا يفعل ، معللا حالتها بأنها ثمرة إجهاد في دراستها لم تسترح منها بل زادتها الرحلة إرهاقا ، وحين بدأ العام الدراسى الجديد لم تسرع إلى الجامعة كعادتها ، ولما ذهبت بعد فترة أحست بغربة أوشكت أن تصل بها إلى النفور من الدراسة ، ولم يستطع من تبقى من الشلة أن يخفف عنها إلا بعد أن بدأت تتساءل عن أخباره ، حينئذ بادروا إلى إحضاره وكان قد عاد من عمله بعد انتهاء الموسم • ولما رأته أشرقت من جديد بسمتها ، وزغردت ضحكتها ، وكأن ما كان لم يكن • وحين دعته إلى توصيله مجانية كعهدها أبى ، ودعاها إلى توصيلته الخاصة ، وفي لحظة تضرع ألح عليها الإحساس بحاجتها إليه ، فلم تبال بشيئ وأمسكت بيده وعرضت عنيه أن يتزوجا • شلته الدهشة وطلب منها ألا تتسرع ، ودعاها في لقاء آخر إلى أن تراه على الطبيعة حتى تعرف من يكون حتى لا تكون أسيرة لحظة انفعال عابرة ، وفي اليوم الموعود تركت سيارتها في الجامعة ليركبا الأتوبيس إلى القلعة ، واخترقا على أقدامهما سوق السلاح حتى وصلا إلى الزنقة في العطفة المنشودة ، ولما وصلا أمسك بيدها وهى تصعد الدرجات المظلمة مرشدا إياها حتى لا تتعثر في المكسور منها • ولما سمعت صوتا يصرخ جاءها صوته يطمئنها قائلا : إنها أمى توجه إخوتى • ولم يكن الجو في المنزل الشديد الضيق خانقا بالنسبة لها كما توقع ، إذ أحست بألفة مع الأطفال وهم يصخبون ، وأكلت من طعامهم ، وبادرها فور خروجها من المنزل ليقفا عائدين في انتظار الأتوبيس : نحن الذين يطلقون علينا المهمشين ، وأضاف ساخرا : بالطبع هم كاذبون ، لأننى واحد من ثلاثة وتسعين ونصف في المائة من شعبنا ، أما الآخرون فهم المهمشون الحقيقيون ،

ثم التفت إليها ضاحكا ليضيف : يجب أن تطمئنى تماما ، فأنت تعتمدين على القاعدة الشعبية الكاسحة • لم تسمع كلماته ولم تبال بالواقفين وأمسكت بيده تجدد عرضها •

ذهل أبوها عندما أبلغته برغبتها ، وكاد يستخدم اتصالاته لإنزال الضرر به ، ولكن ذلك زاد من إصرارها ، ولما تدخل أصدقاء الوالد بطلب من أمها أقنعوه بضرورة أن يروا معه الشاب أولا حتى يحكموا عليه ، ولما قابلهم وجدوا فيه ذكاء وفطنة وبعد نظر ، ولم يجدوا ما يعيبه إلا الفقر ، وأقنعوه بأنه لا يختلف عن كثير ممن يعرف من رجال الأعمال الذين يساعدهم على أن يبلغوا القمة ، وأن المطلوب له وظيفة محترمة تجعله أهلا لمصاهرته ، وهكذا تحول عميد العاطلين - كما كان يقدم نفسه في سنته الأخيرة في الجامعة وبعد التخرج - ليصبح واحدا من سكرتارية نائب رئيس مجلس إدارة البنك ، ثم رئيسا لقسم العلاقات العامة في إحدى الشركات الكبرى التى يتعامل معها البنك وصار بذلك جديرا بالمصاهرة • وهمس لها أبوها ليلة الفرح : أنت اخترته ، وعليك تحمل المسئولية ، وأرجو ألا أسمع منك شكوى • فردت : أنا سعيدة باختيارى ، فتمتم : أتمنى ذلك • وعاشت أياما بعد الزواج مفعمة بالسعادة ، أحست فيها أنها قادرة على أن تفعل أى شيئ ، وأن تحقق كل ما تريد ، لكن سرعان ما تقلص كل ذلك ليحل تساؤل ملح : ما الذى حدث بعد الزواج • زالت طزاجة الدهشة وضاعت براعة الاستكشاف ، وانهار الإحساس بالروعة ، وبدأ عهد من الملل مع اليقين بأنه كان أكثر براعة مما كان يبدو في ظاهره ، وفي الوقت الذى كانت تميل فيه إلى الحنين إلى طرائف الشخصية القديمة كان من جانبه يحاول التخلص من تلك الشخصية بعد أن وضع قدمين متمكنتين على المصعد الفائق السرعة ، وأدرك أن الذكاء يجب أن يوظف لخدمة

مستقبل منظور حدده لنفسه بوضوح وليس لمجرد اكتساب حظوة بين مجموعة من الطلاب لا يفكرون في المستقبل ، وهكذا لم يمض عام واحد حتى كانا يعيشان كالغريبين ، حتى إنهما عندما كانا يمارسان بحكم العادة علاقتهما الحميمة كان كل منهما يفكر في شيئ خاص به لا يعرفه سواه . ونبتت في أعماقه سواتر عازلة لم يستطع اجتيازها .
ومن جديد بدأت الذكريات القديمة التى كانت محل بهجة في أيام الجامعة تأخذ طابعا آخر ، فقدرتها على المشاركة الإيجابية في العلاقات مع الزملاء اكتست طابع جرأة غير محمودة ، واستجابتها لرفع الكلفة مع الآخرين دليل تسيب ، ووصل أخيرا إلى يقين بأنه مغبون في صفقته إذ لم يكن فيها أكثر من سلعة أعجبت بها فقررت الحصول عليها دون إرادته . وانتهى به المطاف إلى عجز كامل عن التواصل والمشاركة والدخول في حالة من الكآبة الحقيقية بمجرد عودته إلي بيته . لكنهما برغم كل شيئ كانا يحرصان على عدم الانفصال .

* * *

ضيعه الحب

في ليلة عودته إلى القاهرة من مدريد للالتحاق بكلية الطب قال له أبوه الذى يشغل منصبا مهما في البعثة الديبلوماسية المصرية : كانت رغبتى أن تدرس الطب في أمريكا ، ولكننى نزلت عند رغبتك في دراسته في هذه المرحلة في مصر ، لكن لدى رغبة أخرى لا أتنازل عنها مهما كانت الأسباب ، ولذلك أريد منك أن تعرفها بوضوح وأن تتصرف في ضوئها . ولما سأله عنها قال الديبلوماسى المتألق : المستويات في الجامعات هناك أصبحت متعددة، تضم الحابل والنابل ،

وليس التفوق العلمى وحده كل شيئ ، هناك مكانـــة وتقـــاليد يجـــب أن تحافظ عليها ، ولذلك لا أحب أن تتخذ أصدقاء ممن هم دون مســـتوانا مهما كان ما يثيرونه فيك من إعجاب ، وأنت لست فـــي حاجـــة إلـــى مجاملة أحد أو مجاملة من أحد ، كل شيئ معد لك أكثر مما تحلم بـــه ، حتى الدراسات العليا في أمريكا مهما كان معدل تخرجك ، والذين قـــد يثيرون إعجابك اليوم سيقفون أمامك غدا صفوفا لتختار من بينهم مـــن يساعدك في مستشفاك الخاص التى سأبدأ التخطيط لها من الآن ، فـــلا تمنح واحدا منهم شرف صداقتك إلا بعد أن تتأكد جيدا مـــن مســـتواه ، ويحسن أن تستفيد بخبرتى فيمن تختاره صديقا فأنا رجل علمنـــى أبـــى الباشا الطبيب رحمه الله كما علمتنى التجارب حسن اختيار أصدقـــائى ومعارفى ،

هل كان في حاجة إلى هذه النصيحة وهو يهبط في مطار القـــاهرة ليستقبله فور نزوله من الطائرة مندوب الخارجية في المطار ، وليوصله بنفسه إلى سيارته المرسيدس التى استقبله بها ســـائق والـــده الخـــاص لينطلق به إلى شقته الفاخرة في الدور التاسع علـــى نيـــل الزمـــالك ، لتستقبله في لحظة دخوله إليها شرفتها المحيطة ذات الزجـــاج العـــازل يرى من خلالها القاهرة الحديثة ، بأبراجها وكباريها وفنادقها وحدائقها ، فإذا خفض بصره قليلا وجد النيل تحت قدميه يجرى صامتا ،

مضى الأسبوع الأول من الدراسة دون أن يحس بتحـــد ، كـــان كقشة في كومة غير محددة المعالم يحملها تيار مائى في مجرى محدد ، يخرج من محاضره إلى معمل ، ومنه إلى محاضرة جديدة ، ثم بدأ يجد في نفسه ثقة وهو يلحظ تهافت المستوى اللغوى ليس لدى الطلاب فقـــط الذين يشكون وإنما أيضا عند المعيدين الذين كانوا يلوكون المصطلحات ظنا منهم أن ذلك وحده كاف في التدليل على إتقانهم الإنجليزية ، أمـــا

بناء الجملة فإنهم لا يعرفون أولياته ، وأكدت ثقته بنفسه مقدرته اللغوية الخاصة التى تمكن بها من إتقان الإسبانية والفرنسية والإيطالية والإنجليزية والألمانية وبزغ في أعماقه إحساس بالتفوق أكده فيه قدرته على التكيف السريع مع أصعب ما يواجهه الطالب المبتدئ ، وهى المشرحة ، فقد استطاع التعايش معها بهدوء مما جعله يسخر بينه وبين نفسه من الحالات الكثيرة التى أصيب فيها بعض زملائه بإغماء حقيقى أو مفتعل ، ولاحظ بذكائه وفطنته أن هذه الحالات تنتاب بصورة أكثر البنات المجاورات للمعيدين الذين يتولون الجزء العملى . فأيقن أن المسألة في جوهرها أقرب إلى الاستعراض ابتغاء التدليل على رهافة الشعور ورقة الإحساس أو ابتزازا للمساعدة . ولم يكن يعنيه هذا أو ذاك ، إذ سرعان ما أشرف عمه المسئول الكبير في الداخلية على اختيار أفضل القائمين بالتدريس في دروس خاصة ليتولوا شرح المقررات الدراسية له ، حتى إنه حين دعاه بعض رؤساء الأقسام لمشاركة أبناء الأساتذة في مجموعاتهم الخاصة المتميزة المقصورة عليهم لم يحضر معهم سوى لقاءين تعرف فيهما على الأساتذة ثم انقطع إذ وجد مستواه عمليا يفضل أبناءهم بكثير ، كما أحس فيهم بنوع من التفاهة والافتعال والتنافس على جميلات الدفعة ، مما حمله - وهو ابن التاسعة عشرة - على الشعور بازدراء النمطين الفكرى والسلوكى .

لم يحس بحاجته إلى رفيق أو صديق ، كانت كل أموره ميسرة سواء في أيام الدراسة في القاهرة أو في الإجازات الخاطفة إلى مقر الوالد في مدريد ثم في باريس ، وكان يحس بسعادة ، وهو يجد نفسه فوق زملائه بمراحل شاسعة ، يسير في درب محدد لا يحتاج فيه إلى شيئ أو إلى أحد ، حتى بلغ السنوات النهائية التى يضطر فيها إلى التعامل المباشر مع المرضى في المستشفى ، ويزداد فيها الاحتكاك

بالزملاء ، ويتم فيها تحصيل القـدرة علـى إدراك الظواهـر وربـط الأعراض وتحليل أسبابها ذهنيا بسرعة مناسبة ، وتصبح الوسيلة المثلى للتعلم نقل الخبرة المباشرة بالاندماج مع المجموعة الصغيرة مع الطلاب الذين أصبحوا مجموعته ، يتحلقون مع أستاذهم حول سـرير مريـض يتداولونه بالكشف لتبدأ مرحلة التشخيص ، حينئذ أدرك أن مـن بينـهم فعلا من يفوق مقدرته على الاستيعاب والتحليل بالرغم من أنه لما تـم توزيع المجموعات آثر أن ينضم إلى مجموعة عادية لا تضم أحدا مـن أبناء الأساتذة . وبدأت علاقته تتوثق ببعض أفراد مجموعته وبدأ يعرف كيف يقضي الوقت معهم في المستشفى يتعرف على الحالات ويتـدرب على أساليب الكشف ويختبر نفسه في دقة التشخيص ، واكتشـف مـن خلال مشاركتهم عالما مجهولا من الأحلام الخاصـة التى تحرك كـلا منهم وكأنها بوصلة هادية ، ولم يحاول أحد منهم أبدا أن يسـأله عـن أحلامه . وبالرغم من يقينهم بأن المهنة تحيط بها ظروف قاسية فإنـهم كانوا متأكدين من أنهم يستحقون على الأقل بعض إن لم يكن كـل مـا يريدون . قال زميله البارز في المجموعة بعد أن انتهوا مـن دراسـة حالة معقدة ووجد نفسه يحسن تشخيصها : لقد ضاعت بالتأكيد عيـون كثيرة ، لكن ما زال أمامنا بعض العيون التى يمكن تحقيقـها ، ولمـا ضحك باقي أعضاء المجموعة باستثنائه تساءل وقد أحس بحرج عـن حكاية العيون فبادره أحدهم : لا تهتم أنت بها ، فمن المؤكد أن عيـون الدنيا جاهزة لك . أحس لحظتها أنه منعزل تماما . وأنهم برغم كل مـا يسم معاملتهم له من لطف وأدب يقيمون من جانبـهم سـواتر عاليـة تفصلهم عنه . تفجر بداخله غضب بداخله شيئ من الأسى ، حتى إنـه وجد نفسه مضطرا إلى زيارة بيت عمه في غير الموعـد الأسـبوعى المحدد ، رحبت به الأسرة الودود وفي عيونها تساؤل ، فوجد نفسه كمن

يعتذر عن الزيارة وبررها بأنه كان قريبا فأراد أن يسلم ، ولم يقل كلمة واحدة مما كان يعتمل في نفسه ، وفي الموعد الأسبوعى للزيارة لم يحضر ، واكتفى بعد ذلك بالتليفون معللا انقطاعه بتعارض الموعد المحدد مع مواعيد المستشفى • وترك الموقف أثرا غائرا على غير ما كان يتوقع • وحين فاتح زميله في المجموعة طالبا توضيحا قال له بهدوء : ليس في الأمر أى موقف خاص ، لكن الحقيقة أنك لست في حاجة إلى أحد على الإطلاق ، فقد ولدت وفي فمك ملعقة من ذهب ، أما نحن فمضطرون أن نحفر بأظافرنا في الصخر حتى نثبت وجودنا ، وبدلا من أن تخفف عنه الكلمات زادته ضيقا ، وتوهم أنه أراد أن يقول له إنك من طراز غير قادر على إثبات ذاته وأن ظروفه هى التى تمنحه وجوده ، وسأل نفسه : هل يريد أن يتهمك بأنك لا شيئ • ولما عاد لإثارة الموضوع مرة أخرى معه كان غاضبا ، وحمله انفعاله على أن يجرى مقارنة بينهما استقبلها زميله بهدوء معقبا : أنت فعلا ثمرة ظروف خاصة ، وهذه الظروف التى تعتمد عليها لن تمكنك من أن تختبر قدرتك الشخصية على الإطلاق • ولما ناقش أباه في الموضوع في زيارة سريعة لباريس قال له والده في أثناء العشاء بعد أن شاهدا عرضا للكوميدى فرانسيز • الولد الذى تتحدث عنه عاقل ، يعرف حدوده جيدا، لكن أنصحك بألا توثق صلتك به لأن مثله يمكن أن يملأ رأسك بالاضطراب بلا داع • لكنه تمنى في أعماقه أن لو كان صديقه ، وأن يكون قادرا على اجتياز الفجوة بينهما ، وإزالة الحواجز القائمة دون لقائهما على أرض مشتركة ، وحين عاد من جديد إلى المجموعة وجد بدلا من ذلك أن الفجوة قد زادت اتساعا ، والحواجز ازدادت ارتفاعا • ولما بدا محاولة إجراء حوار جديد معه نظر إليه مليا قبل أن يقول له بهدوء ، ليس هذا وقت الكلام ، فالامتحانات على الأبواب ،

ولما رد عليه : العلاقة الإنسانية لا تقل أهمية عن الامتحانات ، هز رأسه مبتسما في سخرية ليقول له : طبعا ، لأن مستقبلك مضمون أما نحن ففي عرض درجة واحدة • فأدرك أن الحواجز لن تزول مهما فعل ، تلفت حوله فلم يجد واحدا يستطيع أن يدعى لنفسه أن علاقته به ثمرة خبرته الخاصة ، فلم يكن حوله ممن يعرف سوى أسرته ، وأقاربه المباشرين ، تمنى أن يستطيع زيارة أى منهم دون أن يحدد موعدا سلفا لكنه وجد نفسه عاجزا ، فالتقاليد قد أصبحت جزءا من كيانه • وحين حادث أسرة عمه بالتليفون ليزورها جاءه صوت عمه مرحبا قبل أن يردف ليطمئنه كعادته : أعرف أن الامتحانات على الأبواب ، لكن لا تخش أى شيئ • فقد آن لجدك العظيم أن يبعث من جديد على يديك ، ونحن جميعا في انتظار هذه اللحظة وقد أعددنا لها عدتها ، اطمئن تماما • لكنه لم يطمئن وعربدت في رأسه الأفكار التى تدور حول أسئلة لم تكن تحظى من قبل بعناية : من أنت ؟ ماذا تريد ؟ ما هى قدرتك الخاصة لتحقيق ما تريد ؟ وبدلا من أن يذهب إلى بيت عمه نقل إلى المستشفى بعد إصابته إصابة خطيرة في حادث سيارة ، ومنها نقل إلى أكبر المستشفيات الخاصة ، والتقى حوله في غرفة العمليات أعظم الجراحين ، ولحق بهم جراح فرنسى بارز وصل بطائرة خاصة بصحبة أبيه ، وظل بضعة أيام في غرفة العناية المركزة ، وقال الأطباء المتابعون لحالته المتذبذبة : إن الطب قد أدى ما عليه ، وإن أهم العوامل بعد ذلك يتمثل في إرادة الحياة • لكنه - واحسرتاه - لم يكن يريدها •

العامل الثالث : الغربة الاقتصادية :

للعامل الاقتصادى بصفة عامة آثاره المباشرة في مختلف جوانب الحياة الإنسانية : سياسيا وثقافيا واجتماعيا وأخلاقيا وسلوكيا ، ولا يستطيع أحد أن يغفل أثر الأوضاع الاقتصادية العامة في العلاقات بين الدول غنيها وفقيرها ، قويها وضعيفها ، ولا يملك أن يهمل تأثيرها في تحديد العلاقات بين الطبقات والفئات في إطار كل دولة على حدة ، ولا في نطاق أى طبقة أو فئة ، والذين يغفلون هذا التأثير إما مكابرون وإما واهمون • ولا ينبغى أن يفهم من هذا أن الاقتصاد هو العامل الوحيد المؤثر القادر على صياغة الاتجاهات في هذه المجالات ، فهو في تقديرى من أهم هذه العوامل إن لم يكن أهمها ، وإن وجد إلى جواره عوامل أخر فإنه يظل العنصر النشط الذى يجعلها تتفاعل معا ، وبتفاعلها تتشكل الاتجاهات وتتبلور حركتها وتتحدد قوتها •

وإذا كان للأوضاع الاقتصادية العامة تأثيرها العام بشكل مباشر على مستوى الدول والطبقات والفئات فإن لها تأثيرها غير المباشر على مستوى الأفراد ، من حيث هم جزء من النسيج العام المتأثر بالضرورة بالأوضاع العامة • والأوضاع الاقتصادية الخاصة بالأفراد هى البوتقة المباشرة التى تنقل بشكل أو بآخر التأثيرات العامة ، وهكذا يمكن القول بأن الاقتصاد في بعديه : العام والخاص له تأثيره المباشر وغير المباشر في بناء الفرد وتشكيل مكوناته •

ومواقف الأفراد تجاه الأوضاع الاقتصادية الخاصة المتأثرة بالضرورة بالأوضاع الاقتصادية العامة تتعدد :

فأولها : **موقف الرضا** ، وهو موقف الطبقة العليا المنتفعة ببقاء هذه الأوضاع ثابتة دون تغيير ، إذ هى صاحبة المصلحة المباشرة في

ذلك ، لأن أى تحريك لهذه الأوضاع لابد أن يسفر بصورة أو بـأخرى عن توسيع دائرة الملكية بحيث يمكن أن تضم عناصر من فئات أخرى ، ومعنى هذا عندهم انخفاض المستوى • ومن المؤكد تاريخيا أنهم على استعداد للقتال من أجل استمرار أوضاعهم ومصالحهم •

وثانيها : **موقف القبول** ، وهو موقف الذين ينتمون إلى الطبقة الوسطى ، أو على وجه الدقة موقف الشرائح العليا من هذه الطبقة ، بحكم حرص هذه الشرائح على ضمان بقاء مقدرتهم الاقتصادية -- وإن كانت في حدود دنيا - وتشبثهم بالبقاء في إطار انتمائهم الطبقي الذى يعطيهم في تصورهم نوعا من التميز على من دونهم •

وثالثها : **موقف الاستسلام** ، وهو موقف الأفراد الذين يعيشون في نطاق خط الفقر ، ويعود سبب هذا الاستسلام إلى أنهم غالبا قَدَريون ، يخلطون في تفكيرهم بين الحقائق والأساطير ، ويعيشون قي عالم من الأوهام يسوغ لهم ما هم فيه ، قد يحاولون في بعض الأحيان الرفض لكنهم سرعان ما يعودون إلى الاستسلام ، يتصورون أن استمرار الأوضاع مسألة قهرية ، حتمية ، ضرورية ، لا مناص منها ، وقد يربطون ذلك بمقولات دينية بغية التقبل ، إذ قد يرون أن أى محاولة لإعادة تشكيل الواقع بالثورة عليه كما لو كانت مخالفة لما قضت به المقادير ، ومن ثم محكوم عليها سلفا بالفشل •

ورابعها : **مواقف الرفض** ، وهى تتراوح بين السخط والغضب والتمرد والثورة • وباستثناء الثورة فإن هذه هى مواقف الأفراد والفئات الذين يقفون على الحافة في كل طبقة أو فئة • وهى مواقف تختلف في مجملها باختلاف الموقع والهدف المباشر • وتلتقى الثورة مع السخط والغضب والتمرد في مجمل الرفض ، لكنها تتميز عنها بأنها موقف

الفئات والجماعات والطبقات الأوسع عددا والأقدر حركة والأفسح أملا، وذلك لتوافر عناصر ثلاثة فيها ، وهى : وجود طليعة ثورية مثقفة مستنيرة قادرة على تحديد الأهداف المرحلية والنهائية ، ووجود قاعدة جماهيرية واسعة صاحبة مصلحة أساسية في التغيير الجذرى ، ووجود تنظيم قائد يتولى إعادة صياغة الواقع بما يتفق مع الأهداف المحددة من أجل مصلحة الجماهير تنفيذا لإرادتها واستجابة لآمالها .

* * *

ومحور هذا النمط من الغربة المسلمة إلى الاغتراب المعنوى يدور مع الغنى الفاحش والفقر المدقع ، فكل منهما يؤدى إلى الإحساس العميق بالاغتراب عن الآخرين والعزلة المحكمة التى لا مجال فيها لتواصل ، أما الذين يتميزون بالثراء الفاحش فلأنهم يرون أن لديهم من القدرات والطاقات ما لا يمكن لأحد أن يمسه مهما فعلوا وفعل ، وأنهم بحكم إمكاناتهم الهائلة يستطيعون السيطرة على ردود الأفعال ما كان منها متوقعا وما لم يكن ، وتعيش في كنفهم مجموعات من الطفيليين والانتهازيين تزين لهم أفكارهم وتحسّن لهم سلوكهم ومن ثم لا يبالون بما يعملون . وفي ضوء هذا نجد كثيرا من صور الإنفاق السفيه والمستفز ، والمشروعات الخرقاء الممعنة في تحدى مشاعر الأسوياء من الناس ، والثراء الفاحش في هذا لا يقل فسادا عن السلطة المستبدة ، فإذا اجتمعا معا نتج عنهما أكثر الأشكال سفها وحماقة وغيا . ولفسادهما تجلّيات شتّى ، أسوؤها ما يمس جانبين : الجانب الأول النظم التعسفية الناتجة عن العقول الخاوية والتى تتوهم في الوقت نفسه قدرتها على إعادة صياغة الكون كله وفقا لمقولات بلهاء لم تتعلم من حقائق التاريخ وتجاربه ، ولم تدرك أبدا أن اللحظة مجرد حلقة وصل بين سابقة لها ولا حقة عليها . ومن ثم تحاول بتر السوابق واللواحق والقفز

في الفراغ المطلق غير عابئة بما ينتج مـــن ضلالاتـــها مـــن إهـــدار للإمكانيات ، واستنزاف للطاقات ، وتضييع للفرص المتاحة من أجـــل التقدم • والجانب الثانى التأثير السلبى في قيم المجتمع ومقوماته وإشاعة أنماط من الفساد فيه بحيث يصبح هو الأصل ، وسواه استثناء • وفـــي هذا الإطار تضمحل قيم الحق والخير والجمـــال والأمانـــة والصـــدق والثقافة والشرف والترفع عن الصغائر لتحل محلها قيم الثراء والنجـــاح الاجتماعى بما يعنيه من الوصولية والانتهازيـــة • ويقـــوم المثقفـــون الفاسدون في مجال تقرير انحراف النظم وتبريرها وتأكيد القيم الفاســـدة وتسويغها وإشاعتها بدور شديد الخطر ، وفي تقديرى أن هذا النمط مـــن المثقفين أكثـــر خطرا من أشد الأغنياء ســـفها وأعتـــى الدكتـــاتوريين استبدادا ، لأن المثقف الفاسد يقوم بمهمة قذرة في التدليـــس والـــتزوير وتجميل الوجه البشع لسفه الاستبداد واستبداد السفه بادعاءات كـــواذب عن الذكاء والعبقرية والقدرة على ابتكار الطرق والأساليب التى تدغدغ أحـــلام البسطاء وتمنحهم شيئا محدودا من الأمل وطرفـــا باهتـــا مـــن الرضا •

وأما الذين يعيشون في دائرة الفقر المدقع فإنهم بدورهم يتعرضون لضغوط شديدة القسوة وعناء بالغ الإرهاق ، فينتقل مَن لديـــه اســـتعداد منهم إلى الإحساس بغربته عن الجماعة وانقطاع صلته بها ، ويعود هذا الانقطاع الذى يعد المحور الأساسى للاغتراب عند هؤلاء الأفراد إلـــى سببين أساسيين ، أولهما اليأس المطبق وتلاشى جميع الآمال وسقوطها ، فلا يجد في حياته ومضة واحدة تمنحه شيئا من الأمل ، إن لم يكن فـــي يومه ففى غده ، وإن لم يكن على المستوى المـــادى فعلـــى المســـتوى المعنوى • ولكن اليأس وحده غير كاف للإحساس بالاغتراب بل لابـــد معه من عامل آخر بالغ الأهمية ، وهو اللجوء إلى التمرد وسيلة لإعلان

احتجاجه على وضعه الخاص ، والتمرد على هذا النحو أسلوب تعبير مباشر ضد الظروف المحيطة المحبطة ، وهو لذلك قرين اليأس وملازم له ، وهو بذلك عكس الثورة فإنها قرينة الأمل ، هو الذى يحملها على جناحيه من عالم الأفكار والرؤى إلى دنيا الحقيقة والواقع • والسلطة في المجتمعات المتخلفة تدفع الفقراء إلى التمرد بما تسلكه من سياسات وما تقدمه من نماذج دون أن تكون هناك الطليعة المثقفة الواعية القادرة على مواجهة اليأس بالأمل ومصادرة التمرد بالثورة •

* * *

الخادم

"الخادم" هو لقبة المختصر ، وتكملته عن حاشيته والمنتفعين به "خادم البقاع الشريفة" في محاولة لتجميل صورته ، أما تكملته عند أعدائه - وهم كثر - فتضم أمرين لا اختلاف فيهما وإن اختلفوا في ترتيبهما للدلالة على أهمية المتقدم منهما ، وهما : نزواته الشخصية من ناحية ، وسياسات العم سام من ناحية أخرى • وأما المحققون ممن يحللون ويدققون فيرون أن مشكلته الحقيقية في نزواته وحدها ، أما السياسة فلا شأن له بها ، لأنه كسائر جماعته لا يفهم فيها شيئا ، وما يبدو له على سطح الأحداث من مواقف ليس إلا بناء على سيناريو موضوع سلفا ، وهو سيناريو عريق معروف يتسم بالثبات والاستقرار ، وهو كغيره ممن كان على شاكلته في بلده ومنطقته ، ليس له فيه إلا فضل التمثيل ، إن كان لهذا النوع من التمثيل فضل •

يقال عادة عن الذى ورث غناه : ولد وفي فمه ملعقة من ذهب ، لكن هذا القول ليس دقيقا عن "الخادم" ، فمنذ جيل واحد ما كان لسلفه حتى ملعقة من صفيح ، لكنه بضربة حظّ مغامرة آزرتها خيانة زوجة مقامرة تحول من راع يجوب الصحراء بحثا عن طعام ومأوى إلى وارث يرث الأرض وما تحتها ، تاركا لغيره ممن فوقها فضلة لا يمنحها إلا بعد أن يشبع ويرتوى ، وهكذا بين عشية وضحاها صار بنوه وأحفاده الكثيرون من بين أغنى أغنياء الدنيا ، لكنه غنى المال لا العقل • وثراء الجيب مع فراغ العقل جدير بحماقات تعد من العجائب • قال ضاحكا يفخر عقب أن قدم إليه واحد من المستشارين الماليين في مكتبه تقريرا ماليا : عندى من الأموال ما يفوق بالقطع ما كان لدى قارون ، فما كان عند قارون محصور وإن نـاءت بحمل مفاتيحه العصبة أولوا القوة من الرجال ، أما ماعندى فتنوء بمجرد حصره العصبة أولو القوة من الأمم •

في شرفة قصره الفاخر على ضفاف بحيرة جنيف جلس ينظر إلى الغابات الكثيفة المحيطة وقد انعكست صورتها على المياه فتداخلت المشاهد واختلطت الألوان وامتزجت في صورة لا تعرف من أين تبدأ وإلى أين تنتهى ، هل كان ما أحسه المتعة أو الملل حين استدعى كبير حاشيته ليقول له آمرا : أريد أن أرى الجنة في الدنيا حيث أنا الآن ولن أنتظر حتى أراها في الآخرة • وخلال ساعات محدودة أقبلت طائرات خاصة من أركان الدنيا الأربع تحمل مجموعات ضخمة ضمت عازفين ومغنين وراقصات وراقصين وجوارى وغلمانا من كافة الأشكال والأعمار والألوان ، وشهد القصر حفلات أنس وطرب اختلط فيها الليل والنهار والسكر واليقظة والنوم والصحوة وسال الشراب فيها أنهارا من الفودكا والاسكوتش والشمبانيا والنبيذ ما كان منه معتقا وما لم يكن ، ما

كان منه خالصا لا تشوبه قطرة وما كان منه مخلوطـــا تتداخـل فيــه الأنواع وتمتزج ، ما كان منه صافيا كالماس يتلألأ وما كان منه داكنـــا كالغسق يتألق • وفي غمرة سكرته صاح : أين الحور العين ؟ وكأنمـــا كان كبير حاشيته يتوقع ، ففى لحظات كنَّ بين يديه كما ولدتهن أمهاتهن إلاغلالات رقاق تشف وتغرى ، ردّد بصره بينهن قبل أن يسأل : أيـهن تحل لى ؟ فأجابه كبير حاشيته بأنهن جميعا حل له ، ولما ســـأله عـن السبب أردف : لأنهن جميعا ملك يمينك يا مولاى •

في اليوم التالى قال لكبير حاشيته : أجمل شيئ عندى وألذ متعـــة لدىً هـــى النظر ، أريد أن أرى من حيث لا يروننى ، وكـــان مطلبـــا يسيرا ، إذ استدعى كبير الحاشية بعض كبار المسئولين في بلده علـــى عجل ، وأمرهم أن ينفِّذوا ، وما هى إلا أيام حتى أزيلت حوائـــط فـــي داخل القصر وأقيمت حوائط ، وسحبت أجهزة وأضيفت أخرى ، وصار في وسع "الخادم" أن يَرَى ولا يُـــرى ، وأن يّسـمع ولا يُسـمع ، وأن يستدعى من يشاء بلمسة إصبع دون أن يَسمع صوته أحد ، وظل الخادم أسبوعا يجرب متعته الجديدة ، انقطع لها وعكف عليها ، لكنه ما لبـــث أن أصابه الكدر بعد أن أدرك أنهن عرفن بأنهن تحت النظر ، فحرصت كل منهن على ألا تبدى وهى في غرفتها إلا ما تحب له أن يراه منـــها ، ولما أصدر أمره ألا تبقى إحداهن في غرفتها إلا عارية لـــم تســتغرق متعته الجديدة إلا أياما أدركـــه بعدها الملل • كــــان يريـــد منـــهن أن يتحركن ، وأن يتهارشن ، وأن يصخبن ، ولما قال له كبـــير حاشـــيته ضاحكا ربما ليبرر عجزه عن ملاحقة نزواته : ليس في الجنة يا مولاى شيئ من ذلك ، رد عليه بحدة : خسئت ، في الجنة كـــل مـــا تشـــتهيه الأنفس وتلذ الأعين ، فكرِّ ونفِّذ ولا تعترض على شيئ بعدهـــا أبـــدا ، وجمع الخبراء يفكرون فيما هو مطلوب وفيما يحتمل عقبه أن يطلـــب ،

وجربوا وسائل كثيرة ، كانت تحظى برضاه برهة ثم يقلع عنها مللا ، إلى أن استقر رأيهم على أن يبتكروا له شيئا يطول انتظاره وينأى معه ملله ، فتوصلوا إلى فكرة بناء اليخت الأسطورى ، الذى جمعوا له وحشدوا فيه ، واستغرق بناؤه في روتردام اثنين وعشرين شهرا ، ثم استغرق تجهيزه خمسة وثلاثين شهرا ، وبلغت تكاليفه ثلاثة مليارات وبضع مئات من ملايين الجنيهات الاسترلينية ، ومنح الذين شاركوا فيه : تصميما وتنفيذا وتجهيزا مكافآت وصلت إلى سبعمائة وخمسين مليونا من الجنيهات ، بخلاف مائة مليون أخذها مصمم المسابح السرية ذات الأمواج الصناعية والوسائد الذاتية الدفع المتحركة بالإشعاع الموجه ببصمة حدقة العين . قال بعد أن تفقد جانبا منه قبل أن يأذن بانطلاقه إلى بحر القلزم : هذا بالضبط ما كنت أريده . بادره كبير حاشيته كأنما يطمئنه على أن يطلق لخياله العنان : وكل ما رأيته يا مولاى يسير بالقياس إلى ما تبقى .

* * *

الزعيم

○ "المنتصر العظيم" هو لقبه الذى أطلقه على نفسه مع أنه لم يدخل في حياته معركة واحدة ، حتى استيلاؤه على السلطة لم يكن ثمرة معركة بل كان في صورة انتقال عادى للسلطة طبقا لتقاليد البلدان المتخلفة : بضع دبابات تخرج من معسكرها في الليل لتحيط بمبنى الإذاعة والتليفزيون ، ويمضى بعضها في جولات حرة في الطرق والميادين ، ثم إعلان البيان الأول دون إطلاق رصاصة واحدة من أى سلاح ، إلا بضع رصاصات يطلقها في الهواء الزعيم المنتصر العظيم

ابتهاجا بالنصر • كانت الثمرة إذن دانية ، ولو لم تمتد إليها يده لسقطت وحدها في أى يد ، لكن لا يجوز أن يقال ذلك ، ويجب أن يصوّر الأمر على أنه نجاح للتخطيط السياسى والعسكرى العبقرى الذى حوّل مجرى التاريخ وغير مصير الدنيا ، وتواصل الأحلام رحلتها المحلقة ، بـــدءا من محاولة فهم التجربة الإنسانية في أطرها المتعددة دينيـــا وسياســيا واقتصاديا واجتماعيا ونفسيا وأخلاقيا وسلوكيا ، ويلجأ إلى أسلوب مبتكر لا يحاول فيه أن يقرأ ولا أن يتعلم ، فليس ثمة وقت للقراءة ولا للتعلم ، يكفى أن يجلس بضع ساعات مع بعض المفكرين لينقلوا إليـــه رؤيتـــهم الخاصة فيصبح هو المحيط الأعظم ، وصولا إلى أن من حقه أن يفكــر فيما لم يفكر فيه أحد وأن يقرر ما يلغى التاريخ الإنسانى كله من نظـــم وأساليب ، إنها العبقرية العظمى التى نجحت من قبل وستنتجح من بعـد ، ثم يصور الأسس النظرية في فكره المنطلق في نشرات ملونة ما تلبث أن تصبح كتبا مقدسة ، يتبعها بتطبيقات عملية تمس كل شيئ إلا شـــيئا واحدا لا تستطيع أن تقترب منه ، هو سلطته الشخصية التى يتخذ بـــها كل القرارات باعتباره الأخ الأكبر المهيمن الـــذى فوضتـــه جمـــاهير الكادحين في العالم كله تفويضا مطلقا من قيود الزمان والمكان ، وفـــي الوقت الذى يصبح فيه الحرمان لصيق الأرض الغنية بثرواتها الطبيعيـة حتى إن الكثيرين من أوساط الناس يعيشون لا يجدون ما يحلمـــون بـــه غير دعوة إلى زردة يتاح لهم فيها احتساء طاسة شاهى يقوم المنتصـــر العظيم في هذا الوقت نفسه بدعوة الآلاف من كل الأصقاع ليدرسوا كـل عام مرتين أو ثلاثة إنتاجه الفكرى الخلاق ، وتجربته العملية الرائـــدة ، وليسهموا معه في التبشير بمستقبل جديد للإنسانية فـــي ضـــوء هديـــه العظيم الذى يحقق للبشر ما عجزت عنه كل الأنظمة وما فشلت فيه كـل الأديان •

التقيت بصديقي الذى يشغل مكانة مرموقة في علم الاجتماع السياسي حين علمت أنه تلقى دعوة شخصية من المنتصر العظيم للمشاركة في بعض هذه المؤتمرات مع صفوة من العلماء والمتخصصين وسألته : هل ستشارك فعلا ؟ فردّ مبتسما : ولم لا ؟ علينا أن ندرس جميع التجارب الإنسانية ، وهذه تجربة حية فما الذى يحول دون مناقشتها ، ولما عاد عدت أسأله : ماذا كانت نتيجة رحلتك ؟ صمت طويلا ثم قال : التجارب الإنسانية يجب أن تكون في نطاق محدود بحيث لا تدفع الشعوب ثمنا باهظا لها . قلت له : كأنك تتحدث عن النتائج العملية دون أن تعرض للأسس النظرية ، قال ساخرا : وهل يستطيع إنسان أن يناقش نبيا ، فزعت مستفسرا فأضاف : لقد كنت أتصور أنه يفكر ، وأن أقصى أحلامه أن يكون فيلسوفا ينظّر ، لكنه تجاوز هذه المرحلة ، يحدق في السماء مليا متجاهلاً من حوله وما حوله ثم يبدأ حديثا غير محدد ، ما يلبث بعده أن يهدر دون أن يتوقف ، تحيط به زمرة من الذين يزينون له أن يكون نبى عصرنا الذى يحدد مصير الكون . والمخجل حقا أنه يصدّق دون أن يخطر بباله للحظة واحدة أنه لا يفقه أى شيئ فيما يقول في الفكر ولا في السياسة . قلت أما في الفكر فنعم او أما في السياسة فلا ، فهو أطول الحكام العرب تربعا على كرسى السلطة ، أو على حسب تعبير زميله في جنوب شبه الجزيرة : هو عميدهم ، قال : وهذه هى الكارثة ، فهم جميعا من نفس النمط ، منذ يحتل أحدهم الموقع وليس ثمة من يحاوره أو يناقشه ، بل يجد الجميع يمجدون آراءه ويسبحون به ، حتى بات كل منهم خاويا من كل شيئ لايرى إلا نفسه وحدها . ويل لأمة هؤلاء قادتها .

* * *

لبّيك… لبّيك

ـــــ

"المظلوم" هو اسمه وأقرب إلى أن يكون وصفه أيضا ، أطلقه عليه أبوه منذ ولد في رحاب البيت الخشبى في منطقة عزل المهمَّشين من "البدون" الذين فقدوا بوجودهم الطويل في هذه الدويلة الخليجية صلاتهم ببلدانهم الأصلية التى قدم منها ذات يوم أجداد لهم وآباء ، وفقدوا بفقدها وجودهم نفسه كما فقدوا انتماءهم ، فلم يعد في وسع أى منهم أن يحدد لنفسه هوية واضحة ولا أن يجد له ذاتا معترفا بها ولا أن يحس بكيان إنسانى ثابت لا تتناوشه سهام الرعب من المهمشين الآخرين الذين لا يملكون غير الجنسية لكنهم يملكون بها أسوأ ما يمكن أن يملكه مهمَّش معدوم القدرة : الكبرياء الزائفة والتنفج الكاذب وادعاء العظمة والرغبة في إذلال الآخرين تنفيسا عن ظلم غير محدود وانسحاق ليس له حدود ، إذ تقصر قدرتهم عن التنفيس في أى موضع إلا معهم ، فالآخرون إما شيوخ أو على اتصال بهم من حاشيتهم وذيولهم أو في أسوأ الأحوال ينتمون إلى قبيلة تشد ظهورهم وتدعم وجودهم ، وإما أنهم يملكون من الثروة ما يشترون به رضا الشيوخ وحواشيهم وذيولهم ، فلا يجد هؤلاء المهمَّشون الوطنيون غير من كان على شاكلتهم من البدون ينالون منهم وينفِّسون فيهم • وهكذا نشأ المظلوم ، لا يمارس حياة طبيعية في أى لحظة أو موقف ، بل شأنه شأن سواه ممن فقدوا الوجود والانتماء • كل شيء حوله محظور ، التعليم والعلاج والتجول في غير منطقة العزل ، فإذا اشتد عوده امتد نطاق الحظر ليشمل الكلام عن الأوضاع الخاصة أو العامة والحوار مع مستويات السادة على اختلاف درجاتها والتعليق على أى موقف والرد

على أى كلمة ورفض العمل في ظروف غير إنسانية والأمل في تحسين الوضع والحلم في الاستقرار وفكرة الاندماج في الأرض أو العودة إلى أرض شهدت ذات يوم بعيد جذورا أورعت أغصانا .

لم يكن قد بلغ العاشرة حين اصطحبه أبوه معه ليدربه على العمل كما فعل جده من قبل مع أبيه ، وكان العمل في منطقة صحراوية عازلة ومعزولة ، ودرجة الحرارة في الظل تتجاوز الخامسة والخمسين ، ولم تكن العملية الفنية في ذاتها شاقة . فهى ليست أكثر من عملية لحام بالكهرباء لخزانات البترول من الداخل ، ولكن الظروف التى تتم فيها والمخاطر التى تصحبها هى التى تجعلها خطرا حقيقيا ؛ فدرجة الحرارة في الداخل حيث تتم العملية تتجاوز السبعين ، وبقايا الأبخرة المختزمة والصدمات الكهربائية المحتملة والرجل معلق على ارتفاع يتجاوز ثلاثة طوابق يجعل أى رد فعل غير محسوب طريقا سريعا إلى التهلكة . ومع أنه كان يحلم لابنه بمستقبل آخر ويتمنى ألا يمارس نفس العمل إلا أن الحلم يذوى حتى يموت ، وتصبح الأمنيات ضربا من الأوهام ، التفت الوالد إلى المظلوم قبل أن يتعلق بالونش الذى يرفعه إلى أعلى ليدليه في الداخل وقال كأنما يوصيه : تذكر دائما شجاعة أبيك ، وابتلع ريقه كأنما ذكرته العبارات بموقف مشابه مرت عليه سنوات طوال ، وأغمض عينيه برهة كأنما يصرف نظره خشية تكرار التجربة ثم أضاف : عليك أن تكون شجاعا وثابتا . فلو انتابك الخوف لحظة واحدة لدارت رأسك ، ولو دارت رأسك فإنك حتما ستسقط . هل توهَّم الرجل أنه ليس للموت إلا طريق واحد ، بالرغم من ثباته وشجاعته وعدم سقوطه فإنه مات داخل خزان ، قال زملاؤه إنه لم يكن قد تم تفريغه تماما من الأبخرة حين أُمر بالدخول فاختنق وظل معلقا لا يحس به أحد فترة طويلة كانت كافية لتوقف مخه عن الحياة ،

وقالت الشركة التي يملكها أحد الشيوخ في وثائقها الرسمية إنه خطأ شخصي منه لأنه دخل دون أن يحسن ربط القناع الواقي من الغازات ، ولكنها تفضلت فعينت "المظلوم" - وهو ابن ثلاث عشرة سنة - فنيا تحت التدريب حتى يكفل لقمة عيش لأفراد أسرته الستة ، وحين سمع المظلوم خطيب الجمعة يدعو إلى الإيمان بقضاء الله وقدره ، بقي بعد انتهاء الصلاة ليسأله : هل يمكن أن يكون القدر ظالما ، عنّفه الشيخ ودعاه إلى الاستغفار ، لكنه بدلا من ذلك قال : يا شيخ ، أبى عاش مظلوما ومات مظلوما ، ولابد أن يكون هناك ظالم ، ولما رد عليه الشيخ بأن حساب الظالم عند الله يمكن أن يعاقبه في الدنيا ويمكن أن يؤجل عقابه إلى الآخرة ، عقب الفتى اليافع ولكنكم تتحدثون عن القصاص ، فمن يقتص للمظلوم من ظالمه ومتى إن لم يكن في الدنيا • وبدأت رحلته مع العذاب ، ولم يكن عذابه محصورا في مجرد حمل أعباء أسرة كبيرة العدد تعيش وسط خضم الضياع في عالم فقد كل إحساس بالبدون ، بقدر ما كان صادرا عن يقين لم يتزعزع بأن القدر ظالم له ولمن على شاكلته إذ يجعلهم يدفعون وحدهم ثمن ترف المترفين الذين لا يبالون بأن تنشر أنباء سفاهاتهم في الخسائر على الموائد الخضراء أو الانفاق على السهرات الحمراء ، مع أن ليلة واحدة منها كفيلة بأن تنقل عشرة آلاف من المهمّشين من حال إلى حال • وحين سأل الشيخ مرة أخرى بعد صلاة الجمعة عن العدل في الدنيا أجابه غاضبا : العادل هو الذى يقرر موضع عدله وزمانه وليس أنت ولا غيرك من أصحاب العقول القاصرة عن إدراك الحكمة ، هل كانت أمه تدرك عمق ثورته وقلقه فأرادت أن تحل مشكلته بطريقتها الخاصة ، عرضت عليه أن يتزوج قائلة : أبوك تزوج في مثل عمرك ، ومنذ مات لم يشهد بيتنا فرحا ، وقد آن الأوان لكى نفرح بك ، وأبلغته بأنها بحثت له عن عروس جميلة

حتى وجدتها، فتاة من أسرة طيبة، وقنوع ، ولن تكلفه الكثير • لم يكن بحاجة إلى أن يسألها عن جنسيتها لكنها مع ذلك أضافت : إنها ذات أصول إيرانية ، وهى في حارة قريبة ومن الممكن أن تراها لنتفق على التفاصيل ، بدلا من أن يفرح انتابه الفزع ، أحس بأن الساقية التى التهمت عمر جده وأبيه توشك أن تلتهم عمره أيضا ، وسيأتى بعد ذلك الدور على ابنه من بعده ، رفض بحسم وقال لها إنه يؤثر أن يسافر للحج ، انتابها العجب فأضاف : هناك حملة تعدها الشركة ، وسأكون أحد الفنيين المرافقين لها • وسافر مع الحملة برغم ما خلّف وراءه من بكاء •

جلس قبيل الفجر يتأمل باب الكعبة والملتزم وقد تعلق فيه العشرات ، وفي المطاف طوفان يلبى ويتضرع ، تسلل إليه برغم الأصوات الهادرة صوت من قريب لشاب وسط حلقة صغيرة يعظ ، التقطت أذنه عبارات مختلفة ، وكلمات ليست كالكلمات مع أنها هى ، العادل حرم الظلم على نفسه وجعله بين عباده محرما ، فمن ظلم غيره أو قبل أن يظلمه غيره فقد خالف شرعة الله ومنهجه ، اقترب من الحلقة ووقف يسمع متأملا الشاب المتحدث ، كان صغير السن لا يتجاوزه إلا بسنوات قلائل ، في صوته خشوع غير مفتعل ، وفي عينيه حزن غير كاذب ، أشار إليه الشاب أن يجلس فجلس وهو يسأل : وماذا نفعل في مواجهة الظالمين ؟ ردّ الشاب بثقة : نقاتلهم • من جديد سأل : وبماذا نقاتل ؟ أجابه من غير تردد : بكل ما نستطيع ، بالقلب واللسان واليد جميعا • ولما قال أحد الحاضرين كأنه يعترض : إنما هى درجات مختلفة ، تتفاوت حسب الطاقة • قال الشاب بحزم : بل هى متضافرة تتآزر على دحض الظلم ، فالمؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف • واستمر يتحدث • ولم يكد المؤذن ينادى لصلاة

الفجر حتى كان أقرب إليه من كل من حوله ، ولما انتهت الصلاة أمسك بكفه قائلا : لقد فتحت كلماتك المؤمنة قلبي ، وقد عرفت بها طريقي ، فهلا زدتني ، ضمه الشاب إلى صدره برفق وربت على ظهره وهو يقول : نلتقي إن شاء الله • والتقيا ، ولزمه ما تبقى من الموسم ، ووجد نفسه كتلك المجموعة الصغيرة المحيطة به لا يستطيع أن يفارقه أو يفارقها ، وحين جاء موعد السفر جلس إليه يستأذن وقد ودّ في أعماقه أن يبقى ، قال له : نلتقي إن شاء الله في الموسم القادم ، أمسك المظلوم بيده معاهدا فتابع الشاب : واجب علينا أن نعلن رفض الظلم والظالمين ، وأن يكون رفضنا من القوة بحيث يهز النائمين ويدوى في آذان الذين يكتفون بعبارات التهليل والتكبير والتسبيح والتلبية ، دون أن يدركوا أنها مدخل إلى العمل وطريق إلى الجهاد • وحين عاد إلى أسرته الصغيرة القابعة في البدون كان شخصا آخر ، كل عمله أن ينتظر الموسم ، وبذل جهدا أسطوريا ليصحب الحملة الجديدة ، ولما انتهى الموسم قرر فراق الحملة والبقاء في الحرم استجابة لقرار شيخه الشاب الذى رأى أنه قد آن الأوان للإعلان المنشود • في الليلة الموعودة التى اختارها الشيخ الشاب للتنفيذ وقف في ساحة الحرم ووجهه إلى باب الكعبة والملتزم ، وأمسك بمكبر الصوت ليقول بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله وآله وصحابته : الحرم محور العالم الإسلامى والكعبة قبلته ، وقد أمرنا الله أن نطهره من دنس أعداء الدين من الكافرين والمفسدين والظالمين ، الذين في الباطل يخوضون ، وفي الضلال يعيشون ، وبالأكاذيب يخدعون ، إنهم أيها الأحباب قادرون على أن يرمونا بتهم كواذب ، وسيرجفون بما يعتمل فيهم من إثم وعدوان • وما يزينه لهم كفرهم من فساد وظلم وطغيان ، لكن ذلك لن يفت في عضد المؤمنين الصادقين ، الذين لرفعة كلمة الله يجاهدون،

ولنشر نوره يعملون ، وإلى الشهادة في سبيله يسعون • أيها الأحبـــاب في كل مكان من عالمنا الإسلامى ، على بركة الله أغلقوا الأبواب فـــي وجه سدنة الكفر والطغيان •

* * *

لما فصل السياف الرءوس عن الأجساد بعد أن اقتحمــت الحــرم فرقة أجنبية خاصة بكى الناس ، من كان منهم حاضرا في ساحة العـدل ومن لم يكن ، قلت حين سمعت أن شهيق الناس بلغ أقصاه وارتفع إلـــى عنان السماء حسرة وجزعا وهم يـــرون أن رأس المظلـــوم تـــأبى أن تنفصل إلا بعد ضربات ثلاث : ومتى كان البكاء كافيا في التكفير عـــن القصور والتقصير ، إن الذين بكوهم من أقصى الأرض إلى أقصاها هم الذين أسلموهم ، حسابهم عند رب العالمين ، ويجب أن يكون كذلك على أيدى الموحدين •

* * *

العامل الرابع : الغربة الفكرية :

تأثير الغربة الفكرية في خلق حالة الاغتراب المعنوى يوشـــك أن يكون من الحقائق الثابتة ، فالتجارب التى تمت على المستويات الفرديـة والجماعية تسلم إلى تأكيد هذا التأثير ، والحقائق والوقائع مـــن ناحيــة أخرى توضح أنه لا يأخذ طابعا واحدا ولا نمطا محددا ، وإنما يتفـاوت بتفاوت حالاته ويختلف أثره باختلاف أسبابه ، ومن ثم تتعدد درجـــات هذا التأثير وما له من نتائج ، يمكن القول إذن بأنه - برغـم التفـاوت والاختلاف ثمة قدر مشترك يتمثل في خلـــق حالـــة مـــن الإحســاس بالانقطاع الفكرى عن الآخرين ، وفقدان القدرة على التواصل معـــهم ، والاستسلام إلى تصور عدم وجود أرض مشتركة أو معابر يمكن اللقـاء عليها . وفي ضوء هذه الحالة يركن الإنسان الفرد إلى ما يعد يقينا ثابتا عنـده ، وهو أن شواغله مخالفة لشواغل غيره ممن يحـس بالغربـة عنهم ، واهتماماته بمعزل عن اهتماماتهم ، وقضاياه ليست قضايـاهم ، ويمنحه هذا اليقين مع الإحساس بالعزلة الفكرية شعورا عميقا بالكآبـــة للعجز عن الخروج من حالته ، وهو إحساس ينمو إلى درجة مدمـوة إذا وجد من الآخرين استخفافا بآرائه ومواقفه . وقـد اسـتخدمت بعـض الأنظمة السياسية هذا الأسلوب في التعذيب النفسى للمعـارضين لـها ، حين كانت تضعهم وسط مجموعات معادية فكريا لهم بحيـث يظلـون يعانون من ضغط العزلة الفكرية من ناحية ، وضغط الاستخفاف بـــهم والاستهانة بمعتقداتهم ومقولاتهم من ناحية أخرى، وضغوط التعـــامل اليومى مع المعادين من ناحيـــة ثالثـة ، وضغـوط الإذلال الفـردى والجماعى من ناحية رابعة ، وكثيرا ما كان يسلم هذا الأسـلوب إلـى الانهيار النفسى بصورة أو بأخرى فتهلل هذه الأنظمة لنجاح خططـــها وتصوره على أن ذلك مؤشر على انهيار المعارضين لها ، جاهلـــة أو

متجاهلة أنه انهيار موقوت مرهون بظروف استثنائية وأنه بزوال هـذه الظروف تزول أعراضها المصاحبة لها والناتجة عنها • فنجـاح هـذه الأنظمة يكمن في أن تجعل الظروف الاستثنائية أمرا عاديا طبيعيا ، أى أن يصبح الاستثناء هو القاعدة والقاعدة هى الاستثناء ، وفي تقديرى أنه حتى في هذه الحالة فإن المقدرة الإنسانية على المقاومة والتصدى كفيلـة بأن تبتكر من الوسائل ما يمكنهـا من استعادة زمام المبـادرة وإعـادة تشكيل موقف جديد يتسـم بنوع من التوازن في إدارة الصراع مع هـذه الأنظمة القمعية وممارساتها •

وأسباب الغربة الفكرية متعددة ، أهمها في تقديرى ثلاثة ، أولـها الاختلاف في درجة التعليم ومستواه ، والثانى الاختلاف في نمط التعليم ومضمونه ، والثالث الاختلاف في المكونـات الثقافيـة واتجاهاتـها • ويمكن القول بأن هذا الترتيب ترتيب تصاعدى ، فأهونها تأثيرا في خلق الحالة ما كان متصلا بالتعليم درجة ومستوى ، ثم ما كان ثمرته نمطـا ومضمونا ، وأشدها قوة وأعمقها تأثيرا ما اتصل بالثقافة واتجاهاتها •

والأصل أن يكون التعليم في بعض مراحله مشتركا ، أعنـى أن يكون موحدا للمواطنين جميعا ، والأصـل أيضـا أن يكـون التعليـم المشترك عامل توحيد بين الأفراد في المجتمع ، وأوشك أن أعمم بحيث يكون هذا التوحيد بين المجتمعات بعامة ، لأن هذا المستوى يجـب أن يدور حول تقديـم الحقائق الأساسية للتعـرف علـى الكـون والحيـاة والانسان ، والمقصود بالحقائق الأساسية الثوابت العلمية التـى انتـهت إليها العلوم المختلفة ، بحيث يجد الأفراد في المجتمـع فـهما واضحـا ومشتركا لما يرونه من الظواهر في هذه المجالات ، وتفسيرا لا تناقض فيه لها • وقد يكون هذا الكلام واضحا وإن كان مرحليا فـي العلـوم التجريبية والرياضية والتكنولوجية ، لكنه قد يبدو غير محدد وهلاميـا

حين يراد له أن يشمل أيضا العلوم الإنســـانية ، إذ إن الســؤال الــذى يفرض نفسه هو : هل من الممكن وجود قدر مشترك وثابت ومطلق في هذه العلوم ؟ لقد تعودنا في التاريخ واللغة والأدب والفلســفة والمنطــق وعلم النفس وعلوم الاجتماع والاقتصاد والفنون والتربية وغيرها مـــن العلوم الإنسانية أن نجد اختلافات أساسية تمس جوانبها الجوهرية بحيث يوشك بعض الباحثين ألا يجدوا فيها ثوابت ، وأحسب أن في مثل هـــذا القول تعميما تنقصه الدقة ، لأن هذه العلوم الإنسانية تتضمن جـــانبين : الأول الحقائق ذاتها التى لا إنكار لها ، والثانى : الرؤى الخاصة تجـــاه هذه الحقائق وتفسيراتها والقوالب التـــى تصـــب فيـــها هـــذه الـــرؤى والتفسيرات ، ويفترض أن يكون التعليم في المرحلة المشتركة مقصورا على تقديم الحقائق وحدها ، أما ما عداهـــا مـــن التحليـــلات الخاصـــة والتوجهات الذاتية والتفسيرات الاجتهادية فلا يجـــوز أن تكـــون فـــي المستوى المشترك ، لأنها إذا قدمت فيها لم تكن عـــامل جمـــع بيـــن الأفراد بل عامل تفريق وتمزيق ، فضلا عن أنها تفقد غايتها في تقديـــم رؤية مشتركة قادرة على الإحاطة بظواهر الكون والحياة والإنسان .

هل لى أن أقدم نموذجا للثوابت والمتغيرات في إطار التـــاريخ ؟ أستأذن القارى في أن أحدد خمسين عاما كانت فاصلـــة فـــي الدعـــوة الإسلامية ، شهدت على قصرها مراحل النشـــأة فـــالتطور فالازدهـــار فالانهيار ، نصفها الأول أو أقل قليلا (نحو ٢٣ سنة منها ١٣ سنة فـــي مكة وعشر سنوات في المدينة) ، تمثل مرحلة بناء الأفراد أو الكـــوادر والمجتمع والدولة ، ونصفها الآخر يمثل مرحلة الصراع مـــع القـــوى الخارجية وبين القوى الداخلية ، وهو الصراع الذى أسلم إلى الانهيار ، وقد بدأ بحرب ما نعى الزكاة ، وحروب المرتدين ، ثم تم نقلـــه إلـــى الساحات الخارجية في الفتوح لكنه مع ذلك لم يتوقـــف فـــي الداخـــل

وتفجر في شكل ما عرف بالفتنة التى أسلمت إلى نتيجتين ثابتين مسلمتين : مصرع الخلفاء الثلاثة عمر وعثمان وعلى واحدا بعد الآخر ، ثم انهيار النظام نفسه وتحوله إلى ما يعرف تاريخيا بالملك العضوض الذى أسسه معاوية والذى صفى جسديا زعماء المعارضة بدءا من الحسن والحسين وانتهاء بعبد الله بن الزبير ، وهى السياسة التى أصبحت برنامجا تنفيذيا مستمرا طوال العهود الإسلامية ٠

هذه هى الحقائق الثابتة ، وكل ما عداها محاولات للتفسير ، قد تتجه اتجاها سياسيا ، وقد تأخذ طابعا أيديولوجيا ٠ وقد تبدأ من منطلق اقتصادى ٠ وهى تختلف بالضرورة ، لكن الحقائق نفسها لا مجال للخلاف عليها أو فيها ٠ وهذا ما يجب أن يكون تحصيله بمثابة القدر الضرورى المشترك بين أفراد المجتمع جميعا ٠

ويحسن أن أقدم مثالا آخر للحقائق الثابتة والتفسيرات المتفاوتة في مجال آخر هو مجال الاجتماع السياسى ، ومن أسسه المقررة أن مقياس التقدم السياسى منوط باعتبارات ثلاثة : هى قياس قدرة المجتمع على إيجاد آلية لتداول السلطة في اختيار حر بناء على إرادة الشعب ، والربط العضوى بين السلطة والمسئولية ، وأخيرا الفصل بين السلطات مع تحقيق التوازن الضرورى بينها حتى لا تطغى سلطة منها على أخرى ٠

في ضوء هذه الثوابت نستطيع أن نحكم على مجتمع عاجز عن إيجاد آلية لتداول السلطة التي لا يتم نقلها فيه إلا في حالات الضرورة القصوى وبأسلوب فوقى ، ولا يربط بأى صورة بين إمكانيات السلطة في اتخاذ القرار ومسئوليتها عنه ، ولا يراعى مطلقا أى توازن بين السلطات بل يعتبر هذه السلطات - ماعدا السلطة التنفيذية الممثلة في قيادته السياسية - مجرد ديكور سياسى ، مجتمع على هذا

النحو هو مجتمع متخلف سياسيا حتى النخاع ، ومهما حاولت زمرة المنافقين وجيوش المنتفعين أن يجمّلوا وجه الاستبداد القبيح بادعاء الحرص على الاستقرار وبناء التقدم ورفع المعاناة عن الجماهير وقيادتها إلى الازدهار ، فإنه يتساوى في تخلفه مع أحط انظمة الحكم في التاريخ • ولا ينبغى الخلط بين الثوابت التى يظل الحاكم المطلق فيها عقودا متوالية متربعا على عرش السلطة هو وحده صاحب القرار ومنه وحده تستلهم المواقف وبإرادته وحده تتحدد الاتجاهات ومحاولات التفسير التى ترقى إلى التزوير بدعوى المواءمة مع الظروف الخاصة والاتساق مع ضروراتها والتأقلم مع متطلباتها • لماذا تستسلم مجتمعات معينة إلى هذا النمط المزرى من التخلف وتأباه مجتمعات أخر ؟ ، هل لهذا الاستسلام صلة بالتكوينات الاقتصادية أو الإنتاجية أو الطبقية أو الاتجاهات الثقافية والحضارية أو المعتقدات الدينية ؟ ، هذه مسائل تتعدد فيها وجهات النظر ، لكن لا مجال للتعدد مع الحقائق الثابتة التى لا سبيل بحال إلى إنكارها ، والثوابت يجب أن تكون القدر المشترك في التعليم وليس التفسيرات التى يتسع مجالها بغير حد •

والأصل في التعليم أن يكون عامل تقريب بين أفراد المجتمع ، وسندا لتوافقهم وتواصلهم واشتراكهم معا في رؤية الظواهر والأحداث والوقائع كما هى في ذاتها ، ولكنه قد يقصر عن القيام بهذا الدور ، وقد يمضى في القصور إلى مدى أبعد فيصبح عامل غربة وافتراق وقطيعة إذا اقتصر على تقديم التفسيرات بدلا من الحقائق ، والتحليلات عوضا عن الوقائع ، والأحكام الخاصة بديلا للظواهر • وهذه كما قلنا تختلف زمانيا ومكانيا كما تختلف علميا وفقا للمدرسة التى ينتمى إليها صاحبها ، وهكذا يتحول التعليم إلى عامل تغريب لا تقريب ، وباعث

افتراق لا اتفاق ، وحافز انفصال لا اتصال • وسبيل قطيعة لا تواصل •

كذلك يقوم بهذا الدور في تمزيق المجتمع إذا اختلف نمطه وتباعد مضمونه ، بحيث يصبح المتعلمون مختلفين تماما في مكوناتهم العلمية وعناصر هذه المكونات •

وهذا التأثير السلبى للتعليم بشقيه يمكن أن يؤدى إلى نوع من الغربة الفكرية بين الأفراد ، وقد يمضى قدما فيسلم إلى بناء هذه الغربة بين الجماعات والطوائف •

قد يؤدى إلى الغربة الفكرية بين الأفراد حين يختلف في درجته ومستواه ، فالأميون الذين لم ينالوا من التعليم حظا وكذلك أنصاف المتعلمين الذين وقفوا عند المستويات الدنيا منه يجدون أنفسهم غرباء فكريا عن أولئك الذين تابعوا تعليمهم حتى مراحل متقدمة ، وقد يتضخم عند بعضهم هذا الإحساس إذا وجد في معاملة المتعلمين له ما يؤكد بشكل استفزازى الفوارق التعليمية، ويتعمد من خلالها إحباط الآخرين وتذكيرهم بقصورهم العلمى بشكل يعمق كراهيتهم للتعليم في شخصه ، بدلا من أن يكون تفوق الآخرين حافزا لهم على تغيير مسارهم للالتحاق بمستويات أعلى يعالجون بها قصورهم ويزيلون بها عجزهم، وكذلك الأمر بالنسبة لبعض المتعلمين الذين حصلوا على درجات علمية رفيعة في حقول تخصص نادرة فإنهم بدورهم يعانون من الغربة إذا كانوا وسط بيئة غير مواتية إن لم تكن معادية •

وقد يبنى التعليم الغربة الفكرية بين الجماعات والفئات والطوائف التى تحرص على أن يقتصر تعليمها على أنماط خاصة بها ، ومكونات مقصورة عليها ، لا تشارك فيها غيرها ولا يشاركها فيها غيرها • وهذا

النمط من السلوك التعليمى شديد الحظر ، لأنه يسلم بـــالضرورة إلـــى تكوين فئات متباينة فكريا ، وقد يصل التباين بينها إلى حد التناقض فـــي تحديد الأوليات ومعرفة الأساسيات • فضلا عما قد يؤدى إليه ســـلوك أبناء هذه الأنماط التعليمية الخاصة من ترسيخ العزلة الاجتماعية وتدمير وحدة المجتمع بتدمير أحد مقوماته الأساسية •

في ضوء هذه الحقائق يصبح من الضرورى إعادة النظـــر فـــي التعليم الخاص ، وبخاصة في كل من التعليم الأجنبى والتعليـــم الدينـــى بشقيه : الإسلامى والمسيحى ، حرصا على مستوى من الوحدة التعليمية يكون أساسا لازما لخلق شعور مشترك بالانتماء الواحد والتوجه الواحـد والرؤية الواحدة ، للأشياء والظاهرات والأحداث والوقـــائع • ولا يتـم ذلك بغير البدء أولا وقبل كل شيئ ببناء الحقائق الأساسية الكليـــة فـــي المراحل الأولى من التعليم ؛ قبل أن يوجه المتعلمون إلـــى المجـــالات الخاصة ، ثم متابعة أنماط التعليم الخاصة الأجنبيـــة والعربيـــة بـــهدف تكوين المنهج العلمى القادر على استيعاب المتغيرات وفقـــه الخلافـــات وبناء الأولويات ، وفي طليعتها أمران : الأول احترام حق الآخرين في الاختلاف وفقه أسبابه ، والثانى التأكيد المستمر لنقاط الاتفاق المحوريـــة القادرة على تجاوز عوامل التفرقة لبنـــاء الثقـــة المشـــتركة والثقافـــة المشتركة والرؤية المشتركة والولاء المشـــترك والســـلوك المشـــترك والمواقف الخاصة والعامة المشتركة القادرة على مواجهة المتغـــيرات والتصدى للتحديات •

هل تؤدى الأنماط الخاصة في التعليم المصرى دورها المـــأمول الذى يجب ألا تعدل عنه لمساسه المباشر بالأمن الوطنـــى والقومـــى ؟ أخشى أن أقول إن الظواهر والمؤشرات والقرائن من الكـــثرة والتعـــدد بحيث تدل على أن هناك محاولات جادة وخططا موضوعـــة تتضـــافر

جميعا على غرس بذور التفرقة الكاملة بين فئات هذا الشعب باعتباره طليعة شعوب أمته ودرعها ، ولن الشواهد تؤكد أن هذه الخطط تعتمد كذلك على أن تجعل من التعليم بدوره عامل اغتراب وتمزق داخلي وقطيعة بين أبناء الوطن الواحد ، وإلا فكيف نفسر وجود هذا التعدد والتباين بين أنماط التعليم في مصر وأهدافه ، ما بين التعليم الحكومي المدنى العام ، والتعليم الحكومى المدنى الخاص ، والتعليم الخكومي الدينى الخاص ممثلا في الأزهر ومعاهده ، والتعليم الدينى الإسلامى الخاص ، والتعليم الدينى المسيحى الخاص ، والتعليم الأجنبى الخاص الذى يتنوع هو أيضا حسب اللغة الأساسية فيه ، ما بين انجليزى وفرنسي وألمانى وإيطالى وما قد يستجد من بعد ، أى مستقبل لبناء وحدة فكرية - أو حتى تقارب فكرى - لأبناء وطن تزرع فيه بذور تفرقة عميقة الغور بينهم على هذا النحو ، تفرقة لا تعتمد على الأوضاع الاقتصادية فحسب وإنما تجعلها سندا ودعامة في التكوين العلمي وتوجهاته ، فتصبح بناء راسخا لا يتزعزع ، وحتى إذا فقدنا الطموح الضرورى لبناء وحدة فكرية وتقارب فكرى فهل من الممكن في ظل هذا التمزق العلمى والتعليمى أن نعثر على إطار صحيح لرؤية مشتركة يجتمع عليها أبناء الوطن على اختلافهم ؟

* * *

والثقافة بدورها كما تكون عامل توافق وتواصل يمكن أن تكون عامل اغتراب فكرى وتمزق فردى واجتماعى ، وقبل أن أشير إلى شيئ من ذلك يجمل أن ألمح فيَ عجالة إلى المفهوم الذى آخذ به للثقافة ومقوماتها .

يرى البعض أن الثقافة هى الإحاطة المستوعبة بالجانب النظرى من الحضارة الإنسانية ، بمعنى أنها تتضمن المقولات الفكرية

والمعطيات النهائية لهذا الجانب ، كذلك يرى آخرون على العكس من ذلك أنها مقصورة على الأدوات والوسائل المادية التي يعايش بها الإنسان المجتمع والبيئة وما يترتب عليها من عادات وتقاليد ووسائل إنتاجية ، وبذلك يقصرونها على النواحي المادية • ولست من هؤلاء ولا من هؤلاء ، لأن الثقافة لا تقتصر - ولا يجوز لها أن تقتصر - على الجانب النظرى وحده ، ولا على الجانب المادى وحده ، بل هي تتضمن جوانب منهما بحيث يمكن القول بأنها تحتوى على عناصر ثلاثة أساسية ، هى : المقولات الفكرية النظرية ، والجوانب العملية ذات الطابع التجريبى ، والجوانب الاجتماعية ذات البعد السلوكى ، وهذه الجوانب تتفاعل فيما بينها ، وأداة هذا التفاعل الأساسية اللغة ، وإن كان من الممكن أن تشارك في التفاعل عناصر أخرى غير لغوية •

ومقتضى هذا التحديد أنه لا تطابق بين الثقافة والعلم وإن كانت بينهما صلات ، فثمة جوانب في العلم ليست جزءا حيويا من التكوين الثقافى ، كما أن هناك جوانب ثقافية ليست نتاج البحث العلمى ومقولاته وإن كان من الممكن له أن يجعلها مجالا من مجالات دراساته • وبهذه الرؤية يكون التكوين الثقافى مزيجا من مكونات شتى : معنوية ومادية وقيمية وواقعية وتراثية •

والثقافة بطبيعتها تتسم بالتنوع والتعدد ، وثراؤها يكمن فيهما ، وازدهارها مرهون بالمقدرة على إحداث التفاعل الخلاق بينهما مستهدفا توظيف كل معطياتها في الارتفاع بمستوى الإنسان والحياة ، إن المعادلة الصعبة في التكوين الثقافى ودوره على المستويين الفردى والجماعى تتمثل في كيفية جعل هذا التعدد يتناغم في نسق كلى واحد ، بحيث يسهم هذا النسق في ازدهار التعدد والتنوع ويسهمان بدورهما في تألق النسق ليصبح نموذجا خلاقا يثرى بخصائصه وإضافاته التجربة

الإنسانية ويضيف إليها • والتحدى الذى يواجه هذه المعادلة يكمن في تجاهل وحدة النسق تحت تأثير التعصب للنمط الثقافى الخاص ، حين يفترض صاحبه أنه وحده مناط الصواب ، وأن مقولاته دون غيرها محور الحقيقة ، ومن ثم لا يبالى بالأنماط الثقافية الأخرى ، وقد يصل به عدم المبالاة إلى حد محاولة فرض نمطه الثقافى على الآخرين ، معتبرا ذلك مهمة مقدسة ، فإذا تكرر هذا الموقف من بعض الأنماط الثقافية المغايرة في داخل المجتمع الخاص أو العام كان ذلك إيذانا بالقطيعة بين أبنائها وربما أسلم في نهاية الأمر إلى قيام حرب من نوع ما بينهم • أما إذا تجاهلت باقى الأنماط الثقافية الأخرى حالات التعصب المقيت المصحوب بالرغبة العارمة في فرض النمط الخاص فإن هذا الموقف يحمل أصحاب هذا النمط الخاص على الإحساس بالغربة الحادة والعزلة الصارمة ، ويعتبرون ذلك تحديا يحملهم على التقوقع وتشييد جدران العزلة لتفصلهم عن الآخرين • وكما ينطبق هذا على الأفراد ينطبق على الطوائف والجماعات والنظم والدول أيضا •

* * *

الدكتور

اختير لتفوقة واحدا من صفوة محدودة العدد تخرجوا من الكليات والأقسام المتخصصة في دراسة العربية ليكونوا طليعة الدارسين في المركز الذى أنشأه طه حسين حين كان وزيرا للمعارف لاستئناف التواصل الثقافى والحضارى مع ما كان يعرف ببلاد الأندلس • حلقت سعادته عاليا وهم يبلغونه في إدارة البعثات أنه ستتاح له الفرصة للحصول على درجة الدكتوراه من جامعة إسبانية ، وتجلت سعادته التى

لم يتعود إعلانها بأن سمح لزوجته التى هى بنت عمه بأن تطلق زغاريدها من فوق سطح المنزل ، واستقبل المهنئين أفواجا ، وكان حريصا على أن يصلى بهم ركعتى الشكر في كل مرة يكتمل في مضيفته ثلاثة فأكثر ، وحين خطب جمعته الأخيرة في مسجد القرية قبل سفره تحدث عن أنه يرتحل طلبا للعلم الذى هو فريضة ، وذكر أحاديث الرسول عن أن الحكمة ضالة المؤمن ، ولما قرأ القرآن في صلاة الجمعة بعد الخطبة أبكى الناس بصوته الشجى الذى يمتلئ شجنا ، وأحسوا بأنهم سيفتقدونه في رمضان وكان على مقربة ، وأنهم سيحرمون مما عودهم عليه فلن يعودوا يستمعون إلى صوت طلقة رش يطلقها من (فرد) أبيه قبل أن يقف على سطح داره ليؤذن المغرب ، ولن يؤمهم لصلاة التراويح ليقرأ بصوته الآسر جزءا من القرآن كل ليلة فيبكى ويبكيهم معه • وسافر سعيدا باكيا فراق زوجته وأهل قريته، ودأب في الشهور الأولى بعد سفره على أن يرسل إليها خطابا أسبوعيا وهى شبه أمية يسأل عن أحوالها متحدثا عن الشوق والحنين إليها وإلى الأهل ، مع أنه يعرف أنها ستستعين على قراءته ببعض أقاربه وأقاربها ، ثم أخذت الرسائل تتباعد وتتحدث عن المصاعب والمتاعب ، قبل أن تنقطع نهائيا إلا في المناسبات التى حرص على أن يرسل فيها بطاقات ملونة لا تحمل إلا اسمه دون أى كلمة أخرى •

وبعد خمس سنوات كاملة عاد بحرا إلى الإسكندرية دون أن يخبر أحدا بموعد عودته ، ونزل منها إلى القاهرة ، وقرر ألا يذهب إلى القرية حتى ينجز أعماله الرسمية واستغرق ذلك أياما ، أقام فيها في أحد الفنادق المتواضعة قبل أن يعرض عليه زميل استضافته حتى يعثر على سكن مناسب ، واضطر أن يؤجل ذهابه إلى القرية أكثر من مرة نتيجة لشواغل رآها ملحة • وهكذا لم يزرها إلا بعد بضعة أسابيع • وحملته

إلى منزله سيارة أجرة استأجرها من عاصمة المركز بعد أن نزل من القطار ، اخترقت به دروب القرية الضيقة حتى أوصلته ، ولعلها المرة الأولى التى تجتاز فيها سيارة هذه الدروب ، وكان دخولها وحده كفيلا بنشر خبر عودته ولذلك لم يجد داعيا لأن تطلق زوجته زغاريدها التى أعلنت بها بهجتها بهذه العودة المفاجئة ، وهكذا كانت كلماته الأولى لها معبرة عن الزجر والاستنكار . وحين توافد الأهل والأصهار والمعارف بلهفتهم المعهودة لم يكن يبادر إلى احتضانهم وتقبيلهم كما كان يفعل في الزمن القديم ، أيام أن كان يعود من القاهرة ليحمل (زوادته) كل بضعة أشهر ، ووجدوا أنه حريص على أن تكون التحية باليد دون قبلات وإن تجاهل بعضهم ذلك مما سبب بعض الحرج الذى سرعان ما تغلب عليه ، حين جعل أحاديثه المتقطعة تدور حول موضوع واحد ، هو الفوائد التى تعلمها في البعثة ، ومن أهمها ضرورة التخلص من العادات الاجتماعية السيئة التى تعوق التقدم ، وحين أذن للصلاة ذكره بعض الحاضرين بصوته ورغبوا في أن يؤمهم كما كان يفعل ليسمعوا قراءته العذبة فاعتذر بأنه مجهد وأنه يحتاج إلى بعض الراحة ، وكان ذلك إشارة كافية لأن يتركوه يخلو إلى أهله ، فاتجهوا إلى الدوار يواصلون ذكرياتهم عن الدكتور قبل السفر ، وسعادتهم بعودته إلى القرية ، وشرعوا يبنون أحلاما خاصة بهم ويحلمون بقدرته على تحقيقها ، فقد كان الوحيد الذى حصل على درجته الرفيعة من أوربا ، وإن توجس بعضهم في نفسه خيفة من أن يكون الدكتور قد تغير بعد ما شاهد منه ، وأن الذى عاد ليس نفسه الذى ذهب .

لما انفرد بزوجته في المساء المتأخر وجدها قد أعدت مائدة حافلة شاركها في إعدادها جاراتها المحبات ، ووقفت بين يديه تنتظر أن يدعوها لمشاركته كالعهد به ، ولكنه بدلا من ذلك طلب منها أن ترفع

الطعام ، وقال لها لما رآها تضرب صدرها في دهشة : إنه لم يعد يأكل طعاما دسما في المساء ، وضحك مفسرا حين رأى حاجبيها ترتفعان وفمها ينفرج : إن مثل هذا الطعام في الأجواء الحارة غير صحى ٠ ولكنها رفضت أن تنحّى الطعام ، وأصرّت على أن يأكل ، وشرعت في دلال ساذج تقطع صدر ذكر البط قطعا كبيرة محاولة أن تدس بعضها في فمه وقد توهج خداها في خفر عذراء ولكنه نحى يدها بعنف ، ولما سالت الدموع من عينيها أخذ يسترضيها بكلمات لكنها لم تفلح في التخفيف عنها ، وأحس في لحظة واحدة أن عليه أن يواجه موقفا طالما فكر فيه من قبل من غير أن يستقر تجاهه على قرار ٠ وحاول أن يكون هادئا وهو يشرح لها أن أشياء كثيرة قد تغيرت ، وأن عليها أن تتغير إذا أرادت أنم تستمر معه ، لم تفهم مما قاله شيئا وداهمها حزن مفاجئ ، وارتفع نشيجها ، وبدلا من أن يستمر توقف ، وأحس تجاهها بعطف ممزوج بأسى ، وأجلسها إلى جواره وضمها إلى صدره في حنان وظل يسترضيها حتى أشرقت البسمة في عينيها متوهمة أن كلماته طارت في الهواء ٠ ولكنه في الصباح أعلن أنه سيغادر القرية إلى القاهرة لمهام عاجلة ، وأفسد بذلك خطة الترحيب الحافلة التى ظل الأهل والأصدقاء يضعون تفصيلاتها حتى ساعات الفجر ، ووعدهم بأن يعود دون أن يحدد موعدا ٠

وعاد إلى القرية بعد ذلك مرات على فترات متباعدة ٠ وفي كل مرة لا يمكث إلا ساعات يحرص فيها على ألا يخلو بزوجته كما يحرص على ألا يتناول طعاما مع أصدقائه وأقاربه وكثيرون منهم أميون ، ومن تعلم منهم لم يتجاوز المرحلة الابتدائية ، متذرعا بعلل شتى بدت لمن حوله غير مقنعة ، حتى أيقنوا بأنه قد بلغ من التغير حدا لم يعد معه قادرا على مشاركتهم في شيئ ، والتمس المدافعون عنه

العذر أحيانا بشواغله وأحيانا بمتاعب صحية ، لكنه لم يكن يساعدهم في تبرير موقفه ، بل على العكس من ذلك كان يزداد بعدا وضيقا كلما ألحوا عليه ، وانتابهم شعور بأنه لا توجد أرض مشتركة تجمعهم به ، بعد أن انمحى ولعه القديم في أن يؤم المصلين كلما حضر إلى القرية ليسمعهم صوته الشجى يصدح بالقراءة ثم يلقى درسه الدينى عقب الانتهاء منها ، وواجه جميع الاقتراحات بتجديد المتع الصغيرة التى كانت تفعمه سعادة برفض كامل ، فالرحلة في النيل في قارب عم حمدان للعبور إلى الجزيرة المزروعة بالبطيخ أصبحت مخاطرة غير محسوبة ، والاستحمام فيه مرتديا سرواله الدمور القصير صار أمرا غير لائق ، والجلوس على الشاطئ أمام الخص المقام للصلاة للاستمتاع بنسمات العصارى ضياع وقت ، والخروج لصيد السمك ثم شيُّه على نار الحطب يثير فيه التقزز ، وأما سهرات المساء في أجران القمح مع كل ما يحفها من بهجة فلم يعد اقتراحها يخطر على بال أحد ، بعد أن أصبح حريصا على أن يغادر القرية قبل مغيب الشمس ليلحق بقطار الدلتا المتجه إلى المركز القريب • وهكذا أيقن الجميع بأن مكروها ما قد حل به• وغلب على ظن بعضهم - وأولهم زوجته - أن بعض الحساد قد عمل له (عملا) وأنه لن يستطيع (فكه) إلا العرافون ، أما الآخرون فقد رأوا أنه أصيب بداء الكبر ، خصوصا عندما رأوه يتعامل مع بعض الشيوخ - وهم جميعا أميون لا يميزهم إلا أنهم يحفظون القرآن الكريم - بأسلوب الناصح المستعلى في مسائل كانوا يرونها من الثوابت التى لا تتغير ، وهكذا بدءوا ينفضون عنه عندما يحضر ، وبمضى الوقت زال تماما الاهتمام به ، ولم يعد أحد يحرص على المبادرة إلى مقابلته والالتفاف حوله كلما جاء ، باستثناء شقيقه الذى كان لا يجلس معه إلا دقائق معدودة ينصرف بعدها مدعيا أن

شواغل زراعة الأرض تحرمه من استمرار البقاء معه طوال زيارته • أما زوجته التي عادت إلى البكاء جزعا فقد اشتد خوفها عليه ، وراحت تسأل العرافين واحدا بعد الآخر ، ولم يقصر أحدهم في جهد ، فاستخرجوا كل ما عندهم من خبرة في شكل زجاجات الماء المقروء عليه ، والأحجبة المختلفة ذات الأشكال والألوان ، وبدأت تعلق هذه الأحجبة في مواضع متعددة ، منها ما هو على مدخل البيت ، وما هو في ساحته ، وما هو على مدخل الحجرة الخاصة بها ، وما هو تحت ثيابه ، وفي إحدى زياراته شرع يحدثها بحرارة دافقة عن بدء ترجمته لمسرحية أعجبته لكورني ، راح يشرح لها الصعوبات التي يواجهها في ترجمة النص ، لم تلق بالا إليه وأخذت بدورها تحدثه عن الحسد ، وفجأة نهضت ودخلت حجرتها وأخرجت من تحت وسادتها حجابا وزجاجة صغيرة ، وطلبت منه أن يضع الحجاب تحت إبطه الأيسر ، ثم رشت ما في الزجاجة على العتبة وطلبت إليه أن يجتازها ذهابا وعودة ، لكنه بدلا من أن ينفذ طلبها خرج ثم أرسل لها ورقة الطلاق ، ولم يره أحد في القرية بعدها •

* * *

الشقيقان

صحبهما أبوهما وعدد من الأقارب في رحلتهما من النجع حتى سوهاج ليستقلا منها القطار إلى القاهرة بعد أن تقرر التحاقها بكلياتها ، وقبل أن يصل القطار انفرد أبوهما بهما ليقدم نصائحه الأخيرة ، قال للأكبر الذى حصل على الثانوية الأزهرية والتحق بدار العلوم : ضع أخاك في عينيك ولا تقصر في الإشراف عليه ، وقال للأصغر الذى

حصل على الثانوية العامة والتحق بكلية العلوم عليك أن تسمع كلام أخيك فهو الكبير الذى لا تجوز مخالفته ، وودعهما وهما يركبان القطار لينطلقا إلى العالم وهو يردد لهما الدعوات ، واستقرا بعد أيام قلائل قضياها عند أحد الأقارب في العاصمة في المدينة الجامعية ، وظلا فترة قصيرة متلازمين حتى اضطرتهما ظروف الإقامة والدراسة إلى الانفصال فلم يكن أحدهما يرى الآخر إلا مدة محدودة في المساء ، لكنهما كانا برغم ذلك متصلين وجدانيا ، يريان بعين واحدة ، حتى بدأت رحلتهما الفكرية التي انطلقت بكل منهما في طريق مختلف ؛ أما أحدهما فقد وجد للدين رؤية جديدة لم يسبق له أن وقف عليها ، رؤية تربط العلم بالعمل ، وتجعل التطبيق مساوقا للمعرفة ، ويشغل البناء الفوقي فيها – في نطاق الجماعة والمجتمع والدولة والعالم – محورا أساسيا ، بحيث يصبح الاستيلاء على السلطة ضرورة لا غنى لها ، وتقاس قيمة الأفراد فيه بمدى ما يبذلون من جهد في بناء التنظيم الذى يسعى دون كلل لتحقيق أهدافه المحددة ، تحت شعارات خلابه شديدة الجاذبية تدعو إلى العمل على استرجاع المجد الزائل والحضارة الذاهبة وإعادة تشكيل المجتمع كما كان ، وبدأت قصته مع الجماعة بشيئ من الانبهار الذى ما لبث أن تحول إلى يقين ، عمقته مكانة خاصة وصل إليها بسرعة بفضل ذكائه وشجاعته ومقدرته على الخطابة التى تتضمن استشهادات بالآيات والأحاديث التى لا يحفظها زملاؤه ، ثم ما أصابه من تعنت المشرفين والمسئولين في المدينة حتى أصبح علما من الأعلام فيها ، وهكذا أمسى في خلال سنة واحدة زعيم الجماعة بين الطلاب ، يغضب لغضبه مئات يستطيعون بإشارة منه أن يحركوا الجامعة كلها . ويتودد إليه عدد من ضباط الأمن الكبار ، ويذهب إلى رئيس الجامعة ونائبه في أى لحظة فيجد الأبواب مفتوحة على مصاريعها في الوقت

الذى يرى أساتذته الكبار يجلسون في قاعات الانتظار حتى يؤذن لـــهم بالدخول •

عادت ا

وأما الآخر فقد لفت نظره مجموعـــة محـــدودة مـــن الطـــلاب والطالبات الذين ينتمون إلى كليات مختلفة ، يلتقون في شكل مظـــاهرة صغيرة أمام باب جانبى للقاعة الكبرى قريب من مدخل كليته ، انتابـــه الإشفاق وقد أحس بأنهم يحرصون على إثبات وجودهم وتسجيل رؤيتهم في خضم هذا العدد الهائل ، ثم قرأ لوحاتهم المكتوبة بخط اليـــد التـــى تدعو إلى محاربة التخلف والظلم وتنادى بالعدل والحرية للإنسان فـــي كل مكان • وتجعل الخرافة قرين الجهل ، والاستبداد السياسى المدخـــل للفساد الإجتماعى ، والسياسة الخارجية امتدادا للسياســـات الداخليـــة ، وترى أن المنهج العلمى لابد أن يكون الأساس لأى تغيـــير ثـــورى ، أعجبته الأفكار والممارسات فبدأ يشاركهم نشاطهم ، ورويـــدا رويـــدا أصبح كادرا مهما بعد أن استوعب التـــاريخ والواقـــع وتحـــددت فـــي تصوراته سبل النضال وأهدافه المرحلية والنهائية • وهكـــذا لـــم يكـــد يمضى عام وبعض عام حتى كان ثالث ثلاثة يقودون حركـــة ثوريـــة نشطة وجدت نفسها برغم الحصار المفروض عليها من الجماعة مـــن جهة والأجهزة الأمنية من جهة أخرى وإدارة الجامعة من جهـــة ثالثـــة قادرة على التحرك واستقطاب الصفوة التى تأبى أن تنقاد •

جلس الأول وفقا للتقاليد المتبعة في الجماعة مع العناصر القياديـــة داخل الجامعة وخارجها لتدارس الأوضاع في نهايـــة العـــام الدراســـى استعدادا للعام الجديد ، وفي أثناء تقييم الموقف لم يجد أحدهم حرجا فـــي أن يذكر من بين المعوقات النشاط الذى تقوم به المجموعة التى ينتمـــى إليها شقيقه ، وتجاوز أحدهـــم عندما ذكر أن موقف شـــقيقه محســـوب عليه ، وأن له دلالات سيئة عند الطلاب ، لأنه يؤثـــر فـــي مصداقيـــة

الدعوة ويكشف عجز أحد قادتها البارزين عن كسب أخيه الأصغر • وبرغم حرص الإخوة على ألا تأخذ المسألة طابعا شخصيا فإنه أدرك أن استمرار أخيه في اتجاهه يحتاج إلى وقفة ، وأنه قد آن الأوان لكى يعدل عن تجاهله لهذا النشاط الذى ضل به ضلالا بعيدا ، وعليه أن يبذل أقصى ما يستطيع لهدايته إلى الصواب •

كان على يقين من أنه قادر على تحقيق ما يريد من شقيقه فقد عوّده على احترامه له والاستجابة لرغباته ، فضلا عن أن لديه من المؤثرات فيه ما لن يستطيع معه رفضا ، ولذلك كان مفاجأة له عندما وجده يحاولْ أن يدخل معه في حوار تجاوز فيه مارآه حدودا يجب الالتزام بها حين مس مقولات الجماعة النظرية ، وزاد على ذلك حين نال من تاريخها السياسى في مراحلها الأولى متهما إياها بالتعاون مع الاستعمار الانجليزى وشركة القناة الفرنسية من جهة والملكية الفاسدة من جهة أخرى ، وبرغم هدوئه في حالات مماثلة كان يتذرع معها بالصبر فإنه وجد نفسه في موقفه مع أخيه ينفجر غاضبا ويتهمه بالضلال والخضوع للأكاذيب وسيطرة الهوى ، ورد شقيقه باتهامه بأنه جامد التفكير معطل العقل ، وأن للحقيقة زوايا رؤية متعددة وعليه أن يتعلم كيف ينظر إليها من مختلف زواياها ، صاح الأول ثائرا كأنما يهزأ : أنت الذى تعلمنا ؟ وصاح الثانى وقد أحس في سؤال أخيه باستهانته به : ليس أحد أكبر من أن يتعلم ولا أصغر من أن يعلّم ، واحتدمت المعركة بينهما •

عجب الأول كيف تسنى لشقيقه هذه القدرة على مواجهته وهو الذى لم يواجهه أبدا ، وأفزعته دلالة المواجهة السلبية على مستوى الجماعة ، فإنه إذا كان قد فعل ذلك معه فمن المؤكد أن قدراته على المواجهة مع غيره من أعضاء الجماعة أشد وأقسى ، والتمس العذر

للإخوة الذين مسوا أخاه في جلسات التقييم ، وانتهى إلى أنه لا مجـــال مطلقا لبقاء أخيه ضالا على هذا النحو ٠ ولما علم بعض الإخوة بما دار بين الشقيقين قال مهونا عليه : إنك لا تهدى من أحببت ، فرد باقتناع بأنه راع ، وأن كل راع مسئول عن رعيته ، وأنه لن يتوانى في النـــهوض بهذه المسئولية ٠ وصمم بينه وبين نفسه على أن يشهد النجع حين يعود إليه في جزء من الإجازة الصيفية نهاية حاسمة ، لكن شقيقه لم يمنحـــه هذه الفرصة ، فقد سافر إلى النجع حين كان هو مشغولا فـــي الإعـــداد لمعسكرات التدريـــب الثقافى العسكـــرى التى تقيمها الجماعـــة فـــي الصيف ٠ وفي فترة استرخاء قصيرة بين معسكرين قرر أن يلحق بـــه في النجع ليحسم الموقف معه هناك ، لكنه لم يقض معه سوى بعض يوم غادر في نهايته شقيقه النجع مدعيا أن عليه القيام بتدريب عملـــى فـــي بعض المصانع ، وهكذا حين بدأ العام الجديد كان كل منهما في موقعـــه لم يزل ، ووقر في نفس الأول أن شقيقه يتعمد الـــهرب مـــن مواجهـــة أخرى ، وفسر ذلك بأنه يعلم بأن أى مواجهة ستسفر عن خســـارة لـــه مؤكدة ، ورأى أن الأمر أخطر من أن يتركه وما يريد ، فدعاه في بداية السنة الدراسية الجديدة إلى لقاء اختار له منزل أحد الإخـــوة ، ومـــا أن جلسا حتى بادره بحسم : لا يمكن أن تستمر الأمور على هذا النحـــو ، وأن أجدك في مواجهتى ، رد شقيقه : أنا أواجهك ، كأنمـــا يســـخر ، أضاف الأول متسائلا : وبماذا تفسر ما تفعل ؟ قال : فلنواجه الحقيقـــة بوضوح : نحن مختلفان فكريا ، فهل تقبل اختلافى معـــك أولا ؟ قـــال الأول : إذا رأيت شقيقى في النار يجب على أن أنقـــذه ٠ رد الشـــقيق الأصغر : التشبيه بليغ والرؤية مشتركة ، مســـته الدلالـــة بإيحاءاتـــها فصرخ فيه : نحن ندعو إلى الله ، فقاطعه : من يدعو إلى الله يجـــب أن يحرص على الوصول إلى الحقيقة ولا يقدس أصناما خلقتها الأكـــاذيب :

قفز يوشك أن يضربه لكنه تمالك نفسه في اللحظـــة الأخـــيرة وقـــال : خسئت أيها الزنديق • وافترقا وهو يتوعده • وحين سأله أحد الإخـــوة في الجماعة وهم يخططون لنشاطهم في العام الجديد عن الموقف تجـــاه شقيقه ومجموعته قال بحزم : إذا واجهوكم فاضربوهم ، ولمـــا كـــرر سؤاله عن شقيقه بخاصة قال بهدوء بارد ، دمه مهدر حتى لـــو تعلـــق بأستار الكعبة •

* * *

العامل الخامس : الغربة المذهبية :

المتأمل لتاريخ العقائد يجد أن الأديان بعامة تـهدف إلـى بنـاء الطمأنينة داخل النفس الإنسانية وترعاها ، وتقرر من القيم والمقومـات ما تهدف إلى تأكيدها وتبغى شيوعها بحيث تتجلى في تفكير الإنسان من ناحية وتتجسد في سلوكه من ناحية أخرى • وفي هـذا الإطـار نجـد حرص العبادات والتعليمات الأخلاقية والطقوس بعامة على أن ترقـى بروح الإنسان بحيث تكون شفيفة رفيفة حانية ، يتفجر فيـها أحاسـيس الخير والعطف والشفقة والبر والتسامح والسماحة والنبل ، وتتأكد فـي أعماقها مشاعر المشاركة ومراعاة سائر المخلوقات والمحافظـة علـى الكائنات • حتى تكون هذه المشاعر إطارا للتواصل بين البشر بعضـهم وبعض من ناحية ، وللتعامل بينهم وبين الطبيعة بكل ما خلق الله فيـها في مختلف نواحيها من ناحية أخرى • ولذلك كان من الثوابت الأخلاقية ألا يتجاوز الإنسان في تعامله مع الطبيعة • فالإسراف في الأخذ منـها مرفوض إذ لا يجوز أن ينال إلا ما تتطلبه ضرورة البقاء ، وألا يـأخذ إلا بالقدر الذى تستلزمه الحاجة • ومن ثم كانت استباحة الطبيعة بغـير حدود ضربا من الأنفلات الدينى والأخلاقى ، وتلويثا للنفـس وإفسـادا للروح وخروجا على القيم •

ومقتضى العقل أن يكون الأمر كذلك في المذاهب المتفرعة عـن العقائد الدينية ، لأنها فروع عن أصول ، وجزء من كل ، ويفـترض أن تتجلى في الفروع قيم الأصول ، وألا تتناقض الأجزاء مع الكل الـذى انبثقت منه ، فتلتزم بالأسس والمقومات والقيم التى قررتـها أصولـها وحافظت عليها ودعت إليها • ولكن التطبيق العملى يكشف أن المذاهب المتفرعة عـن الأديان لا تخضع لحكم واحد ، ولا يطرد فيها النسـق نفسه ، وأن منها ما يراعى ما في الأصل مـن اعتبـارات ومقومـات

ويحافظ عليها مع أتباعه وغير أتباعه أيضا ، ومنها ما يقصر هذه المراعاة على الأتباع الموافقين في المذهب ، أما غيرهم من المخالفين فإن العلاقة معهم تخضع لمقومات أخر لها قيمها الخاصة وأطرها المباينة وأهدافها المرجوة البعيدة •

وأحسب أن مرد هذا الاختلاف في المذاهب يعود إلى أنها في مجموعها من باب الاجتهادات البشرية في جوانب من الأديان ، وقد تأثرت في مكوناتها بالرغبة في حمل الآخرين على اتباع المذهب • وفي ضوء هذه الرؤية بوسعنا أن نجد مذاهب يمتد الاجتهاد فيها - أو لنقل يبدأ - من الأصول الكلية والمعتقدات الأساسية ، فهى تضيف إلى الأصول أصولا بما تقدمه من تفسيرات خاصة بها تطبع هذه الأصول الدينية العامة بطابع ذاتى يجعلها أقرب إلى أن تكون رؤية نوعية خاصة ذات دلالة اصطلاحية اعتقادية • وثمة مذاهب أخر تنأى عن الأصول العامة وتبتعد عن المساس بالأسس الكلية وتحصر جهدها في إطار الجزئيات والتفصيلات والفروع ، ومن ثم يمكن القول بأن المذاهب نوعان : مذاهب اعتقادية ، أى أن أبرز ما اتجهت إليه اجتهاداتها عناصر عقدية وإن كانت قد لا تقتصر عليها ، ومذاهب غير اعتقادية ، وهى التى تدور اجتهاداتها فيما دون العقيدة من قضايا ومسائل وأحكام وتنحصر فيها ، فهى اجتهادات في الفروع لا في الأصول • ومن هذا يتضح أن الكلام في الأديان والعقائد والمذاهب له مستويات ثلاثة : أولها مستوى الدين نفسه كالإسلام والمسيحية واليهودية ، وثانيها مستوى المذهب الاعتقادى في إطار الدين الواحد كالسنة والشيعة في الإسلام ، والكاثوليكية والبروتستانتية والأرثوذكسية في المسيحية ، وثالثها - مستوى المذهب غير الاعتقادى في نطاق الدين الواحد والعقيدة الواحدة كالحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة والظاهرية

في أهل السنة ، والزيدية والإمامية والاثنا عشرية والإسماعيلية في الشيعة ، والأرمنية والقبطية واليعقوبية والنسطورية في الكاثوليكية ، والأرثوذكسية والإصلاحية في اليهودية .

ومن الطبيعى أن تتعدد المذاهب الاعتقادية بتعدد الأصول التى تضيفها ، أو الإضافات التى تقدمها إلى الأصول المقررة ، كما أن من الطبيعى أن تتعدد المذاهب غير الاعتقادية بتعدد الفروع التى تقدمها ، والأحكام التى تقررها . وهكذا يمكن القول بأن المذاهب من التنوع والكثرة بحيث يصبح حصرها في عدد محدود من باب التجوز الذى يسمح بإغفال الفروق الدقيقة بينها ، وأنه من الممكن أن نجد مذاهب اعتقادية وغير اعتقادية معا ، أى أن لها رؤاها الذاتية للأصول الكلية ، كما أن لها أحكامها الخاصة التفصيلية في المسائل الجزئية ، ولا مجال بحال لافتراض حتمية اختلاف الفروع عند اختلاف الأصول ، كما لا سبيل مطلقا لتوهم أن أى اتفاق في الفروع لابد بالضرورة أن يعني الاتفاق في الأصول .

واختلاف المذاهب الاعتقادية دليل على مقدرة العقل البشرى على استيحاء الأصول الكلية للدين نفسه ، والتأثر في ذلك بعاملين متكاملين : الثقافات الخاصة من جهة بما تعنيه من اتصال أصحاب المذاهب بالثقافات المتعددة الموروثة منها والمتجددة ، والقدرات الذهنية على استيعاب هذه الثقافات وتوجيهها وتوظيفها في فهم الأصول الدينية وإعطائها طابعها المميز لها من جهة أخرى ، فتعدد المذاهب الاعتقادية ثمرة جهود عقلية إنسانية انطلقت من الأصول الكلية المحورية للدين نفسه ، ولكنها لم تقف عندها ، بل أضافت إليها وطبعتها بطابعها وصبتها في قالبها . بحيث يمكن القول دون تجوز كبير إن الأصول الكلية المحورية للدين نفسه تصبح في المذاهب الاعتقادية بمثابة الهيكل

العظمى الداخلى ، أما الذين يكسو هذا الهيكل ويمنحه بعده الحيوى الكامل فهو الخصائص الذاتية المميزة للمذهب الاعتقادى •

والمقدرة العقلية في بناء المذاهب الاعتقادية تمضى إلى أبعد من ذلك حين يحاول أصحاب كل مذهب اعتقادى التوحيد الكامل بين المذهب والدين نفسه ، بغية قطع الطريق على أى محاولة للنيل من المذهب من ناحية واتهام المذاهب الأخرى بالانحراف عن الدين بمفهومه المذهبى الخاص من ناحية أخرى ، ولذلك نجد في هذه المذاهب برغم اختلافها اتفاقا منهجيا يتمثل في عدد من القواعد الكلية التى تحكم أصحابها يأتى في طليعتها :

١-الإيمان المطلق الجازم بأن أتباع المذهب وحدهم هم الذين على صواب في الاعتقاد • وعقيدتهم لا تحتمل خطأ ولا تقبل شكا ولا ترددا • وهذا ما يجب أن يحكم أتباع المذهب في نظرهم إلى أصولهم المذهبية وأسسها الكلية ومقولاتها الفكرية ، فهى جميعا من باب الصواب المحض الذى لا احتمال فيه لتوهم غيره •

٢-أن أى تناول لأصول المذهب الاعتقادى أو تحليل لأسسه أو دراسة لمقولاته ومعطياته يجب أن يكون محكوما بهدف محدد ، وهو تأكيد هذه الأصول والأسس وبيان اتساقها والاستدلال على صحتها ، وله من أجل ذلك أن يشرح وأن يفسر وأن يوضح ، فإذا وجد فيها ما بدا له غير متسق كان عليه أن يتوقف إذا لم يستطع أن يجد من الحيل العقلية ما ينقلها به من حالة عدم الاتساق إلى حالة تتسم فيها به وتتأكد من خلالها معه •

٣-اليقين الثابت الذى لا تخالجه ذرة شك بأن أتباع المذاهب الاعتقادية الأخرى على خطأ لا احتمال معه لصواب ، والاعتقاد

بأن أصول هذه المذاهب بإجمال لا تخلو من ضعف وأسسها لا تسلم من خلط ومقولاتها تتسم في مجموعها بالاضطراب ·

٤-أن تناول المذاهب الاعتقادية المخالفة له غاية واحدة ، هي كشف ما في أصولها من ضعف ، وتأكيد ما في أسسها من خلط ، وتوضيح ما في مقولاتها من وهن واضطراب وفساد ، فإذا تبين لباحث ما يخالف ذلك كأن يكون في أصولها ما يتفق مع الدين أو في أسسها ما يتسق مع العقل أو في مقولاتها ما يطرد مع المنطق فلا يجوز له تقرير ذلك إلا من حيث الاستدلال به على الفساد المذهبى بجعله من قبيل خلط الباطل بالحق في محاولة للتلبيس على أصحاب المذاهب الأخرى ·

٥-تأكيد عناصر الاختلاف مع المذاهب الاعتقادية الأخرى والبعد عن أى محاولة للاقتراب منها أو التوفيق بينها أو التوافق معها ؛ حتى لا تكون منزلقا للابتعاد عن المذهب بمقوماته وخصائصه· والتنفير من كل المحاولات التى تهدف إلى شيئ من ذلك بدعوى أنها تشوش على الاعتقاد الصحيح وتفسد العقيدة السليمة لأنها تجمع بين الحق والباطل وتخلط بين الكفر والإيمان ·

هذه الخصائص في مجموعها تعبر بوضوح عن تعصب مذهبي يبلغ أقصى مدى يمكن تصوره ، تعصب يسد جميع منافذ المعرفة الصحيحة ويلغى المقومات الموضوعية للبحث العلمى ، وفي الوقت الذى تقوم فيه مقومات المذهب الاعتقادى المميزة له على ركائز أساسية من الاجتهادات البشرية فإن أصحابه يحاولون التسوية بين هذه المقومات من ناحية والأسس الإلهية للدين نفسه من ناحية أخرى دون تفرقة بين الجانبين البشرى والإلهى · ثم يمضون في تعصبهم قدما فيحاولون فرض رؤيتهم الخاصة على الآخرين من أتباع المذاهب

الأخرى بدعوى أنها هى الرؤية الصحيحة وحدها ، فإذا نجحـــوا فـــي تحقيق غايتهم انتابتهم نشوة النصر الذى يعزونه غالبا إلى الرضا الإلهى والدعم السماوى ، وحلت تلقائيا بمخالفيهم المقهورين مرارة الإحســـاس بالغربة المذهبية ، أما إذا فشلوا فإن الصورة تنعكس ، وتتجســـد فـــي أعماقهم مرارة الإخفاق الذى ينسبونه دائما إلى تقصيرهم في الالـــتزام الدينى المذهبى ، مقرونة بكآبة الغربة والإحساس العميق بـــالاغتراب ، وهكذا يسلم الصراع المذهبى المحكوم بالتعصب إلى الغربة فـــي كـل الأحوال .

ثمة أمثلة كبيرة تجسد هذا النمط من الغربة وثمارها المرة :

* * *

الضحيــة والجلاّد

حملت وجوه المصلين في الساحة المتراصة الفرحة وهم يتبـادلون التهنئة بحلول عيد الأضحى في ذلك اليوم المشهود من أيام الكوفة ، ولم يلتفت كثيرون منهم للمشهد لبعدهم عنه ، أما القريبون فـــي الصفـوف الأولى فقد بدا لهم شديد الغرابة ، فأمامهم مباشرة وقريبا مـــن المنـبر الخشبى ذى الدرجات الخمس الذى يقف عليه الأمير خالد بن عبـــد الله القسرى والى الكوفة وحاكم العراق يلقى خطبة العيد وُضِـــع رجـل موثق بالقيود الحديدية التى أحاطته بإحكام ، إذ ضمت عنقه إلى فخذيـه وساقيه ويديه جميعا بينما وقف حوله عـــدد مـــن الحـــراس الغـلاظ شاهرى السيوف ، بدا الرجل بظهره المقوس وشعره المشعث ولحيتـــه الكثيفة أشبه بقنفذ تداخل جسده حين استشعر الخطر ، لولا أن الظـــهر

العارى قد تقرح من آثار السياط • من استوقفه المشهد ربما جال في خاطره أن الرجل قاتل جئ به للقصاص ، لكنه ذلك لم يخل من غرابة أيضا • فقد جرت التقاليد المتبعة إذا اقترب العيد أن يؤجل القصاص إلى ما بعده ، ومن دقق النظر في الرجل خفق صدره من هول المفاجأة ، إنه الجعد بن درهم ، الزاهد الناسك العابد ، المحدِّث المتكلم، الذى كثيرا ما استمعوا إلى عظاته في المسجد الكبير وهو يراوح ويزاوج بين الترغيب والترهيب ، يبشر الصالحين وينذر الطالحين ، ويتصدى للمخالفين في العقيدة فيفحمهم ليزداد الذين آمنوا إيمانا • ماذا حدث وماذا يمكن أن يحدث ، التقت بعض العيون في استفسار صامت لم يجرؤ واحد على أن ينطق به ، فالسيوف المشهرة كانت قاطعة الدلالة • إلا نفرا قليلا من العلماء ذوى العمامات الضخام ارتسمت على وجوههم الراحة فعكست ما في قلوبهم من رضا ، وهمس بعضهم لبعض كأنما يطمئنون أنفسهم : يستحق ما سيحدث له ، فما قاله كفر صراح لم يقل به أحد من السلف ، ولا أصل له في الكتاب والسنة • وتبادرت إلى أذهانهم كلمات الجعد في مجلسه إلى جوار سارية المسجد المواجهة للقبلة وهو يحاور تلاميذه : لا تقولوا إن القرآن ليس بمخلوق، فهو خلق من خلق الله •• هو كلام الله يامولانا •• هذا صحيح ، ومع ذلك فإنه ليس بقديم •• لكن الكلام صفة للذات الإلهية فهل يتعلق بها حادث •• المتعلِّق هو الحادث وليس المتعلق به ، ولو مضيتم على النحو الذى ترونه لانتهيتم إلى القول بتعدد القدماء تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، فكنتم كمن قال إن المسيح كلمة الله وانتهى منها إلى عبادته ، الله سبحانه واحد أحد ، فرد صمد ، كان وليس شيئ معه ، حذار من أن تنزلقوا إلى مسارب الشرك ، بالتوحيد وحده يجب أن تعتصموا ونعتصم •

دق الأمير الدرجة التى يقف عليها بقدمه وهو يشرع سيفه ملوحاً به في الهواء فصمت الناس ، فقال بصوته الآمر كلماته الأخيرة : اذهبوا ، وضحوا بضحاياكم ، تقبل الله منكم ، أما أنا فإنى أضحى بالجعد بن درهم . ساد الصمت واستشرفت العيون ، فنزل الأمير درجات المنبر بتؤدة والسيف ما زال مشرعا في يده ، ثم اتجه إلى الرجل المقيد يسأله سؤاله الأخير : ألا تتوب ؟ رد الرجل بصوت واهن لم يسمعه حتى الذين كانوا في الصف الأول : أحد أحد ، فرد صمد ، فوخزه الأمير في خاصرته بالسيف فامتدت تلقائيا عنقه ، هوى السيف فوقها ليتفجر الدم ويصل رذاذه إلى بعض المصلين في الصفوف الأولى . انتفض العالم الفقيه كبير العمامة حتى لا يصيبه الرذاذ المتناثر ، ولكن لم يفته أن يوجه حديثه إلى الأمير قائلا بإخلاص حقيقى : سلمت يمينك يا أبا عبد الله ، قضيت على الفتنة في مهدها ، جزاك الله خيراً . لكن الفتنة التى كان يشير إليها لا يقضى عليها بضرب الرقاب . لقد واصلت الأفكار رحلتها ، ونمت ، وتأصلت ، وشاعت ، وكسبت مواقع جديدة ، وهكذا بعد نحو قرن أو أقلّ قليلا كانت المواقع قد تبدلت ، وصار الضحية هو الجلاد .

* * *

غاب القمر فأصبح الليل شديد الظلمة برغم المصابيح الزيتية القليلة التى يحملها العسكر في أرجاء المعسكر المؤقت المقام للخليفة المأمون على أطراف الرقة في الطريق إلى طرسوس . الهواء داخل الخيام جامد شديد الرطوبة يفجرّ بما يقطر به من لزوجة الحنق ، أصوات صهيل الخيل التى يطعمها الجنود ترتفع فتتجاوب معها كلاب البرية بعواء لا ينقطع . هل يستطيع أحد النوم في مثل هذه الظروف مهما كان ما يعانيه من إجهاد جسدى ؟ منذ بدأت الرحلة من دار

السلام . أغلق الخليفة عينيه من جديد مستدعيا النوم لكن سلطانه القاهر عجز عن استدعائه فظل مسهدا يعانى الأرق ، فتح عينيه فلم يرو في البداية غير ظلمات محيطة لا يتخللها بصيص ضوء سوى ما كان يتسلل من فرجة باب الخيمة المسدلة الستار ، حدَّق فيها فلمح أشباحا تتحرك في الضوء الخافت ، لابد أنهم الجنود يتفقدون موقع حراستهم . أغمض عينيه من جديد وبدلا من أن يتسلل إليه النوم تسللت إليه الأفكار المؤرقة المتصارعة ، لقد شاء القدر له أن يكون رجل صراع برغم أنه كان يحلم في يفاعته وشبابه أن يكون رجل فكر حين امتلأ إعجابا في تلك المراحل بشيوخه الكبار ووجد في كل منهم عنصر تفوق : أعجب بقاضى القضاة أبى يوسف وقدرته على الحسم في الأحكام الدينية بما كان يبتكره من الحيل الشرعية وإن أخذ عليه أنه بذلك يحيل هذه الأحكام إلى طقوس شكلية ، وأعجب بمعلمه الكسائى ومقدرته على تقديم النحو خاليا من الخلافات حتى يصبح أداة مثمرة في إتقان اللغة ، وأعجب بشيخه أبى الهذيل العلاف وبراعته الفذة في استخدام العقل والوصول به إلى الحقائق الكلية التى لا سبيل معها إلى إنكار أو تردد . كم راوده وهو في تلك المراحل حلم أن تتاح له مقدرة خاصة تجمع بين هذه القدرات جميعا ، قدرة التفكير العقلى وقدرة التعبير اللغوى وقدرة الحسم في اتخاذ القرار الدينى حتى وإن خالف المألوف . وظل هذا الحلم ينمو معه وفيه بعد أن أيقن أن والده الخليفة هارون الرشيد قد بلغ الغاية في بسط سلطة الدولة والتمكين لها وإشاعة السلام فيها والرعب بين أعدائها بحيث لم يعد ثمة مزيد يمكن أن يضاف إليه ، فشغله حلمه الخاص في أن يكون امتداده الحضارى فكرا وثقافة ومدنيه ، لكن يأبى القدر إلا أن يحمله إلى الصراع حملا وأن يضعه في بؤرته مرغما ، وهل كان في وسعه أن يستسلم لما فعله أخوه الأمين وهو ينقض العهد

الموثّق الذى أشهد عليه أبوهما الرشيد كلّ من يعنيهم الأمر من أهل الحل والعقد ، ولماذا ؟ لمجرد أن يضع الدولة تحت سيطرة الأعراب الجفاة الذين لا تحكمهم غير ولاءاتهم القبلية فيحاولون إعادة الزمن إلى عصر الصراعات الملتهبة أيام الأمويين • فإذا انتهى الصراع مع الأمين حمل إليه القدر الصراع مع الروم في مواقع كثيرة بعد أن ظنوا أن الصراع الداخلى على السلطة كفيل بأن يتيح لهم تحقيق النصر • ولكن هذه الصراعات كلها - برغم شراستها وعنفها - كانت دون ما يعانيه في معركته الأخيرة التى استمرت أكثر من خمس سنوات • معركة التوحيد التى يجب أن يتحقق النصر الحاسم فيها ، لأنه بدونه تتهدد وحدة الدين والدولة والأمة ، تفجرت من جديد الأفكار في رأسه ، وعادت إلى ذاكرته ذكريات المحاورات والمناظرات منذ تتلمذ على أستاذه أبى الهذيل العلاف حتى جمع في بلاطه في قصر الخلافة في بغداد كبار العلماء من محدثين وفقهاء وقضاة ومفتين ووعاظ ، ليستكشف آراءهم ويحدد اتجاهاتهم ويقف على مواقفهم • "ليس في القضية ذرة من غموض فهى واضحة أشد ما يكون الوضوح ، الحق فيها واضح جلىّ ، والحسم فيها ضرورى ، ومع ذلك ما زال التردد يداخله كلما همَّ باتخاذ خطوته الأخيرة ، لقد بدأ خطواته الأولى منذ خمس سنوات بقراره حرمان المخالفين من تولى الوظائف العامة دينية أو مدنية ، مع إعلان إسقاط كرامتهم وعدم الإعتداد بأى نشاط لهم • ولكن هذه الخطوات لم تحسم الأمر فقد بقيت عناصر بين القيادات الفكرية تحظى باحترام العامة تتخذ موقفا يثير الشك فيها ، وثمة تقارير كثيرة تؤكد أن من هذه العناصر من يشكك في المذهب المختار بدعوى أنه لا أصل له في الكتاب أو السنة وأنه لم يقل به أحد من الصحابة أو التابعين • وهل في الكتاب أو السنة أن القرآن قديم ، وهل بين الصحابة

أو التابعين من ذهب إلى أن القرآن غير مخلـــوق • إنـــهم يـــأبون أن ينظروا وأن يفكروا وأن يتدبـــروا، ولو اتبعوا ما أمر الله به لما ترددوا في القول بخلق القرآن ، لأن البديل لذلك القول بأنه قديم ، وإذن يتعـــدد القدماء تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا • مواقف هؤلاء العلمـــاء تنـــذر بخطر الانزلاق إلى الكفر ، أليست شبيهة بما آلت إليه دعـــوة المســـيح عيسى بن مريم عليه السلام التى انتقلت من القول بأنه كلمة الله ألقاهـــا إلى مريم إلى القول بأنه قديم قدم الذات ، ثم إلى عبادته مع الذات • ألا يدرك هؤلاء أن القضية في جوهرها قضية التوحيد ، لا وقت بعـــد الآن لترك هؤلاء مهما كان ما يتظاهرون به • ولابد من الحسم ، لقد شـــاء الله أن يلقى على كاهلك هذه المسئولية ولن يســـتطيع أن ينـــهض بـــها غيرك ، إنه قَدَرك الدائم • لا مناص من المواجهة الحاسمة" •

جلس على الفراش وصفق بيديه مرتين ، دخل الحارس مســـرعا فبادره طالبا زميل الصبا ورفيق العمر : أحمد بن أبى دؤاد •

لم تمض لحظات حتى حضر ، ألقى التحية ثم صمت ناظرا إلـــى خليفته • بينهما من الفروق في الشكل ما لا يحد ، لكن ما بينهما مـــن المشابهة في التفكير ما يجبر كل فرق • حدق المـــأمون فـــي صديقـــه طويلا قبل أن يسأله : هل من جديد ؟ هل كان مـــترددا فعـــلا أو أنـــه اصطنع التردد وهو يجيب بالإيجاب ، استفسر الخليفة فقال ابن أبى دؤاد بعبارات قصيرة : بدأ بعضهم يخرج من الصمت إلى الطعن • ســـأله الخليفة ثانية عن الأسماء فقال : هما حتى الآن اثنان : بشر بن الوليـــد وإبراهيم بن المهدى • أما الباقون فما زالوا حتى الآن صامتين • أدرك الخليفة ما أراد أن يقوله ابن أبى دؤاد : إن الذين يضمـــرون الخـــلاف ويكونون جهة عريضة تمتد بين الفقهاء والمحدثين والقضاة والوعـــاظ والمفتين قد آثروا أن يجروا اختبارا عمليا لحسم السلطة ، فشرع اثنـــان

منهم في التهجم على المذهب المختار ، وهما ليسا إلا طليعـــة يعقبـــها الباقون في طول البلاد وعرضها إن لم تردعهما ليكونـــا عـــبرة لمـــن وراءهما ولكل من تسول له نفسه أن يحرّف العقيدة ويفســـد الديـــن • صمت الخليفة قبل أن يسأله رأيه ، فأجاب الرجل بيقين المؤمن : العقيدة في خطـــر ، وليس لها أحد سواك يا أمير المؤمنين • تمتـــم الخليفـــة مؤكدا : والدولة أيضا يا أبا عبد الله • وساد الصمت بينهما برهة قبـــل أن يقطعه الخليفة آمرا : هات قلمك وأوراقك فقد آن أوان الفعل بعـد أن طال الكلام حتى غرتهم الغرور وظنوا بنا الظنـــون • ومـــا هـــى إلا لحظات حتى شرع يملى عليه رسالته إلى نائبه في بغداد إســـحاق بـــن إبراهيم : "فليخير بشر بن الوليد وإبراهيم بن المهدى بين الإقرار القاطع الصريح بأن القرآن مخلوق وقطع رقابهما في ساحة العدل عقب صـــلاة الجمعة وإرسالها إلى أمير المؤمنين ، وليجمع الباقون من ذوى المكانـــة من الفقهاء والمحدّثين والمفتين والوعاظ والخطباء والقضاة والأمـــراء والزهاد والصوفية وكل مـــن له في العامة شأن ، واسألهم عن معتقدهم في القرآن ، ولا يقبل منهم إلا الإقرار الصريح الذى لا لبس فيـــه ولا غموض معه بأن القرآن مخلوق ، شأنه شأن سائر ما خلق الله • فـــإن تلكئوا أو توقفوا أو أبهموا أو أوهموا أو جمجموا فعذّبهم أقسى ما وصل إليه علمك من عذاب ، وليقادوا مقيدين في الأغـــلال الثقـــال تســـوقهم السياط الملهبة لظهورهم إلى أمير المؤمنين ، وليعلموا أن السيف وحـده هو الذى ينتظرهم عنده فور وصولهم إليه حتى يدركوا ما هم مقبلـــون عليه • فقد انتهت ساعات الحوار والجدال التى نحتسب جـــهودنا فيـــها عند الله ونحن نحاول إقناع الضالين المضليـــن مـــن أهـــل السمـــت الكاذب ، والتخشع لغير الله ، والتقشف لغير الدين ، ومن معـــهم ممـــن جادلوا بالباطل ونسبوا أنفسهم إلى السنّة • وفي كل فصل من كتاب الله

قصص من تلاوته مبطل قولهم ، ومكذب دعواهم ، يرد عليهم قولهم ونحلتهم ، ثم بالغوا في ضلالهم فادعوا أنهم أهل الحق والدين والجماعة ، وأن من سواهم أهل الباطل والكفر والفرقة ، فاستطالوا بذلك على الناس وغرّوا به الجهال • أولئك هم الذين أصمَّهم الله وأعمى أبصارهم ، أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ، أولئك هم شر الأمة ورءوس الضلالة ، المنقوصون من التوحيد حظا ، والمخسوسون من الإيمان نصيبا ، أولئك هم أوعية الجهالة وأعلام الكذب ، هم لسان إبليس الناطق في أوليائه ، أولئك الذين نقصت عقولهم ، وضعفت آراؤهم ، حين ساووا بين الله تبارك وتعالى وبين ما أنزل من القرآن ، فأطبقوا مجتمعين واتفقوا غير متعاجمين على أنه قديم أول ، لم يخلقه الله ويحدثه ويخترعه ، وقد قال الله عز وجل في كتابه الذى جعله لما في الصدور شفاء ، وللمؤمنين هدى ورحمة : "إنا جعلناه قرآنا عربيا" ، وكل ما جعله الله فقد خلقه ، وقال "الحمد لله الذى خلق السموات والأرض ، وجعل الظلمات والنور" ، فسوى بين خلق السموات والأرض والظلمات والنور وخلق القرآن ، فهى جميعا مخلوقة بقدرته ، مجعولة بإرادته • وقد ضاهوا بما قالوا قول النصارى في ادعائهم في عيسى بن مريم أنه ليس بمخلوق ، إذ كان كلمة الله ، والله عز وجل يقول : "إنا جعلناه قرآنا عربيا "وتأويل ذلك : خلقناه ، فالجعل هو الخلق ، كما قال تعالى : " وجعل منها زوجها ليسكن إليها" وقال سبحانه : "وجعلنا الليل لباسا ، وجعلنا النهار معاشا" وقال : "وجعلنا من الماء كل شيئ حى" ، فسوى عز وجل بين القرآن وبين هذه الخلائق التى ذكرها في شبه الصنعة • وقال سبحانه : "بل هو قرآن مجيد ، في لوح محفوظ" ، فدل ذلك على إحاطة اللوح بالقرآن ولا يحاط إلا بمخلوق • فكل من قال هذه المقالة ليس له حظ في الدين ، ولا

نصيب من الإيمان واليقين • فنفّذ أمر أمير المؤمنين فور وصول هـذا الكتاب إليك ، فلم يعد في قوس الصبر منزع" •

ما إن فرغ الخليفة من إملاء كتابه حتى أدركه صمت طويلا أغمض فيه عينيه ، ثم فتح عينيه وصفق مرتين آمرا الحارس أن يرسل في استدعاء المسئول عن البريد ، وحين جاء أمره بإرسال الرسالة مع أكثر رجاله جلدا وأشد خيله قوة على ألا يستريح إلا في قصر الحكم في بغداد • وصفق من جديد طالبا ماء يجدد به وضوءه قائلا لابن أبى دؤاد : علينا أن نؤدى صلاة الشكر لله على ماحبانا به من نعمة العمل على الحفاظ على عقيدة الأمة ودفع الانحراف ووأد الشرك ، وقطع دابر الاختلاف في الدين • تمتم الرجل داعيا : سلمت للدين وللأمة يا أمير المؤمنين •

* * *

– إنه يوم الامتحان •

قالها محمد بن نوح لنفسه وهو ينقل بصره فيمن حوله من الذين تم حشدهم في قصر الحكم في بغداد ليتولى مساءلتهم واستبطان دخائلهم نائب الخليفة إسحاق بن إبراهيم • لأول مرة فيما يعلم يجمع علماء الأمة ومفكروها وقادتها وأمراؤها وقضاتها وذووا الرأى فيها ليمتحن كل منهم في عقيدته أمام نائب الخليفة عييّ العقل واللسان على مشهد منهم جميعا• لو كان المأمون نفسه لكان الأمر برغم سخفه هينا • فهو رجل يحسن التفكير والتعبير والنقاش والمحاورة • أما هذا النائب فلا يحسن إلا أن يلوح بسيفه وهو يأمر الكاتب أن يكتب الكلمات ويسجل العبارات ، لن يفهم شيئا مما يقال ولن يتخذ موقفا إلا ما أمر به • "فعلها ابن أبى دؤاد" ، جالت في خاطره الفكرة فاستغرقه التفكير في

أسبابها حتى أنه لم يسمع ما صرح به النائب من قرار الخليفة بشأن بشر بن الوليد وإبراهيم بن المهدى فلم يظهر على وجهه أثر ، لكنه ابن حنبل منبها فالتفت مستطلعا ، فلما أبلغه ما قاله الكاتب من أمر الخليفة بقطع الرقاب اربد وجهه وهو يحوقل وهمس لصاحبه : هذا إذن ما يريد ابن أبى دؤاد ، أن يحملنا حملا بحد السيف على أن نخالف السنة ونخرج عن الجماعة ونقول في العقيدة بالرأى ، تمتم ابن حنبل بصوته الهادئ المألوف : إنها إرادة الله في الابتلاء ، نسأله سبحانه اللطف فيه ٠

استغرق الرجلان المتجاوران في تأمل ما يريان ويسمعان في الموقف الغريب غير المسبوق ، ورأيا ما راح يملؤهما حزنا وأسى : القمم الشامخة في العلم والمكانة تنحنى ذليلة أمام العاصفة ، وبدلا من التصدى والمواجهة والثبات تحاول التخلص أو التملص أو التمويه عسى أن تفلت بشيء من كرامة أهدرتها السلطة ، كثير منها هزه حتى النخاع خبر الرءوس الطائرة فاندفع إلى السقوط اندفاع من لا يلوى على شيء غير ملتفت إلى أن القدوة لا تقبل منها تقية ٠ ولا يكتفى بسقوطه المفزع بل يحاول استدراج غيره إليه حتى يكونوا سواسية في الاختبار الذى قادهم إلى المستنقع ، وبعضها حاول تسويغ موقفه مستعملا كلمات ضبابية تقبل كل احتمال عسى أن ترضى بها السلطة ، لكن السلطة تأبى إلا الكلمات القاطعة الدلالة حتى يكون الموقف شديد الوضوح ، وراحت تتردد على الألسنة كلمات ضراعة مستجدية وتوسل مهين : "أمير المؤمنين إمامنا ، وبسببه سمعنا عامة العلم ، وقد سمع ما لم نسمع ، وعلم ما لم نعلم ، فإن أمرنا ائتمرنا ٠٠ إنّ أمير المؤمنين قلده الله أمرنا فصار يقيم حجنا وصلاتنا ، ونؤدى إليه زكاة أموالنا ، ونجاهد معه ، ونرى إمامته هى الإمامة ٠ فإن دعانا إلى شئ أجبنا ٠٠ إن أمرنا

أمير المؤمنين بشيء سمعنا وأطعنا .." لكن كلمات التوسل وعبارات التضرع لا تجدى في مواقف العسف ، فالسلطة القاهرة تأبى إلا أن يكون السقوط مدويا ومشهودا حتى تتردد أصداؤه في أرجاء الدنيا . صار العالم غريبا ، هل يصدق أحد أن هؤلاء هم عقل الأمة وشرفها ، هم الذين يرفعون شعارات الحق والعدل فيها ويقيمون دعائمها ، أى حق يتوقع منهم وهم عند الامتحان تدفعهم الخشية على رءوسهم إلى مذلة أبشع من الموت لأنها تجعل صاحبها يتجرع الموت في كل لحظة فيعدلون عما يعتقدون ويقررون ما لا يؤمنون ويعلنون ما ليس به يدينون ، لكن الأمة لا تجمع كلها على ضلالة فلا تزال فيها فئة قائمة على الحق تأبى أن يسقط شرفها خوفا ورهبة ، وترى في الرعب مذلة أكبر من كلْ مذلة ، وموتا متجددا دونه كل موت .

حين صاح نائب الخليفة مناديا أحمد بن حنبل وقد جاء دوره في الامتحان نظر إليه محمد بن نوح قائلا كأنما يوصيه بالثبات : لله الأمر من قبل ومن بعد ، همس ابن حنبل وقد وصلته الرسالة : قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ، بادر النائب ابنَ حنبل : ما تقول في القرآن ؟ ، قال ابن حنبل : هو كلام الله ، قال النائب ضجرا : ما إلى هذا قصدت ، أنا أسألك كما أمر أمير المؤمنين : أقديم هو أم حادث ، رد ابن حنبل بهدوء : هو كلام الله . انفجر النائب غاضبا معلنا أن لديه نصا مكتوبا عليه أن يوقعه ، وأمر الكاتب أن يقرأ النص : فقرأ : أشهد أن لا إله إلا الله ، أحد فرد ، لم يكن قبله شيء ، ولا بعده شيئ ، ولا يشبهه شئ من خلقه في معنى من المعانى ولا وجه من الوجوه . قال النائب كأنما يأمره : وقع الصفحة . قال ابن حنبل : يغنى عنها ما ورد في القرآن نفسه إذ يقول سبحانه : ليس كمثله شيئ وهو السميع البصير . همَّ النائب أن يصمت وقد أفحمته الكلمات لكن ابن البكّاء

الذى بادر إلى السقوط يأبى إلا أن يقود غيره إليه ، صاح في النائب منبها : أصلحك الله وأعزك إنه يضلك ويأبى أن يقر ما رأى أمير المؤمنين • صاح فيه النائب مغضبا : كيف ؟ قال ابن البكّاء : إنه يقول سميع بصير ، ازداد غضب النائب وهو يسأله : وماذا في ذلك ؟ قال ابن البكاء موضحا : إنه يعنى سميع بأذن ، بصير بعين ، فهو بهذا يخالف ما يرى أمير المؤمنين ، عاد النائب إلى سؤال ابن حنبل : ما معنى سميع بصير ؟ قال : هو كما وصف نفسه لا أزيد على ذلك حرفا • أحس النائب بأنه لا يستطيع الاستمرار في غير ما هو مؤهل له فصاح فيه : ألا توقع ؟ رد ابن حنبل بهدوء وحسم : كلا • عقب النائب غير آسف : لقد اخترت بنفسك لنفسك ، وأشار بيده إلى الحراس • صمت الحاضرون مستطلعين فتابع النائب قائلا بصوت عال حتى يسمعوه جميعا : قيدوه في الأغلال الثقال ، وليلق الليلة في السجن حتى يصبح ، ثم يرسل حافيا عاريا حاسرا إلى أمير المؤمنين حتى تقع رأسه بين يديه كما أمر حفظه الله •

حل الصمت الكئيب حتى بين الذين قادهم الرعب إلى السقوط ، وتخايلت لهم رأس العالم الزاهد مضرجة على النطع بين يدى الخليفة متوسطة رأس أخويه بشر بن الوليد وإبراهيم بن المهدى • ارتجفت الأعماق وزاغت الأعين وبلغت القلوب الحناجر • كيف تمالك محمد بن نوح نفسه ليقول الكلمات نفسها كأنما يتعمد إغاظة النائب :

- القرآن كلام الله •

- كفى عبثا ، أنتم جميعا تعلمون ماذا يقصد أمير المؤمنين من هذا السؤال •

- ليس لأمير المؤمنين أن يسأل عما ليس في الكتاب والسنة •

تفجّر الصمت الذاهل وحدقت العيون المندهشة ، تـــأمل النـــائب الشاب الذى يتكلم ، إنه لا يملأ عينا ولا قلبا ، قصير ضعيف مـــهزول مغضن الوجه والجبين معروق اليد كأنما هو هيكل قمئ لجثة أدركتـــها تنبلى . لكنه يقف بثبات ويتكلم دون أن تغلف صوته رعشة خـــوف . كيف واتته الجرأة على أن يقول ما قال ! نقّـــل النـــائب بصـــره بيـــن الحاضرين علّه يرى على الوجوه نظرة غضب أو يسمع عبارة استنكار لكنه لم يجد سوى أفواه فاغرة من الدهشة وعيون تفجرت فيها نظـــرات إجلال غير محدود . أدركه غضب حقيقى ، موقفـــهم إذن مـــن أمـــير المؤمنين مجرد تظاهر لا يصدر عن يقين أو اقتنـــاع ، تفضحـــه أول تجربة . استبدبه الغيظ لإحساسه بالعجز ، ولولا خوف من أمر الخليفـة لنالت منهم السياط . صاح مستجديا : أليس منكم من يرد علـــى هـــذا الرجل . لكن الكلمات توقفت في الأفواه ، وسمع همهمات لم تلد غـــير أصوات متقطعة ليس لها معنى . تابع صياحـــه مزمجـــرا : ألحقـــوه بصاحبه ، ولينله من العذاب ما لا عيـــن رأت ولا أذن سمعـــت ولا خطر على قلب بشر حتى يلحق هو وصاحبه بأمير المؤمنين . لكنـــهما لم يلحقا به ، أما ابن نوح فلأنه لم يتحمل أفانين العذاب الذى تواصـــل وامتد حتى فاضت روحه في الطريق إلى طرســـوس حيـــث معســـكر الخليفة ، وأما ابن حنبل فلأن الخليفـــة نفسه أسلم روحه قبل أن يصـــل إليه ، فأعيد إلى السجن حتى يرى الخليفة الجديد رأيه فيه .

* * *

قال الشيخ تعليقا على ما قد أتى :

هذا زمن الكشكشة

والكسكسة

والهلوسة

والوسوسة

والمومسة

. . . .

هذا زمن القائد فيه يقود

حيث الرءوس بغايا

تحسن عرض السلعة

بنتًا ، أختا ، زوجة

أو حتى أمّة

كى يصبح الشرف المغصوب رصيدا

في بنك الحكمة غير العذراء

. . . .

نماذج بشرية

الأعمال الأدبية للمؤلف المطبوعة

- الموت عشقا
- العاشق ينتظر
- أشجان العاشق
- سفر الغربة

تحت الطبع

- سفر العودة
- سفر الثورة